عرفه عبده على

القاهرة ...

رحلة

فى المكان والزمان

تقديم الأديب الكبير

جمال الغيطانى

القاهرة التاريخية :

القاهرة الحديثة :

ـ تاريخ العظمة : (السرايات الملكية) قصور الحرملك ـ قصر الجوهرة ـ سراى الأزبكية ـ سراى الجيزة ـ سراى عابدين ـ سراى الجزيرة ـ سراى البرنس محمد على

ـ فنادق : شبرد ـ مينا هاوس

ـ كبارى القاهرة

ـ الزمن يمضى على قضبان : حكاية القطار ـ حكاية ترام القاهرة

ـ شوارع : بولاق ـ شبرا ـ الموسكى ـ درب الجماميز ـ محمد على ـ عماد الدين .

ـ متاحف : حكاية الانتيكخانة ـ متحف الفن الاسلامى ـ المتحف القبطى ـ متحف محمود خليل ـ متحف مختار

ـ من عظماء القاهرة : على باشا مبارك ـ محمد مظهر باشا ـ طه حسين ـ أحمد شوقى ـ مصطفى باشا عبدالرازق ـ يحيى حقى ـ توفيق الحكيم ـ نجيب محفوظ .

ـ النهر الخالد : وفاء النيل ـ النيل فى عيون أوروبية

أسطورة أم واقع ؟

لا ندرى بعد مرور أكثر من ألف سنة . لكن سائر المصادر التاريخيه المصرية تذكر تلك الواقعة التـــى جرت فى ذلك اليوم البعيد ، النائى ، المندثر ، من فبراير ٩٦٩ ميلاديه .

مائة ألف مقاتل من القبائل المغربية نزلوا هذا الموضع من بر مصر ، أراض فسيحـة ، ممتدة شمال ثلاث مدن تعاقب تشييدها منذ الفتـــح العربـــى لمصر سنة ٦٤٠ هجرية . الفسطاط ، العسكـــر ، القطائع ..

من اختار المكان ؟

أهـــو القائد العسكرى للجيش الفاطمـــى الغزى جوهر الصقلـــى ؟ أم أنه أحد مساعديه ؟ أو أحد عيون الفاطميين فى مصر الذين عملوا من أجلهم قبل قدومهم من شمال أفريقيا ؟

لا أحد يدرى ، ما من إجابة قاطعه يقدمها إلينا التاريخ ، لكن الوقائع تنسب الفعل والقرار إلـــى جوهر قائد الجيش . بعد عبورة النيل قادما من بر الجيزة عند المنيل ، اتجه الى الصحراء القريبة مـــن تلال المقطم وضرب خيامه ، فيما بعد سيقول له سيده العظيم ، الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، " لـــو أنك جعلتها قريبة من الماء .. " أى النيل .. لابد أن أعتبارا عسكريا دفع القائد جوهر الى اختيار الموقـــع ، ذلك أن جبل المقطم يقود ناحية الشرق ، فهو بمثابة خط دفاعى حصين وفرته الطبيعة ، لم يكن فى المكان كله إلا دير قبطى قديم يسمى " دير العظام " وبستان جميل يعرف بحديقة كافور الذى حكم مصر قبل مجـــىء الفاطميين .

وضعت قوائم خشبية لتحديدموضع الحصن الجديد ، أو القصر الجديد للخليفة الفاطمى الذى سيصل فيمـــا بعد ، أو للمدينة الجديدة التى ستكون مقراً لحكمه ، فـــى ركن نائى وقف المنجمون المغاربة يتشاورون فيما بينهم لتحديد مدى بدء العمل ، كانت الأجراس معلقه علـــى الحبال الممتدة من عمود الى آخر ، وذلك انتظاراً للموعد الذى يحدده أولئك الحكماء ، وحتى يبدأ العمال .

لكن حدث شىء سبق كلمة المنجمين .

إذ وقف طائر على طرف أحد الأعمدة ، وبذلك أخذت جميع النواقيس تدق ، ومــن ثم بدأت المعاول تحفر ، ولحظة دق الأجراس ، كان كوكب المريخ فـــى صعود ، والمريخ أحد أسمائه القاهـــر ، وبمقاييس المنجمين يعد طالعه مشئوماً ، فالقاهر مرتبط بالحرب (مارس فى الغرب) ، لكن .. لم يكن هناك مفر ، هكذا .. بدأت أولى خطوات القاهرة عبر الزمن ، بدأت التقدم فى درب الأيام الممتد ، لتشمل كل ما سبقها من عواصم ، ولتسعى فيها ملايين الحيوانات ، ولتتغير من حقبة الى حقبة ، من مدينة يسكنها الخليفـــة وحاشيته فقط ، إلى مدينة يسكنها الآن خمسة عشر مليونا ، تستمر حياتها الداخليه فى تدفق مستمر ، أبدى ، فى المكان .. والزمان .

الموقع

هل كان ممكناً للقائد جوهر أن ينزل مكاناً أخر ؟ هل كان ممكناً أن يختار موقعاً آخر للقاهرة ؟ ، أوقن أن الإجابة بالنفى ، فالموضع الذى اختاره لم يحدده هو ، إنما أسهمت فى اختياره عناصر عديدة ، منـــها التاريخية والجغرافية والسياسية .

وما من بناء فى القاهرة القديمة إلا وتروى حوله الحكايات ، فى بعضها عناصر حقيقيه مـــن التاريخ ، ومعظمها نسجته المخيلة الشعبية وهذا شأن المكان الذى تتراكم فيه طبقات التاريخ ، فـــى القاهرة القديمه أضرحة صغيرة لمشايخ وأولياء مجهولين ، اسم كل منهم سيدى الاربعين ، لا يعرف أحد علـــى وجه التحديد من هم ، ومن أين جاءوا ، وفى كثير من الليالى كنت أرى شمعه أوقدها مجهول علـــى أحد هذة الاضرحة ، أو عابر سبيل يقف ليقرأ الفاتحه ، وفـــى الريف المصرى أيضاً تنتشـــر أضرحـــة سيدى الأربعين وقد حيرنى هذا طويلاً ، الى أن أهتديت الى تفسير خاص ..

ذلك أن أسطورة ايزيس و أوزيريس تقول أن إله الشر ست قتل أوزيريس ومزق جسده الـى أربعين قطعه ، دفن كل منها فى منطقه مـــن أرض الوادى ، وأن ايزيس راحت تبكى دامعةً وهـــى تحاول جمع تلك الأجزاء ، ومـــن دموعها فاض النيل ومازل يفيض ، الأسطورة القديمة بقيت فى الضمير ، وعبرت عن نفسها فـــى أزقة المدينة الكبيرة وحواريها ، المدينة التى ورثت كل المدن ، الحكايات بلا حد ، ولكننى مورد ما سمعته فى الجمالية حيث نشأت ، فى قلب القاهرة القديم يقوم مسجد سيدى ومولاى الحسين عليه السلام إنـــه ليس المركز الروحـــى للقاهرة فحسب ، ولكنه المركز الروحـــى بالنسبه للوادى كله ، لكل

محافظةً فى مصر وليها وشيخها ، للوجه البحرى وليــه وحاميـــه سيدى أحمد البدوى ، وللصعيد سيدى عبدالرحيم القنائى ، للمنيا سيدى الفولى ، وللأقصر سيدى أبو الحجاج ، ولكــل مدينة شيخها الشهير الذى يقصده الناس ، فكأن هناك نظاماً هرمياً يبدأ من العاصمة المركز حيث ضريح مولانا الحسين ، وشقيقته الطاهرة زينب ، فكأن العالم الروحى للأولياء والقديسين مواز لهرمية السلطة والإدارة ، الــى الشرق من ضريح مولانا يمتد حى قديم اسمه أم الغلام ، تقول الروايات المتداولةً إن رأسه الطاهر بعد أن احتــز فى كربلاء طار لمدة أربعين يوماً حتى حط فى القاهرة (لم تكن القاهرة شيدت بعد) حط فــى حجر امرأة فقيرة تبيع الفاكهةُ ، تعرفت عليـــه واحتضنته ، وكان عطر يفوح منها ، خبأت المرأة الرأس الشريف ، وعندما جاء جند يزيد يبحثون عن الرأس ، قامت المرأة بحز رأس ابنها الغلام ، وقدمته اليهم علـــى أنه الرأس الذى حط عندها ..

هذا هو تبرير اطلاق اسم أم الغلام على هذه الناحية القريبةً من الضريح الحسينى ، ولكـــن الغريب أنه يوجد شق صغير فى جدار الجزء المتبقى من المسجد الأُصلـــى الذى بناه الفاطميون ، هذا الشق عطر الرائحه ، إذا وضعت اليد فيه خرجت بعطر غريب ، رقيق ، ولكـــم حملت يدى هذا العبق ، يقول الناس هنا ، إن هذا هو الموضع الذى حط فيه الرأس الشريف بعد أن طار أربعين يوماً مـــن كربلاء مسبحاً موحداً .

من يضع العطر ؟

ما مصدره : لقد سألت ، ودققت ، وحققت ، فلم أصل الى جواب يقينى .

إذن ورثت المدينة الجديدة التى إختطها جوهر كــل ما قام من عواصم قبلها ، وتحولت هذه المدن السابقة الى مجرد أحياء أصبحت من نسيج المدينة ولحمتها ، الموقع هو الأساس ، يقول الدكتور فتحى مصيلحى فى كتابة عن تطور العاصمةٌ والقاهرة الكبرى : إن النظـــم السياسية المتعاقبة علـــى مصر اكتشفت أهمية موقع رأس الدلتا (حيث يبدأ تفرع النيل الـــى فرعين) ونهاية الصعيد ، وتحصى حركة العواصم المصرية عبر خمسة آلاف سنة بعشرين موقعاً ، حتى استقر الموقع القاهرى ، وذلك لعدة أسباب منها :

* الموقع الجغرافى المتوسط للوادى كله .

تمتع موقع القاهرة بإمكانيات حماية طبيعية ، إذ تقع فى ملتقى مداخل مصر الأربعة ، الشمالـــى طرقته سبع غزوات ، الشمالى الغربى جاءت منه غزوتان فقط ، ومن الجنوبى خطر واحد ، أما المدخل البحرى فجاء منه الخطر الأوروبى . هذا الموقـــع المتوسط بالنسبة للمدخل يسمح بوجود شقة أرضية تسمـــح بالعمليات الحربية وتعويق حركة الغزاة ، أما تلال المقطم فـــى جنوب شرق القاهرة فتزيد من صعوبة اختراقها بريا" ، كما أن هذا المركز نقطة عبور وحركة .

هكذا منح الموقع عناصر الحكم والسيادة بجوانبها المختلفة ، على المستوى المادى أو الروحى ، وليس هناك رمز على مركزية القاهرة مثل قلعة الجبل والمكانة التى كانت تحتلها حتـــى بدايات القرن التاسع عشر .

القلعة .. وميدانها

عندما زالت الدولة الفاطمية ، وجاء صلاح الدين الأيوبى الذى أجهز على ما تبقى منها ، بدأ بناء قلـــعة الجبل لتكون مركزا" للحكم بدلا" من قصور الخلفاء الفاطميين التى احتوت عليهـــا القاهرة ، اختار للقلعة موقعا" فريدا" فوق تلال المقطم الصخرية ومـــع مرور الزمن أصبحت القلعة مركزا" للحكم خاصة فـــى العصر المملوكى الثانى ، اتسعت وأصبحت تشبة مدينة صغيرة مستقلة . وعندما كانت تنشب الصراعات بين السلطان وخصومة ، كانت النقطة الحاسمة الفاصلة هى الاستيلاء والسيطرة على القلعة ، ومن أهـــم الأماكن فيهـــا قصر السلطان نفسه ، والاصطبل .. حيث الخيول التـــى توازى سلاح المدرعات الأن ، والحواصل السلطانية أى مخازن المؤن ..

بمجرد الاستيلاء على القلعة ينتهى الصراع ، فكأن المكان رمز حاد للسلطة" يحتوى بلغة عصرنا علـــى الإذاعة حيث يبث البيان الأول فى دول العالم الثالث ، ومعسكرات الجيش وكافـــة الهيئات الادارية ، فأى رمز لمركزية السلطة أبلغ من هذا ؟

فى مواجهة القلعة تقوم عمارة أخرى من أعظم العمائر فى العالم الاسلامى ، إنـــه مسجد السلطان حسن ، كتلة معمارية هائلة" ، كانت تبدو كصرح ضخـــم للقادم من بعيد قبل أن تقترب منها المبانـــى وتنال من الفراغ المحيط بها ، إن روعة العمارة ، وثقل الزمن القديم المتوارث هنا ، جعل لميدان القلعة خصوصية"

فريدة ، كان فى الزمن المملوكى يسمى ميدان الرميلة ، وفـــى العثمانى قرة ميدان ، أى الميدان الأسود ، وذلك لوجود سجن شهير علــــى مقربة منه ، ثم أصبح اسمه ميدان صلاح الدين نسبه الى مشيد القلعة ، غير أننـــى أفضل تسميته ميدان القلعة ، وما مـــــن مرة أمضى إليه ، وأقف بين مدرسة السلطان حسن السامقة ، ومسجد الرفاعـــى الذى أنشىء فـــى القرن الماضـــى ، وحاول مهندسه العثمانى محاكاة بناء المدرسة العظيم ، ما من مرة أقف فيها هنا إلا وأشعر أننى انتقلت الـــــى عدة عصور منقضية ، وليس عصر واحد فقط ، فى المواجهه تقوم القلعة فوق ربوة مرتفعة ، وإلـــى جانب الميدان الأيسر مسجد أمير آخور القادم الينا مــــن الزمن المملوكى ، ومسجد المحمودية مـــن الزمن العثمانى والرفاعى من القرن الماضــــى ، أما الميدان نفسه فلكم يوحـــى ، أتذكر وصف ابن اياس له فى حقبة السلطان الغورى عندما غرس فية الاشجار ، وأتى اليه بالنباتات النادرة ، وأطلق فيه الغزلان والنادر من الطيور ، وهذا البهلوان الأجنبى الذى جاء ومد حبلاً بين مئذنة السلطان حسن والقلعة ثم مشى فوقة ، وكان الأمر فرجه لأهالـــى المدينة ، هنا كانت تبدأ المواكب السلطانية التى حفظت لنا كتب التاريخ أوصافاً رائعة لها ، وحتى بدايات هذا القرن كان موكب المحمل يبدأ من ميدان القلعة ، كذلك موكب رؤية هلال شهر رمضان هنا أيضـــاً كانت تنتهى مواكب السلطان ، بعد أن يشق مدينة القاهرة بدءاً من عبور بوابة الفتوح ، ثم شارع قصبـــة القاهرة ، ثم شارع الصليبة ، حتى ميدان القلعة ، وهذه المسميات يمكن اعتبارها اسماً لشارع واحـــد ، مازال متصلاً حتى يومنا هذا ، ولكنه يقاوم البلى وأيدى الهدم التى لا تحفل بذاكرة التاريخ ، ولا تحتفـــى بما خلفه لنا الماضى من كنوز وأثار ، إنما تعتبرها عبئاً ثقيلاً فتحاول الخلاص منـــــه ، تلبية لمتطلبات قصيرة المدى ، أو بدعوى فهم خاطىء للتحديث .

أعود الى وقفتى بميدان القلعة ، الى هنا كان يجىء السفراء الأجانب قبل صعودهم الـــى مقابلة السلطان ، كانت التقاليد تقضى أن يدخلوا المدينة من بوابة الفتوح ، وقبل عبورهم يقبلون الأرض ثلاثة مرات .

ومازالت بوابة الفتوح قائمة الى جانب اثنتين أخريين فى حالة جيدة تماماً ، بوابة النصر ، وبوابـــة زويلة التى استغلها المهندس الذى شيد مسجد المؤيد شيخ الحموى فوضع مئذنتيه فوقها مما أكسبها شكلاً جمالياً فريداً متميزاً ، وهذه البوابة هى شعار القاهرة الأن ، توجد بوابة أخرى كشفت عنها الحفائر الحديثـــــة ولكنها ليست فى حالة جيدة ، متكاملة مثل الأخريات ، إنها بوابة البرقيه . وهذة البوابات الأربع المتبقيـــة

مـــــن أصل سبع كانت تتخلل السور الحجرى العظيم الذى بناه أمير الجيوش بدر الدين الجمالى الأرمنى الأصل قرب نهاية الدوله الفاطميه ، ومازالت أجزاء كاملة مـــن السور باقية إلى يومنا هذا كنموذج فريد على العمارة الحربية الإسلامية القديمة .

هنا فى ميدان القلعة كانت تبدأ الاستعراضات العظمى ، والاضطرابات العظمى أيضاً ، عند وقوع الفتن . وإندلاع المنازعات ، يلبس المماليك " حربى " ويركبون خيولهم المطهمة ، ويشهرون أسلحتهم ، عندئذ تنسحب المدينة داخـــل ذاتها ، يغلـــق الناس أبوابهم ، وحوانيتهم ، وتخلو الشوارع من المارة ، ويسود الترقب والحذر انتظاراً لحسم الصراع ، هكذا كان موقف الشعب مـــن فتـــن المماليك ، وصراعاتهـــم ، واضطراباتهم ، ولكن هذا الموقف السلبى لم يكن فى كل الحالات ، فكثيراً ما كان يتدخل الناس لحســـم الصراع ، أو للتعبير عن رأيهم ، كما حدث عندما خرجوا يتظاهرون هنا فى ميدان القلعة مطالبين بعودة السلطان الناصر محمد بن قلاوون بعد عزله فى المرة الأولى والمرة الثانية . وأيضاً خلال فتنة الاميـــر منطاش فى بداية حقبة المماليك الجراكسة ، لكم ضج هذا الميدان العتيق بالحياة ، والحركة ، ولكم تقررت فيه مصائر ، كما أنه لا يخلو من دلالات مستمرة حتى الآن . فى تقديرى أن بناء مسجد السلطان حســـن الهائل القائم فـــى مواجهة القلعة مقر السلطان يعبر عـــن مواجهة بين السلطة المدنية (القلعة) والسلطة الدينية ، إن شموخ البناء وقوته وجدرانـــه العاليـــة الصارمة ، ليبدو وكأنه يتحدى القلعة الواقفة ازاءه ، وبسبب موقع المسجد ـ المدرسة ، وبرغم كونه رمزاً للسلطة الدينيه إلا انـــه استخدم فـــى الصراعات السياسية بسبب موقعه ، فعند حدوث قلاقل فى القاهرة ، كان هدف الثوار الأول تحويل هذا المسجد الـــى معقـــل لهم ، فالمنظر الخارجى يشبه حصناً هائلاً مكعب الشكل ، يزيد مـــــن مظهر ارتفاعه فجوات عمودية بها نوافذ ضيقه ، وحافه بارزة تمتد فـــى أعلى الجدران ، إن مسجد مدرسة السلطان حسن يعد ذروة العمارة المملوكية استغرق بناؤة سبع سنوات (٧٥٧ هـ ـ ٧٦٣ هـ) وبذل فـــى سبيل اتمامه جهداً فائقاً ، وأموالاً ضخمه ، قال السلطان نفسه ، " لـــولا أن يقال : ملك مصر عجز عـــن اتمام بناء بناه لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرف عليه " .

إن الوقفه فى ميدان القلعة ، وخاصة أمام مسجد السلطان حسن ، مدخل مناسب للحديث عـــن خصوصية العمارة الاسلامية المصرية .

خصوصية فريدة

كأنه اليسر بعد العسر

كأنه الفرج بعد الضيق والشدة ..

كأنه الخروج من محدودية الرحم إلى رحابة الحياة ..

هكذا يبدو الممر غير المستقيم ، المنعطف فجأة بدون سابق تنبيه ، والذى يلـــى مباشرة المدخل السامق ، شاهق الارتفاع ، المحفوف بالزخارف ، والمقرنصات الحجرية ، فكأن المدخل الهائل حـــــد فاصل بين الحياة خارج المسجد ، والحياه داخله ، وكأنه اجتياز لبوابة تفصل بين عالمين مختلفين ، عالم المادة وعالم الروح ، لكنك لا تلج العالم الثانى فجأة ، بغتهً ، إنما بالتدريج ، وعلى مهل ، وهذا الممر الضيق يتولـــى ذلك ، هذا الممر تجده فـــى معظم المساجد الضخمه التـــى شيدت فى الزمن المملوكى ، عصر ازدهار العمارة المصرية ونضجها ، وبلوغها الشخصيه المتكاملة فى العصر الوسيط سوف تمر به فـــى مدرسة السلطان حسن ، فى مدرسة السلطان برقوق فى الطريق المؤدى الى مسجد المنصور قلاوون وقبة الدفن الملحقة به ، فى مسجد السلطان قايتباى ، فى معظم المساجد الهائلة ، لن تلج الى داخل البناء مباشرة ، إنما لابد من هذا الممر ذى الانعطافات الذى يهيىء الروح للاستقرار هناك ، وفى نفس الوقت ينأى بالعالـــم الخارجى شيئاً فشيئاً ، فتبعد أصوات الطريق ، وضجيج الحياة اليومية ، وحمولهـــا ، وهمومهـــا ، لقد اعتدت الخلوة بضعة ساعات فى مدرسة السلطان حسن ، وفى مسجد المؤيد شيخ الحموى ، وقـد مررت بهذة التجربة ، فبعد اجتيازى هذا الممر الملتوى أشعر وكأننى نأيت ، حتـــى اذا جلست فـــى الصحن المكشوف أو المغطى تبدو أصوات الطريق كظلال باهته من عالم آخر ، بعيد ، حتى إذا اقتربت مـــن النوافذ المطلة مباشرة على الطريق أو الميدان ، تبقى تلك المسافه الفاصلة بينـــى وبيـــن ضجيج الحياة اليومية ، وعند الاقتراب من نهاية هذا الممر الذى يقوم بعملية الانتقال ، لا يلوح داخل المسجد مباشـرة ، لا يسفر الصحن عن نفسه مرة واحدة ، بل ترى جزءاً من الايوان الشرقـــى حيث محراب الصلاة وقبة الدفن ، وعندما تعبر الباب المنحنى الضيق ، فكأنـــك ولدت ولادة جديدة ، وأنا هنا أتمثل معمار مدرسة السلطان حسن باعتباره نموذجاً مثالياً لمساجد ومدارس القاهرة .

تعبر الى الصحن الداخلى ، أربعة إيوانات ضخمة ، لكل مذهب من المذاهب الأربعة إيوان خلفة حجرات الدراسه وأماكن إقامة الطلبة ، إن ارتفاع الايوانات الشاهقةً والتى تنتهى بأقواس حجرية ضخمةً محمولهً على الفراغ ، لتدعو الى التفكير فى عبقرية هذا المهندس الذى ظل مجهولاً سنوات طويلة حتى عثروا على اسمه منذ فترة قريبة ، محفوراً متوارياً فى ركن قصى من هذا البناء الهائل ، يذكر ستانلى لين بول فى كتابه (سيرة القاهرة) أن السلطان حسن بلغ من شغفه بهذا البناء الرائع ، أن أمر بقطع يد المهندس الذى قام بتشييده ، ظناً منه أن هذا سوف يحد من عبقريته ولا يتيح له فرصةً إعادة بناء مثل هذا المسجد الفريد ، ولكننى لم أعثر فى مصادر الفترة التاريخيه على تأكيد لهذة الواقعهً ، وأظن أن ستانلى لين بول متأثر بالرواية العربية القديمة عن سنمار الذى صار جزاؤه مثلاً !

على أية حال ، فإن ضخامة العمارة المصرية لا تؤدى الى شعور الانسان بالتضاؤل ، إن المرؤ لا يشعر بالانسحاق أمام المدخل الشاهق للسلطان حسن ، أو عند وقوفه تحت قبة قلاوون الهائلةً ، بالعكس ، انه يشعر بنوع من السمو ، إن العمارة تقف عند حد التجريد فى خطوطها العامه ، برغم الحشوات أو المقرنصات أو الزخارف المنتشرة هنا أو هناك ، تنتهى الجدران الشاهقةً بالعرائس الحجرية شبه المثلثة ، متساوية ، متجاورة فكأنها إشارة الى صفوف المصلين ، المتساوين أمام الخالق كأسنان المشط ، ولكن اذا دققنا النظر ، سنرى أن الفراغ الفاصل بين هذه العرائس الحجرية قد اتخذ نفس الهيئة التى حفر عليها الحجر ، فكأنه الاصل والصورة ، كأنه الصوت والصدى ، كأنه المادة الملموسةً والروح التى تستشعر وجودها ، لكننا لا نراها .

ان ضخامة المادة هنا مصاغه بطريقه لا تؤدى الى ترسيخها ، إنما تنفيها ، تمحو الشعور بها ، وكثيراً ما استعيد صيحة الصديق الشاعر الكبير أدونيس عندما دخل صحن مدرسة السلطان حسن وقال : " إنها قصائد الحجر .... "

موروث معمارى طويل يستند الى تقاليد عتيقة تضرب بجذورها حتى الزمن الفرعونى ، بل ان بعض الرموز القديمة نجدها صراحة ، مثل هذا القارب فرعونى الشكل الذى يعلو جوسق قبة الامام الشافعى ، والذى يشبة القوارب الفرعونية المرسومه على جدران المعابد ، وكذلك هذا القارب المحفوظ فى مسجد سيدى أبى الحجاج الأقصرى المقام فى قلب معبد رمسيس بالأقصر ، والذى يخرجه المريدون فى كل

عام ليطوفوا به عند الاحتفال بمولد سيدى أبـــو الحجاج ، إن الشكل الفرعونـــــى القديم أكسب العمارة الاسلامية فى مصر خصوصية بلا شك حيث تختلف عن العمارة الاسلامية فى الاندلس التـــــى تغطى بالزخارف والمنمنمات التـــــى تذيب المادة تماماً عـــن طريق التجزىء الى ما لا نهاية ، أو العمارة الاسلامية فى بلاد فارس التـــــى تقوم علـــى أساس عنصر الابهار بالزخارف الملونة وتغطية الأسطح بالخزف الملون ، ولكن هذا التراث الفرعونى لم يقتصر فقط على الشكل ، إنما امتد أيضاً الـى المضمون ، فهذه المساجد العظيمة التى تقوم فى القاهرة القديمة وتحفظ أركانها ، وتصون أفقها ، انما هى فـى حقيقة الامر عبارة عن مقابر عظيمة أيضاً ، وعندما نطالع تاريخ سلاطين المماليك العظام فسوف يلفت نظرنا أن السطور الاولى التى يوردها المؤرخ ويسجل فيها أول ما قام به السلطان من أعمال ، انه شرع فـــى بناء مسجد ، وهذا المسجد يضم مقبرة له ، وقد يسلك فى سبيل اتمام بناء المسجد أشـــد الطرق عسفاً ، مثلما فعل السلطان مؤيد شيخ الحموى الذى سخر العمال وانتزع أملاك الناس ليضمها الى مساحة مسجدة ، ثم قام بنقل بوابة مسجد السلطان حسن ليضعها على مسجده ، ولاتزال باقية حتى الآن ، أمـــا السلطان الغورى فقد اشتط فى الاستيلاء على أموال الناس ، وفك ألواح الرخام من البيوت ليضعها فـــى مسجده ، وقبته العظيمة التى بناها ليدفن فيها ولكنه قتل فى مرج دابق ولم يعثر له علـــى جثه ، تماماً كالسلطان حسن الذى لم يدفن فى مدرسته الهائلة العظيمة ، ويسجل بن إياس فى كتابه بدائع الزهور فـــــى وقائع الدهور تفاصيل ما قام به السلطان الغورى فى سلب أموال الناس لبناء مسجده ، حتـــى تندر المصريون فسموه " المسجد الحرام " .

كان ما يحرك هؤلاء السلاطين والحكام ذلـــك المضمون المصرى القديم المعنى بالخلود ، بالبقاء بعـــد الموت ، بعد الفناء ، وهذا المضون ينعكس فى علاقة المصريين بالموت ، لم يكن الأمر مقصوراً علـــى سلاطين المماليك فقط ، ولكن فـــى العصر الحديث أيضاً دفن سعد زغلول فـــــى مقبرة مهيبة كانت مخصصة لدفن الموميات الفرعونية ، وبعد وفاة الزعيم جمال عبد الناصر اتضح انه كان مساهماً فـــى جمعية تتولى الإشراف على بناء مسجد ضخم فى كوبرى القبة ، وفيه يرقد الآن ، أما أنور السادات فكان يخطط لبناء مقبرة ضخمة فى قرية ميت أبو الكوم ، وقيل فى شارع رمسيس أيضاً ، ولكن القدر لم يمهله ، غير أن علاقة الشعب بحكامه الذين سعوا الى الخلود بهذه العمائر الضخمة معقدة للغاية ، وربمـــا كان

مسجد الرفاعى هائل المعمار القائم فى مواجهة القلعه أبلغ مثال على ذلك ، لقد شيد هذا المسجد بواسطـة الأميرة خوشيار هانم والدة خديوى مصر ، وأنفقت عليه أموالاً جمة حتـى يجـىء محاكياً ومواجهاً لمدرسة السلطان حسن ، وفـى المسجد دفن الخديو إسماعيل ، والخديو توفيق ، والملك فاروق ، وعدداً آخر من ملوك أسرة محمد على ، كما دفن فيـه مؤخراً شاه ايران ، ومع ذلك فإنك لن تلقى فرداً واحداً من الشعب يمضى ليشعل شمعه فوق أضرحتهم ، أو يتصدق على أرواحهم ، أو يتوقف حتى ليقرأ الفاتحه ، أبداً .. إنما يقف الجميع عند قبر رجل فقير يقع فى مدخل المسجد وبعد اجتياز المدخل الشاهـق الارتفاع ، انه سيدى أحمد الرفاعى ، الذى نسب المسجد كله اليه ، وهـو ليس الرفاعـى المتصوف المشهور وشيخ الطريقة المعروفة ، فهذا الأخير ضريحه فى بغداد ، ولكنه مجرد رجـل درويش فقير ، كان بلا مأوى ، اتخذ له مكاناً بالقرب من المسجد الهائـل الذى بنته الأميرة خوشيار هانم ، وأعتقد فيه الناس ، وقصدوه للتبرك به ، وعندما مات دفن فى المسجد الكبير وربما وافق أصحابه بقصد البركة أيضاً ، ولكن شيئاً فشيئاً أصبح ضريح الرجل الفقير هو المركز وهو الذى يقف أمامه الناس لقراءة الفاتحـة ، وهو الذى يحتفلون بمولده ، ونسب المسجد كله إليه ، فكأن مسعى خوشيار هانـم ذهب أدراج الرياح ، وكأنها لم تبن المسجد إلا ليكون تابعاً لهذا الفقير المجهول ، وقـس علـى ذلك كل الأضرحه الفخمة والعمائر الضخمة التى بناها الحكام لأنفسهم فى القاهرة ، لن تجد الشعب يحتفل بمولد الأمير قوصـون ، أو الأمير شيخون العمرى ، أو سعيد السعداء ، ولا حتى الظاهر بيبرس الذى حولته المخيلة الشعبية الـى بطل ملحمى ، ولكنك ستجد الموالد تقام والاحتفالات تنصب ، والسعى يتم فى اتجاه نفر مـن الفقراء ، الصالحين ، الذين ارتبط الناس بهم ، وخلدوا ذكرهم ، ولكم كان التأثير ينال منى وأنا أعبر إحدى حوارى الجمالية فى ليل غميق ، عندما أرى شمعات صغار يعتز لهيب ذبالاتها الواهنه فوق ضريح بسيط يعلـوه غطاء أخضر .. إنه الضمير الجماعى ، الحى ، المتصل ، والذاكرة الشعبية التى تعرف وتميز ولا تنسى.

إذا نزلت القاهرة ، وتجاوزت بوابات مطارها ، فإن أول طريق تسلكه هو طريق صلاح سالم السريـع ، بعد العباسية آخر حدود العمار حتى منتصف هذا القرن (باستثناء ضاحية مصر الجديدة النائية التـى أنشئت فى بداية القرن عام ١٩٠٧) ، وحتى مصر القديمة ، فإن الطريق يمر فى قلب مدينة الموتـى ، ستبدو مآذن رشيقة ، وعمائر فخمه مشيدة على الطراز الاسلامى ، وشواهد رخامية متواضعه ، ولكـن

إذا دققت النظر سوف تلاحظ أن هذه القبور تقف الى جوار بعضها فى نظام صارم ، الشوارع مستقيمة ، النظافه متوافرة ، الهدوء طبعاً غير عادى ، دقة فى واجهات المبانى لا تتوافر فـــى المناطق العامرة بالاحياء ، بعض العمائر الحجرية الضخمة تحمـــل اســم منشئيها الذين حرصوا علـــى إضافة ألقابهم ...

لقرافة أو جبانات القاهرة تاريخ طويل ، وقد أفرد المقريزى فى كتابه الخطط قسماً كبيراً للحديث عن المدافن المحيطة بالقاهرة ،وهناك كتب خاصة عـــن القرافة وأماكن الزيارات منهـــا كتاب للمؤرخ السخاوى ، وقد طبع فى مصر ، ويذكر ترتيب المقابر ويترجم للموتى الذى يرقدون فيها .

مرحلتان

عندما أستعيد تاريخ القاهرة ، أو أرحل عبره ، فإننى أتوقف طويلاً عنـد مرحلتين زاهيتين ، مزدهرتين ، مشحونتين من عمر المدينة ، الأول يلى تأسيس المدينة مباشرة ، المرحلة الفاطمية ، والثانـــى ، المرحلة المملوكية ، ومن المرحلتين إمتدت عناصر قوية الى زمننا الحالى ، تشكل وتصيغ شخصية المدينة برغم جهود التحديث ، والعمارة الحديثة .

فى السنوات الاولى من عمر القاهرة ، كانت مدينة ملكية ، مقصورة على سكنى الخلفاء الفاطميين ورجال دولتهم وجندهم وعبيدهم ، كانت الدعوة الفاطمية ذات طابع سرى فى بدايتها ، وأثر هذا علـــى تصميم المدينة الجديدة أيضاً ، برغم أن الدعوة لم تعد سرية ، بل أصبح المذهب يحكـــم امبراطورية مترامية الاطراف ، ما بين القصرين ، الشرقى الكبير والغربى الصغير امتدت أنفاق صغيرة لكـــى يتحرك فيها الخلفاء بعيداً عن الانظار ، أما الاسوار المحيطة بالقصرين فكانت تحجب ما خلفها تماماً ، لنصغ الـــى وصف الرحالة والفيلسوف الفارسى ناصر خسرو :

« ويبدو هذا القصر من خارج المدينة كأنه جبل لكثرة ما فيه من الأبنية المرتفعه ، وهـــو لا يرى من داخل المدينة لارتفاع أسواره ، وهذا القصر يتكون من أثنى عشر بناء ، وله عشرة أبواب فوق الارض ، فضلاً عن أبواب أخرى تحتها ، وتحت الارض باب يخرج منه السلطان راكباً ، وهذا الباب على سرداب يؤدى الى قصر آخر خارج المدينة ، ولهذا السرداب الذى يصل بين القصرين سقف محكم ، وجدران القصـــر

من الحجر المنحوت بدقه ، تقول أنها قدت من صخر واحد .. "

كانت حراسة القصر يقوم بها ألف رجل مسلح ، وكانت تقترن بعروض مهيبة ، بعد الأذان لصلاة العشاء يقوم الامام بالصلاة ويتقدم أحد الامراء الى سلم القصر ، وعند انتهاء الصلاه يصدر أمره لفرقة من قارعى الطبول ونافخى الابواق أن يعزفوا ، كما تعزف آلات اخرى قطعا موسيقية جميلة لمدة ساعتين ، ثم يترك القصر ضابط معين خصيصا لهذا الامر فيلوح برمحه ويقذف بها أولا الى الارض عند المدخل ثم يلتقطها ويغلق الباب ويسير حول القصر سبع مرات ، وبعد أن يتم جولاته يقيم العسس الليلى ، وكان المرور يمنع حتى الفجر .

كانت مواكب الخلفاء الفاطميين ومرات ركوبهم فى رمضان ، والعيدين ، ويوم عاشوراء ، من المشاهد القاهرية المهيبة ، وقد حفظت لنا المصادر التاريخية أوصافاً دقيقة للمواكب ، وللموائد الخاصة والعامة ، وللاحتفالات الضخمة ، نجد هذا فى خطط المقريزى ، وفى موسوعة " صبح الأعشى فى صناعة الأنشا" للقلقشندى ، وفى " النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة " لابن تغرى بردى ، كذلك وصف لنا المؤرخون والرحالة فخامة القصرين ، والخزائن الملحقة بها ، ودار العلم .

ماذا تبقى فى عصرنا من القصرين العظيمين ؟

لم تبق إلا بعض ألواح خشبية محفورة ، عليها بعض مناظر العصر من حفلات موسيقى ، ورحلات صيد ، وصور حيوانات تواجه بعضها البعض ، هذة الالواح التى تمثل تحفاً نادرة الفن الاسلامى موجودة الآن فى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، بقى أيضاً بعض بقايا جدران لا تزال مطمورة تحت أرض مسجد المنصور قلاوون والذى شيد جزءاً من المكان الذى يشغله القصر الغربى الصغير ، هذا القصر الذى أقامت فيه ست الملك شقيقة الحاكم بأمر الله التى تآمرت ضده ، وخططت لقتله ، هكذا تروى مصادر التاريخ ، أما الروايات الأخرى فتقول أنه غاب الى حين ، وأنه سيرجع يوماً ليملأ الدنيا عدلاً كما ملئت ظلما و جوراً ، مسجد الحاكم بأمر الله باق فى القاهرة الفاطمية ، وعبر التاريخ تعرض لمحن عديدة ، تخرب ، واستخدم مكاناً لذبح الحيوانات ، وقد أدركته طفلاً عندما درست لمدة عام كامل فى مدرسة السلحدار الابتدائية التى كانت مقامه فوق جزء منه ، ولكم جلت ولعبت بين أعمدته وأصغيت الى الاساطير المتعلقة به ، ولكن بعد مرور السنين وإدراكى لتاريخه ، ولسيرة الحاكم بأمر الله أصبح للمكان

معنى آخر ، وأبعاداً لاحصر لها ، أمـــا المسجد نفسه فقد أعيد ترميمه خلال السنوات الاخيرة . وانفقت عليه طائفه البهرة أكثر من ستين مليون جنية ، وتجرى الآن أعمال الترميم فى مسجد الأقمر الذى وصلنـا أيضاً من الحقبة الفاطمية ، أما أعظم المنشأت الدينية التى وصلت الى عصرنا فهى جامعة الأزهـر ، أو المسجد الأزهر والذى لم ينقطع تدفق الحياة العلمية والاجتماعية والسياسية به منذ إنشائة وحتى يومنا هذا.

أما أهم ما تبقى منالعصر الفاطمى فى تقديرى ، فهى تلك الآثار الخفية التى تستعصى علـــــى الرصد المتعجل ، والتى تشكل ملامح الروح القاهرية ، ومنهـــا حب القاهريين للنزهة وللفرجة والاحتفالات ، وحب المرح ، والتعلق الشديد بالحياة حتى فـــى أبسط صورها ، وروح السخرية ، والحيوية ، وحب المصريين جميعاً وتقديسهم لآل البيت مع أن مذهبهم سنى ، ولا تزال مظاهـــر الاحتفال بالأعياد الدينية ذات ملامح فاطمية . فكثير من العادات الشعبية ما زال مستمراً ، قائماً ، ومنها طقوس الاحتفال برؤيـــة رمضان ، وكعك العيد ، والكنافة ، وحب الحياة المبهرة .

الزمن المملوكى

عندما بدأت أطالع مصادر وحوليات التاريخ المصرى فى الزمن المملوكى ، لم أشعر بغربة ، كانـــت أسماء الحارات والأزقة والشوارع التى يذكرها ابن اياس ، أو المقريزى ، أو ابـن تغرى بردى ، لا تزال موجوده حتى الآن ، لم تتغير تقريباً ، كذلك المبانى سواء الدينية أو المدنية ، وفـــى تقديرى أن القاهرة القديمة لا تزال تحتفظ بجانب كبير من ملامح الزمن المملوكى ، ليس فى الحجارة وتخطيط الشوارع فقط ، ولكن فى علاقات الناس ببعضهم ، وحرفهم التى يقتاتون منها ، وكثيراً ما أجول فى الحوارى الضيقـة القديمة ، تغمرنى الظلال ، وذلك الحضور التاريخى القوى ، حتى ليخيل الى أن فارساً مملوكـياً سوف يظهر عند هذة الناصية أو تلك ، وفى رأيى أن شخصية المدينة بلغت ذروتها فى العصر المملوكى .

والملامح المرئية أو الغير مرئية التى تحدد ملامح المدينة اليوم كلها وصلت الينا من العصر المملوكـى ، وهنا لابد من التمييز بين عصريين منفصلين تماماً ، الأول يبدأ بتأسيس السلطنة المملوكيـة (١٢٥٠ م) وينتهى فى القرن السادس ، تحديداً فى ١٥١٧ ميلادية ، عندما هزمت جيوش السلطان الغورى فى مرج دابق شمال حلب . وتقدمت جيوش ابن عثمان صوب مصر لتنهى عصر الامبراطورية ، عصـر البنائين

العظام من سلاطين المماليك ، لتجهز على حضاره كاملة ، عندما يقدم سليم الاول على تصرف لم أسمع أو أقرأ بمثله ، اذ نقل عمال وصناع ثلاثة وخمسين فنا ثقافة متكامله الى عاصمة ملكه في استانبول ، ومن هؤلاء الفنانين العرب المصريين بدأت نهضة كل الفنون التركيه ، أذكر أنني كنت أزور مسجداً صغيراً حزيناً في مدينة بيتش المجرية ، اسمه مسجد حسن يأكوفيل ولفت نظرى جمال الخط الذى كتبت به الآيات القرآنيه ، وبخط صغير منمق قرأت توقيع الخطاط ـ محمد بن اسماعيل المصرى ـ وأنبأني حدسى أنه أحد ابناء اولئك الذين انتزعوا قسراً من ديارهم بعد الغزو العثمانى الذى مازلنا نعانى من أثاره المظلمة الى اليوم ونحن نقترب من القرن الحادى والعشرين

هكذا .. أسدل الستار على الزمن المملوكى الاول الذى ازدهرت فيه الحضارة بتجلياتها المختلفة في الثقافة والفنون ، وتحولت القاهرة من عاصمه امبراطورية تحمي البحرين وتزود عن الحرمين ، الى مجرد عاصمة ولاية تابعة للدولة العثمانية ، وبدأ العصر العثمانى ، والذى تدهورت فيه المدينة وسادتها الفوضى وعاد المماليك الى الظهور ولكن كشراذم وعصابات يثيرون الذعر والفوضى ، هكذا نقص عدد سكان مصر كلها من ثمانية أو تسعة ملايين فى القرن السادس عشر ، خلال أقل من قرنين ، الى مليونين ونصف فقط ، كان نصيب القاهرة منهم عند مجيء الحملة الفرنسية حوالى ربع مليون نسمة ، طوال قرنين من الزمان لم تعرف المدينة الاستقرار ، لم تكن هناك قيمة لحياة الانسان ، يمكن أن يقتله عسكر الانكشارية فى أى لحظة ، أو جند المماليك ، يمكن إختطاف أى أمرأة واغتصابها علناً .. حتى في المساجد ، أما الفتن بين طوائف العسكر والصناجق فكان يمكن أن تندلع فى أى لحظة ، وتزهق الأرواح « ويروح كل انسان على أمره ، ولا يتقصى أحد خبره ، ولاتنتطح فى ذلك شاتان »!

إذن .. تدهورت القاهرة فى الزمن العثماني ، اختفت مظاهر العمران العظيم الذى قام به سلاطين المماليك وأمراؤهم ، كما قلت حركة السكان الترفيهية ، قل خروجهم الى المتنزهات ونصبهم الخيام بجوار النيل ، وخروجهم فى القصف عن الحد كما كان يقول ابن اياس ، وذلك بسبب انعدام الأمن ، أما أطراف المدينة التي كان المصريون يفضلون سكناها وتعميرها لجودة هوائها . فتخلوا عنها بسبب تطرفها وإنعدام عنصر الأمن ، وتدهورت أيضاً منشآت القاهرة المعمارية العظيمة بسبب قلة الصيانة ، ثم جاءت الحملة الفرنسية لتلحق بالقاهرة دماراً لا مثيل له ، كان بمثابة المعول الأول الذى أسهم في

تغيير شخصية المدينة ، إذ نزعت أبواب الحارات و هدمت مبان أثرية و أزيلت حارات بأكملها ، بـــل ان أحياء بأكملها تهدمت تماماً ، مثل حى الحسينيه والخروب بمصر القديمه وبركة جناق وبركـــة الفيل ، وأقاموا حول سور القاهرة القديم الاسلاك الشائكة ، وسدوا باب الفتوح الجميل ، وكذلك باب البرقية ، ولا تزال أسماء جنود الحملة محفورة على سور القاهرة القديم ، شاهداً على إقامتهم وتشويههم للأثر وعبثــهم به .

يقول الدكتور جمال حمدان فى مؤلفه الضخم ـ شخصية مصر ـ ان سكان المجتمع القاهرى فــى العصر الايوبى بلغ حوالى مليون نسمه ، وهو عدد لايستهان به إذا قيس بسكان العصور الوسطى ، ولما كانــت القاهرة أكبر مدن العالم وقتئذ ، فإن من المؤكد انها كانت أكثر من مليون نسمه فـــى عصر سلاطين المماليك ، وكما ذكرت فإن عدد سكانها تقلص فى العصر العثمانى حتى بلغ فى زمن الحمله ٢٥٠ ألفاً ، ولنا أن نتصور أى دمار لحق بالقاهرة ، البشر والمكان والمعمار .. هكذا تدخل المدينة الى القرن التاسع عشر .

التحديث

.. فى القاهرة منطقه أسميها مثلث الوهم أو مثلث الضياع ، انها منطقه تقع علـــى حافة القاهرة العتيقة المحتوية للأزمنة الفاطمية والمملوكية وحتى العثمانية ، وتمتد تحت مشارف القاهرة الحديثة والتـــى تبدأ من وسط المدينة التجارى ، هذا المثلث يمتد من ميدان رمسيس وينتهى ضلعه فــى ميدان العتبه الخضراء ، مروراً بشارع كلوت بك ، ثم تمتد قاعدته حتـــى ميدان الأوبرا وشارع عماد الدين ، ويصعد الضلع الآخر على امتداد هذا الشارع حتى ميدان رمسيس .

مبانى هذه المنطقه تنتمى الى القرن الماضى ، بداية أوربة المدينة ، فـــى خطوط العمارة مزيج متجانس من خطوط العمارة العثمانيه المتأخرة ، وخطوط العمارة الباريسيه ، ويبدو هذا واضحاً فى مبنى صندوق الدين ومبنى فندق البرلمان ومبنى مقر المطافىء المركزى ، أما عمارات الخديوى فى شارع عماد الدين فتستوحـــى العمارة الباريسية الصريحة ، تقف هذة المنطقة بين زمنين القديم والحديث ، وفـــى القرن الماضى كانت تعتبر إمتداد القاهرة الأوروبى ، أو أساس المدينة الحديثة ، ولكنــها الآن تائهة ، خاصة أن

الاهمال لحق شوارعها التى شقت يوماً باعتبارها محاكاة لشوارع باريس الاوروبية ، هكذا أشرف على باشا مبارك على تخطيط شارع محمد على ، واختار لجانبيه البواكى الحجرية بدلاً من الاشجار تقليداً لشارع ريفولى فى باريس ، وكذلك شارع كلوت بك ، وخلال انشاء هذة الشوارع الجديدة المستقيمة التى شقت أوصال المدينة العتيقة أزيلت عشرات المبانى الأثرية بلا رحمة ، وأختفت من الوجود . وهكذا وضعت بذرة التحديث الذى سوف يتخذ أشكالاً متعددة حتى يصل الى هذة المبانى الشاهقة ، المصمتة ذات النوافذ الزجاجية وأطر الألمونيوم ، والتى قامت فى فراغ القاهرة بدءاً من زمن الانفتاح الاقتصادى فى السبعينيات ، عمارة منتزعة من عواصم أوروبية باردة ، لا تناسب البيئة ، ولا المناخ ، فيها تقليداً أعمى للغرب ، وأنانية الطبقه الجديده من أثريا الانفتاح ، فمعظم هذه الابراج الشاهقة قام على جانبى النهر ، لتشكل حاجزاً من الأبنية المرتفعة يقلص علاقة المدينة بنهرها العريق الذى حدد موقعها وملامحها أيضاً على مر التاريخ . أما القاهرة القديمة فلا تزال تقاوم زحف هذا التحديث السرطانى ، الذى يدمر فى طريقة كل معالم الذاكرة ، بما فيها الحياة الاجتماعية للمدينة ، حيث تنتشر بوتيكات البضاعة المستوردة فى أزقة القاهرة الفاطمية التى كانت تزهو بدكاكين الصناعات الحرفية والتقليدية . ويتقدم مشروب السفن أب ليزيل المشاريب القاهرية الجميلة القديمة مثل الخروب والتمر هندى والسوبيا والعرقسوس والكركدية ، لقد أصبحت هذة المشاريب الجميلة من ذكريات الماضى البعيد ، وكثير من مظاهر الحياة القاهرية الأصيلة .

إن الحديث عن تفاصيل تطور القاهرة خلال القرن ونصف القرن الأخير مما يستغرق مجلدات بأكملها ، ويكفى أن عدد السكان ارتفع وتزايد من ربع مليون الى خمسة عشر مليونا الآن ، ومن المنتظر أن يصل الى عشرين مليوناً ، واذا كان الطابع الحديث هو الغالب على المدينة الآن ، فيمكن القول بأن نواة القاهرة الأصلية مازالت سليمة فى جوهرها ، وهناك اهتمام متزايد خلال السنوات الأخيرة بالحفاظ على الطابع العتيق ، أما الحياة الداخلية للقاهرة كلها فلا تزال تحتفظ بحيويتها و أصالتها ، والقاهرة الكبرى تضم مناطق شاسعة ونائية كانت تعتبر من البلدان المجاورة للقاهرة يوماً ما وهذه القاهرة الكبرى ستضم أو هى بالفعل تضم الآن عدة عصور متداخلة ، العصر الحجرى فى منطقة المعادى ومقابر وادى حوف بحلوان ، والعصر الفرعونى القديم فى سقارة ،

وميت رهينة والجيزة ، وقاهرة العصر القبطى فـــى منطقة مار جرجس ، والقاهرة العربية بعواصمها الاربع وامتداداتها الشاسعةً ، انها الحالةً الوحيدة فى مدن العالم كله التى تتجاور فيها هذة الازمنةً المتباينةً ، وتلك المراحل من التاريخ ، لذا يحق أن نسميها مدينة لكل العصور ، لكل الأزمنةً أو مدينة المدن .

أحياناً أسأل نفســى ، ماذا يكون رد فعل الشيخ ابن اياس أو المقريزى أو الجبرتى ، أو أى قاهرى عاش فى المدينة خلال القرون الوسطى ، ماذا يكون رد فعله لو أنه نزل زمننا اليوم ، ورأى المدينة فى بداية القرن الحادى والعشرين ، كيف ستكون انطباعاته ؛ لنا أن نتخيل الهول الذى سينزل بـــه ، إذا قرأنا ما كتبه الشيخ عبدالرحمن الجبرتى بعد أن خرج من داره اليوم الخامس مــــن ديسمبر ١٧٩٨ ، ليتفرج على ما يفعله الفرنسيون ، الذين شرعوا فـــى شق الطرق ورصفها ، ولنصغ اليه : " فعلوا هذا الشغل الكبير والفعل العظيم فى أقرب زمن ، كانوا يصرفون الرجال من بعد الظهيرة ، ويستعينون فـــى الاشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ السهلة التناول المساعدةً فــــى العمل وقلة الكلفةً ، كانوا يجعلون بدل الغلقان والقصاع عربات صغيرة ويديها ممتدتين من خلف ، يملأها الفاعل تراباً أو طيناً أو حجارة من مقدمها بسهولةً ، بحيث تسع مقدار خمسة غلقان ، ثـــم يقبض بيديه على خشبتيها المذكورتين ويدفعها أمامه ، فتجرى على عجلتها بأدنى مساعدة الى محل العمل فيميلها بإحدى يديه ، ويفرغ مـــا فيها من غير تعب ولا مشقه ، وكذلك لهم فؤوس وقزم محكمة الصنعة ، متقنة الوضع ، وغالب الصناع مـــن جنسهم ولا يقطعون الأحجار والأخشاب إلا بالطرق الهندسية على الزوايا القائمة والخطوط المستقيمة .."

هذة العربة الصغيرة التى تدفع باليد أحدثت هذة الدهشه كلها عند جدنا المؤرخ القاهرى العظيم الجبرتـى ، مذا سيكون رد فعله لو رأى زحام القاهرة ، ومئات الألوف من السيارات ، والكبارى العلويـــة ، ومترو الانفاق ، والسفن النهرية ، ولكن لنحاول أن ندفع بالمخيلة فى اتجاه آخر . ماذا سيكون عليه وضعنا نحـن إذا بعثنا أحياء بعد قرن من الزمان ؟

هل سنتعرف على مدينتنا ؟

أى المبانى التى نعرفها ستظل قائمة ؟ هلا سندرك ملامح الأحياء والمناطق ؟ لا أدرى ، ولكـن إذا استمر معدل النمو بنفس الوتيرة التى كان عليها خلال القرن الأخير .. وحينها سيكون أسرع ـ فإننا سوف نضل ونتشى بحثاً عن مهرب سريع الى زمن نعرفه يكون متوارياً فى احشاء المدينة الحبيبة .

وخلال اهتمامى ومعايشتى للقاهرة تعرفت على جهود عاشق كبير وعالم بتاريخها ودقائقها ، وهـــــو الصديق عرفه عبده على ، وكتاباته عن القاهرة تمثل إضافة حقيقية للدراسات التــــى تدور حول مدينتنا العريقة ، ولكم يسعدنى أن تكون سطورى السابقة مهداة إلــــى كتابه الجديد الذى نبدأ رحلتنا معه ومـــع مدينتنا الخالدة فى الصفحات التالية .

جمال الغيطانى

تقديم :

****

عبقرية المكان ... وعطاء التاريخ .. شكلا موضع الجلال وموطن الجمال للقاهرة ، التى ظلت منذ نشأتها مصدراً للاشعاع الحضارى والتجدد الثقافى ، فتبوأت مكانتها كأهم مراكز الحياة السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية فى العالم الاسلامى ..

وقد تفردت القاهرة – بين مدن العالم – بما تزخر به من تراث حضارى انسانى ، شكل طوقاً بديعاً على صدرها ، بتنوع ووفرة آثارها وقيمتها التاريخية ، تمثل العصور المتعاقبة والمتصلة للتاريخ الاسلامى إلى تأسيس مصر الحديثة فى عصر محمد على باشا ، ثم عصر إسماعيل العظيم .

وقاهرة الشرق .. لا حد لروعتها ، وماإستطاع الزمان أن يطمس طابعها وجلالها ، وكم بهرت – رحالة وأدباء وفنانين وشعراء ومؤرخين – بما حبتها الطبيعة ، وما أضفاه عليها التاريخ من عراقة ، وما إرتفع على أرضها من آيات الفن ...مدينة يسكنها التاريخ ، شوارعها حكايات وبيوتهاوسراياتها ومساجدها مشربيات على تاريخ حافل ..مثير .

وللقاهرة فى نفوس المصريين خاصة ، والعرب عامة ، إيقاع شجى ونغم يحمل فى طياته شتى أنواع الألم والحسرة على ماض جميل يكاد يندثر .. وكم شغفت بالتجوال بين شوارعها وحواريها وأسواقها وميادينها ، وأطوف بين معالمها ، وبعض الزمان يتعلق بأحجار المبانى ، وكل حجر يحمل بصمات فنان .. أسوار ، أبراج ، بوابات ، مساجد : مآذن تطاول السماء فى إيحاء عميق .. وأخرى تتراءى كأطياف من بعيد .. وأسبلة ، وحمامات ، ووكالات ، وحدائق ، ومتاحف ، وبيوت وقصور .. ديكورات لمشاهد صنعت التاريخ .. أمثلة رائعة للجمال تحكى فى صمت قصة آلاف الفنانين بناة الحضارة ..

وأسرح الطرف عجباً ، أتحسس بنظرات رفيقة : جدران عتيقة تراكم عليها الزمان ، لعلها تجلو لى سراً من أسرار القاهرة ، لايزال ماء الذهب يسطع ببهجة أيامه الغابرة ، وحيث سجل حياة – مدينتنا – مرصع بأسماء كثير من العظماء الذين تركوا أثراً عند كل موقع !.. ويأخذنى إنطباع سحرى يوحى بما كان عليه الحال فى سالف الزمان ! .

ومابين صخب الزحام ، وروائح التوابل والعطور ، وتناغم الألوان والظلال .. تمضى المشاهد وكأنها الرؤى .. ويتشعب الحديث عبر مسالك – الزمان والمكان – ويبقى تراث القاهرة حياً فى الثقافة والتقاليد الموروثة .. وفى شواهد المجد والعز القديم !.

وما أروع ماقاله الاديب الفرنسى " اندريه مالرو " :

" مصر هى التى اخترعت الخلود .. وانظروا الى العمارة " !

عرفه عبده على

★ نشرت هذه المقالات [illegible] فى «أخبار الأدب» تحت عنوان «[illegible]»
فى الفترة من أغسطس ١٩٩٣ إلى [illegible] ١٩٩٦

القاهرة
التاريخية

على أبواب القاهرة :

أمنيه ومشنقة..!

كان تشييد مدينة «تقهر الدنيا».. من بين الاهداف المهمة التى حددها واعلنها الخليفة الفاطمى «المعز لدين الله» عند استعراضه لجيش جوهر الصقلى قبيل رحيله لفتح مصر..

وفى ليلة السابع عشر من شعبان ٣٥٨ هـ/٦ يوليو ٩٦٩م، وعقب استيلاء الجيش الفاطمى على مدينة الفسطاط وقع اختيار القائد جوهر على سهل رملى الى الشمال من الفسطاط يحده جبل المقطم شرقا، وخليج امير المؤمنين غربا. ليختط رابعة مدن مصر الاسلامية، وكان لهذا الموقع ميزة ابتعاده عن تحركات النيل وفيضاناته.. ولم يكن فى هذا السهل سوى بقايا بستان كافور الاخشيد، وحصن صغير يسمى : قصر الشوك، ودير العظام (الذى يشغل موقعه الآن الجامع الاقمر).

وعند تاسيس جوهر للمدينة، كان قد قرر ان تكون مدينة ملكية حصينة للخليفة واتباعه، واختط القصر الفاطمى لاستقبال مولاه الخليفة المعز.. وشيد سورا خارجيا من اللبن على هيئة مربع طول ضلعه ١٠٨٠ مترا فكانت مساحة القاهرة فى بدء تاسيسها ١,١٦٦٤٠٠ متر مربع وقد ادرك المؤرخ العلامة «المقريزى» جزءا من هذا السور فيما بين باب البرقية ودرب بطوط خلف السور الحالى الذى شيده الناصر صلاح الدين، وأشار الى ان هذا السور كان من الضخامة والسُمك بحيث يستطيع ان يمر فوقه فارسان جنبا الى جنب.

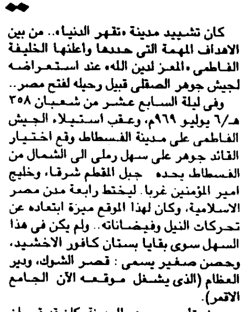
ويشير المؤرخون الى ان الاعمال الإنشائية لتاسيس المدينة قد تمت فى ليلة وصول الجيش الفاطمى، وان جوهرا قد لاحظ فى صباح اليوم التالى عدم اعتدال جدران السور والقصر وابدى ملاحظته غير انه تركها على حالها، واستمر فى تشييد البنيان حتى أكمله، وقد ضم هذا السور جميع منشآت القاهرة التى بدت كأنها حصن عظيم يدور حوله سور سميك، وقد اختلف المؤرخون حول الغرض الذى شيد من أجله، فيشير المقريزى الى ان القائد جوهر «قصد باختطاط القاهرة ان تصير حصنا فيما بين القرامطة ومصر ليقاتلهم من دونها، فأدار السور اللبن على مناخه الذى نزل فيه عساكره وانشأ داخل هذا السور جامعا وقصرا واعتبرها معقلا يتحصن به وتنزله عساكره.... على حين يرى البعض فى تشييد هذا السور هدفا ارستقراطيا. يختلف عن هدف التحصين، كما يفهم من اشارة «ابن دقماق» فى كتابه الانتصار حيث يقول ان جوهرا «قد بنى لسيده القاهرة والقصور ليكون هو واصحابه وأحفاده بمعزل عن العام»... ومن المرجح ان جوهرا قد قصد الغرضين معا!

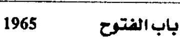
ويكاد يجمع الباحثون على صحة القصة الشهيرة المتواترة بشأن اعتماد جوهر على المنجمين وأوامره إليهم باختيار طالع سعيد للبدء فى بناء أساس سور القاهرة... هذه القصة التى اراد بها المؤرخون القدامى تفسير تسمية القاهرة.. بينما يذهب البعض الى انها قد عرفت فى البداية باسم «المنصورية» تيمنا باسم مدينة المنصورية التى شيدها المنصور بالله ثالث الخلفاء الفاطميين ووالد الخليفة المعز خارج القيروان، ولم تعرف بالقاهرة الا بعد ان حضر الخليفة المعز لدين الله الى المدينة وبعد ان اجتاز النيل عن طريق جسر الروضة فى رمضان ٣٦٢هـ/ ١٠ يونيو ٩٧٣م ورأى من قراءاته الخاصة للطالع ان فى اسم القاهرة والمشتق من القهر والظفر «فأل حسن» فاطلق عليها اسم القاهرة.

شيدت المدينة الجديدة لتكون العاصمة السياسية للامبراطورية الفاطمية. ومقرا للنخبة كما كان الشأن بالنسبة لمدينتى القيروان والمهدية بشمال افريقيا، وقد تشدد القائد جوهر فى الحظر على اجتياز سور القاهرة الا من كان من جند الحامية الفاطمية او من كبار رجال الدولة، فلم يكن مسموحا لعامة الناس بدخول المدينة الا بعد الحصول على اذن او تصريح خاص.. كما لم يكن مسموحا للسفراء الاجانب بدخولها راكبين خيولهم، إذ كان عليهم ان يترجلوا سيرا على الاقدام فى حراسة القوات الفاطمية!

وكان دخول القاهرة عن طريق الأبواب الثمانية التى شيدها جوهر فى السور وهى على النحو التالى:

- الضلع الشمالى: باب الفتوح، باب النصر
- الضلع الجنوبى: باب زويله، باب الفرج
- الضلع الشرقى: باب البرقية (التوفيق)،





باب الفتوح 1965 1800

عرفة عبده على

باب القراطين. الضلع الغربى: باب القنطرة، باب سعادة ولم يعمر سور القاهرة الذى شيده جوهر اكثر من ثمانين عاما، حيث تهدم فى عصر الخليفة المستنصر بالله فاستبدل به «بدر الجمالى» وزير الخليفة المتنصر بالله سورا اخر شيده ثلاثة اخوة من ارض الرها بالعراق... وبدا الشكل المربع للمدينة يتحول الى الشكل المستطيل بعد ان وسع رقعة القاهرة ١٥٠ مترا إلى شمال السور القديم و٣٠ مترا الى الشرق ومثلها الى الجنوب، وقد تم تشييد هذا السور فيما بين سنتى ٤٨٠ - ٤٨٥ هـ/١٠٨٧ - ١٠٩٢م موازيا للاسوار والابواب القديمة، من الحجر المنحوت المصقول المثبت فى مداميك منتظمة، ليكون أوفى باغراض الدفاع عن القاهرة، وقد بقى من هذا السور ثلاثة ابواب هى: باب النصر (ويعرف ايضا بباب العز) وباب الفتوح (ويعرف ايضا بباب الاقبال) وباب زويله: الذى تدل عمارته على عظمة فن البناء فى عصر الدولة الفاطمية، حتى قال عنه الشاعر «محمد بن على النيلى»:

يا صاح لو ابصرت باب زويله
لو ان فرعوه رآه لم يرد صرحا
لعلمت قدر محله بنيانا
ولا اوصى به هامانا!

باب النصر

ذو الطراز المعمارى المتميز.. وعنه يقول المقريزى: «كان باب النصر اولا دون موضعه اليوم، وادركت قطعة من احد جانبيه كانت تجاه ركن المدرسة القاصدية الغربى بحيث تكون الرحبة التى فيما بين المدرسة القاصدية وبين بابى جامع الحاكم القبليين خارج القاهرة، فلما كان فى أيام المستنصر وقدم عليه امير الجيوش بدر الجمال من عكا وتقلد وزارته وعمر سور القاهرة، نقل باب النصر من حيث وضعه القائد جوهر الى حيث هو الآن فصار قريبا من مصلى العيد وجعل له باشورة ادركت بعضها، الى ان احتفرت اخت الملك الظاهر برقوق الصهريج السبيل تجاه باب القصر فهدمته واقامت السبيل مكانه، وعلى باب النصر مكتوب بالكوفى فى اعلاه: «لا إله الا الله محمد رسول الله على ولى الله صلوات الله عليهما»..

هذا النص منقوش على لوحة حجرية داخل اطار زخرفى مستطيل يزدان بها العقد النصف دائرى الذى يعلو المدخل...

ويشير العالم الاثرى «محمود احمد» إلى ان باب المدخل حديث العهد، وربما يعود الى زمن الحملة الفرنسية اما الباب الاصلى فهو الركن الجنوبى الشرقى وهو مسدود بالبناء!.... كما اشار الى ان الفرنسيين قد شيدوا بعض الابنية بأعلى الباب، كما دونوا اسماء كبار القواد على تلك الابواب. وخلف الضلفة اليمنى لباب النصر يوجد ضريح ولى الله سيدى «حسن الذوق» الذى اشتهر بالرقة والطيبة ومكارم الاخلاق والذوق الرفيع فى معاملة الناس.. وحكايته الشهيرة كانت السند الاساسى للمثل الشعبى «الذوق ماخرجش من مصر»!

باب الفتوح

شيد باب الفتوح سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧ م وكان موضعه عندما اسسه جوهر الصقلى قريبا من اول حارة «بيت السيارج».. وعندما جدد بدر الجمالى سور القاهرة شيده فى موضعه الحالى.

ويتكون باب الفتوح من برجين مستديرين يتوسطهما المدخل، ومن فوق هذين البرجين نستطيع ان نشاهد بانوراما رائعة للقاهرة الاسلامية حيث مئات من القباب والمآذن التى تتسامى فى جلال الى السماء، ومشربيات تذكرنا بالزمان الجميل!

وفى جانبى البرجين طاقتان كبيرتان تدور حول فتحتيهما حلية تزدان باسطوانات صغيرة، وقد انتشر هذا النوع من الزخارف فيما بعد فى تحلية دوائر العقود. وفى اعلى المدخل كوابيل على هيئة كبش بقرنين، وهو نموذج من الكوابيل لا مثيل له فى العمارة الاسلامية بمصر، ويتصل باب الفتوح بباب النصر بطريقين: احدهما من فوق السور والآخر من تحت السور، عبارة عن ممر معقود على جانبه فتحات المزاغل والغرف المعقودة، وقد بلغ باب الفتوح حدا رائعا من الاتقان حتى اعتبر نموذجا لنظام الحصون المصرية فى العصر الفاطمى.

وفى سقف المدخل، مجموعة من الفتحات كانت تصب منها الزيوت المغلية او السوائل الكاوية على رؤوس الاعداء لمنعهم من اقتحام السور، والباب الخشبى للمدخل يتكون من ضلفتين ضخمتين مصنوعتين من الخشب السميك المقوى بشنابر حديدية مثبتت بمسامير كبيرة فى صفوف متوازية وكانت هناك عادة شعبية متوارثة نبعت من اعتقاد العامة بان من كان له امنية يقوم بلف دوباره او شريط قماش حول راس احد مسامير الباب الخشبى، داعيا الله ان يستجيب لدعائه ويحقق أمنيته!

باب زويله

والذى اشتهر عند عامة الناس باسم «بوابة المتولى» حيث كان يجلس متولى الحسبة ليقوم بتحصيل الرسوم من الداخلين الى القاهرة وعنه يقول المقريزى: «كان باب زويلة عندما وضع القائد جوهر القاهرة: بابين متلاصقين بجوار المسجد المعروف اليوم بسام بن نوح، فلما قدم المعز الى القاهرة دخل من احدهما وهو الملاصق للمسجد الذى بقى منه اليوم عقد ويعرف بباب القوس، فتيامن الناس به وصاروا يكثرون الدخول والخروج منه وهجروا الباب المجاور له، حتى جرى على الالسنة ان من مر به لا تقضى له حاجة!... وقد زال هذا الباب ولم يبق له اثر اليوم، الا انه يفضى الى الموضع الذى يعرف اليوم بالحجارين حيث تباع الات الطرب من الطنابير والعيدان ونحوها».. فلما كانت سنة خمس وثمانين واربعمائة بني امير الجيوش بدر الجمالى باب زويله الكبير الذى هو باق الى الآن وعلى ابراجه، ولم يعمل له باشورة كما هى عادة ابواب الحصون من ان يكون فى كل باب عطف حتى لا تهجم عليه العساكر فى وقت الحصار ويتعذر سوق الخيل ودخولها جملة، لكنه عمل فى بابه زلاقة كبيرة من حجارة صوان عظيمة بحيث اذا هجم عسكر على القاهرة لا تثبت قوائم الخيل على الصوان..

ويعد باب زويله من اجمل أبواب القاهرة، وتعتبر مئذنت جامع المؤيد الملاصق له (شيده المؤيد عام ١٤١٢م) واللتين تعلوان البرجين شبه المستديرين من اجمل مآذن القاهرة المملوكية، ومنحتا البرجين جمالا معماريا لا تخطئه العين!... ولهذا الباب شهرة بغيضة فى تاريخ القاهرة، حيث كانت تجرى عنده عمليات الاعدام سواء بالشنق او بقطع الرؤوس والتى كانت تعلق والجثث المشنوقة على باب زويله عبرة لمن يعتبر!... ومن اشهر عمليات الاعدام التى تمت عنده: شنق السلطان «طومانباى» اخر سلاطين دولة المماليك الجراكسة والذى قاد ملحمة المقاومة الشعبية ضد جيش العثمانى عام ١٥١٧.

لمزيد من التفاصيل راجع :
١- المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، الجزء الأول ، بولاق ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣
٢- حسن عبد الوهاب : تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها ، دار النشر للجامعات المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٧
٣- عبد الرحمن زكى : القاهرة من العز إلى العصر الحديث ، دار المستقبل ، القاهرة ، ١٩٤٢
4- Kay, H.C. : Al Kahira and its Gates, JRAS XIV, 1882, PP. 229-245

القاهرة الفاطمية..

في عيون الرحالة الأجانب

نفثت القاهرة الفاطمية سحرها إلى كثير من الرحالة والمؤرخين المسلمين والأوروبيين، فأفاضوا في وصف عظمتها وبدائعها، وعمدوا إلى استقصاء خططها وآثارها وتفاصيل الحياة في قصورها الزاهرة وحياة مجتمعها..

ناصر خسرو

في العصر الذي كانت فيه القاهرة الفاطمية مصدر إشعاع سياسي وديني للعالم الإسلامي كله.. زارها الرحالة الفارسي «ناصر خسرو» في عهد الخليفة «المستنصر بالله» نحو عام ١٠٥٠م كما يذكر المستشرق الفرنسي الشهير «أندريه ريمون».. وكان ناصر خسرو مفكراً وشاعراً، درس اللغة والآداب العربية واليونانية وعلوم الدين والفلسفة، وصنف الكثير من المؤلفات، منها: «وجه دين»؛ «زاد المسافرين»؛ «خوان الإخوان»؛ «الرسالة»؛ «الديوان»؛ «سعادت نامه» ديوان أشعاره، وأشهرها رحلته «سفر نامه»..

وفي كتابه: «الديوان» حدثنا ناصر خسرو عن إشارات تفاءل بها أيدت عزمه على المضي إلى مقر إقامة الخليفة الفاطمي ليبايعه وليدعو إلى مذهبه، فسافر قاصداً القاهرة وقابل الخليفة المستنصر الذي لقبه ناصر بـ«الإمام».. وأشار إلى أن الإمام قد عينه «داعياً» مرتبة من مراتب الدعوة الفاطمية، ثم حدثنا عن لقائه مع الإمام وتعهد ناصر بألا يخبر عن هذه المقابلة وما جرى فيها، وقال له المستنصر بأنه سيجد بكل ما يشبع رغبته في المعرفة مؤيداً بالدليل، غير أنه اشترط عليه ألا يبوح بالسر لأي مخلوق.. «وفي حضرة شاهدين أمره بالدواء الذي يذهب الجهل، ووضع على شفتيه الخاتم حتى يحفظ السر المقدس»!

وتحدث ناصر خسرو عن ارتقائه في مراتب الدعوة حتى نال أرفع مرتبة «الحجة» أي أصبح واحداً من اثنى عشر حجة يعينهم الإمام لتولي رئاسة الدعوة الفاطمية في العالم الإسلامي. وقد أمضى ناصر في مصر ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، وكان يسجل مشاهداته يوماً بيوم، ووصف القاهرة في أبهى صورة لمدينة إسلامية، كما سجل انطباعاته عن سيرة

الخليفة وأخلاق أهل القاهرة وأمانهم وثرائهم، ومبانيها الزاهية العالية، وشوارعها وأحيائها النظيفة الآمنة .. فهل كان ناصر خسرو المتأثر بالمذهب الفاطمي - بل أحد كبار دعاته - فأراد أن يضفي على عاصمة الفاطميين هذه الأوصاف التي تجعلها بحق عاصمة الشرق الإسلامي ؟!

ومن خلال سطور « سفرنامه » نرحل بخيالنا مع دليلنا ناصر خسرو إلى « مدينة الخليفة » كما وصفها هو نفسه .. فيقول :

« .. وقدرت أن في القاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف حانوت كلها ملك للخليفة (يرى م. ريمون أن هذا الرقم مبالغ فيه) وكثير منها يؤجر بعشرة دنانير مغربية في الشهر، والأربطة والحمامات والأبنية الأخرى كثيرة لا يحدها الحصر وكلها ملك للخليفة، إذ ليس لأحد أن يملك عقاراً سوى المنازل وما يكون قد بناه الفرد لنفسه، وسمعت أن للخليفة ثمانية آلاف بيت في القاهرة ومصر وأنه يؤجرها ويحصل أجرتها كل شهر، ويؤجر للناس برغبتهم فلا يجبرون على شيء .. »

وقد برع ناصر في وصفه للأماكن والإحتفالات، كما كان دقيق الملاحظة شديد العناية بتقصي الأخبار وروايتها مما أثرى رحلته .. ونمضي معه :

« وللقاهرة خمسة أبواب : باب النصر، وباب الفتوح، وباب القنطرة، وباب زويله، وباب الخليج، وليس للمدينة قلعة، ولكن أبنيتها أقوى وأكثر ارتفاعاً من القلعة، وكل قصر حصن، ومعظم البيوت تتألف من خمس أو ست طوابق ! .. ويجلب ماء الشرب من النيل، ينقله السقاءون على الجمال، والآبار القريبة من النيل عذب ماؤها .. ويقال أن بالقاهرة إثنين وخمسين ألف جمل يحمل عليها السقاءون الروايا، عدا من يحمل الماء على ظهره في القرب أو الجرار النحاسية في الحارات الضيقة التي لا تسير فيها الجمال ...

وفي المدينة بساتين وأشجار بين القصور، تسقى من ماء الآبار، وفي قصر الخليفة بساتين لا نظير لها، وغرست الأشجار فوق أسطح البيوت فصارت متنزهات .. والبيوت من النظافة والبهاء حتى يمكنك القول بأنها شيدت من الجواهر لا من الجص والآجر والحجارة، وهي بعيدة عن بعضها، فلا تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر ..

ويرى السائر خارج المدينة ناحية الغرب ترعة كبيرة تسمى « الخليج » حفرها والد الخليفة، وله على شاطئيها ثلاثمائة قرية، ويبدأ فم الخليج من مدينة مصر ماراً بالقاهرة ويدور بها ماراً أمام قصر الخليفة، وقد شيد على رأسه قصران : « قصر اللؤلؤة » و « قصر الجوهرة » (كان للخلفاء الفاطميين كثير من المناظر والمتنزهات بالقاهرة وظواهرها، منها مناظر : الدكة، المقس، التاج، دار الملك، منازل العز، الأزهر، الاندلس، السكره وغيرها .. وكانت منظرة اللؤلؤة من أجمل القصور وأعظمها بهاءاً وكانت تطل على البستان الكافوري شرقاً، ومن الغرب على الخليج، ومنها ترى جميع أرض

الطباله وأرض اللوق وبساتينها والنيل) وفي القاهرة أربعة جوامع : الأزهر، الأنور، الحاكم، وجامع المعز وهو خارج القاهرة على شاطىء النيل »

وأفاض خسرو في وصف أمن المصريين واطمئنانهم إلى حكومتهم، إلى حد أن البزازين وتجار الجواهر والصيارفة لا يغلقون أبواب حوانيتهم، بل يسدلون عليها الستائر ولم يكن ليجرؤ أحد على مد يده إلى شىء منها! .. ويتحدث عن أمانة التجار وأنهم يصدقون في معاملاتهم، وإذا كذب أحدهم أو غش فإنه يجرس ويعاقب .. والناس جميعاً يثقون بالسلطان فلا يخشون الجواسيس ولا الغمازين « إن الأمن الذى رأيته هناك لم أره في بلد من قبل ».

ونمضى مع دليلنا خسرو إلى قصر أمير المؤمنين، فقال عنه :

« يقع قصر الخليفة في وسط القاهرة (القصر الكبير الشرقى) وهو طليق من جميع الجهات، فلا يتصل به أى بناء، وقد مسحه المهندسون فوجدوه مساوياً لمدينة « ميافارقين » ويحرسه كل ليلة ألف رجل : خمسمائة راجل وخمسمائة فارس، يدورون حول القصر من وقت المغرب حتى الصباح، ويبدو القصر من خارج المدينة كأنه جبل لكثرة ما فيه من أبنية مرتفعة، وله عشرة أبواب فوق الأرض، فضلاً عن أبواب أخرى تحتها، وأسماء أبوابه الظاهرة هى : باب الذهب، باب البحر، باب السريج، باب الزهومة، باب السلام، باب الزبرجد، باب العيد، باب الزلاقة، باب السرية، وتحت الأرض باب يخرج منه الخليفة راكباً، وهذا الباب يفتح على سرداب يؤدى إلى قصر آخر (القصر الغربى) خارج المدينة » ..

وبعد أن يستأذن « صاحب الستر » يدلف إلى القصر، ونستمع إلى وصفه قائلاً : « حين دخلت من باب السراى رأيت مبان وصففاً وايوانات، إن وصفتها يطل كتابى، كان هناك إثنا عشر جناحاً متصلة، وكلما دخلت جناحاً منها وجدته أروع من سابقه، ومساحة كل واحد منها مائة ذراع في مائة ... وكل ما في هذا الحرم من الفرش والطرح من الديباج الرومى والبوقلمون، نسجت على قدر كل موضع تشغله، وفي آخر مبنى، تخت حوله درابزين من الذهب المشغول يفوق الوصف، ومن خلفه درجات من الفضة، وقد بلغ هذا التخت حداً من العظمة، لو قصرت هذا الكتاب كله على وصفه ما استوفيته (هذا وصف لقاعة العرش، وقد أشار لين بول إلى أن المعز لدين الله نفسه هو واضع تصميم جميع مبانى القصر).

غليوم الصورى : وكما وصف لنا « المقريزى » مراسم إستقبالات الخليفة، فقد وصف لنا أيضاً المؤرخ الرحالة « غليوم رئيس أساقفة صور - *Guillaume du Tyre* » مراسم إستقبال الخليفة العاضد لدين الله لبعض السفراء الأوروبيين سنة ١١٦٧ م :

« كان الخليفة يجلس على عرشه في قاعة الإستقبالات خلف ستر في مواجهة الحاضرين، وبتم

إزاحتها عندما تبدأ المقابلة ، فيدخل الوزير إلى حضرة الخليفة وبعد تقبيل يده وقدمه يتراجع إلى الخلف مسافة ثلاثة أذرع ، ثم يدعوه الخليفة إلى الجلوس عن يمينه .. ويتم تنظيم وقوف وجلوس الحاضرين طبقاً لمراسم دقيقة للغاية .. »

وقد شاهد غليوم بساتين القصر الشرقي الكبير ، فقال : « بعد مرورنا في دهاليز طويلة ، ضيقة ، ومقببة ، حيث لا نبصر شيئاً ، وصلنا إلى فناء مكشوف محاط بأروقة رائعة ذات صفوف من الأعمدة الرخامية متعددة الألوان وموشاة بالذهب ... كان المشهد ممتعاً للغاية ، حتى أن الإنسان الأكثر إنشغالاً لابد أن يتوقف في مواضع عديدة ، وفي المنتصف نافورة ذات أنابيب من الذهب والفضة ، مياهها شديدة الصفاء .. وتتوزع العين بين أنواع لا حصر لها من الطيور النادرة التي تحلق حولنا (أصواتها جميلة وريشها مختلف ألوانه) ، وقد تم جلبها من مختلف بلاد الشرق »

وشاهد غليوم ورفاقه أنواعاً من « الوحوش الغريبة التي إن وصفها سيتهم بالكذب » !

وظل مقر إقامة الخليفة هو الأكثر بهاءً وروعة ، فوصف لنا قاعة العرش التي امتد فيها « بساط كبير من الحرير الفاخر متنوع الألوان وموشى بخيوط الذهب ، يزدان برسوم الحيوانات والطيور ، ومتوهج بالياقوت الأحمر والزمرد وآلاف من الأحجار الكريمة ... وكان يقف عدد هائل من الخدم والحاشية يمثلون عظمة سيدهم الخليفة ، وقد إزدانوا بملابس فاخرة ، وهنا أخرج الوزير سيفه من غمده وإنحنى أمام الخليفة في خشوع بالغ ثلاث مرات ، كما لو كان يبتهل في معبد أمام الله ! .. بعد ذلك ، إنفرجت الستائر الثقيلة الموشاة بالذهب والجواهر إلى الجانبين ، ليظهر الخليفة في بهاء وعظمة جالساً على عرشه الذهبي ، في مشهد لا يتوفر لكثير من ملوك أوروبا » !

المواكب والاحتفالات :

كانت المواكب والإحتفالات الفاطمية ترتكز على إظهار قوة الخليفة وسلطته كحاكم لإمبراطورية إلى جانب نفوذه الديني ، فهو الإمام والخليفة .. وكانت الاحتفالات الدينية تتطلب ركوب الخليفة والخروج من قصره في موكب مهيب يتسم بالعظمة والأبهة (ركوب أول رمضان ، أيام الجمع الثلاث من رمضان ، ركوب عيد الفطر ، ركوب عيد النحر أو الأضحى) كذلك كان البلاط الفاطمي وعامة الشعب يحتفلون بعيد رأس السنة الهجرية ، ورأس السنة القبطية « النوروز » ومولد النبي وقافلة الحج وليالي الوقود الأربع في أول ومنتصف شهري رجب وشعبان ، بالإضافة إلى الإحتفال بالمناسبات الشيعية : حزن عاشوراء حيث يمد فيه « سماط الحزن » ، وموالد : الحسين وفاطمة الزهراء والإمام علي والحسن ومولد الإمام الحاضر ، وعيد « غدير خم » .. وكانت هذه الأعياد والمناسبات تشهد إحتفالات باذخة ، وتمد فيها الأسمطة الحافلة بالأطعمة والحلوى المتنوعة ، وكانت توزع فيها الخلع والكسوات على رجال الدولة ، والتي كانت تصنع في دور الطراز ودار الديباج .. وتجدر الإشارة إلى أن الخليفة كان حريصاً على حضور

الأسمطة الرسمية التي كانت تمد في قاعة الذهب بالقصر الشرقي ..

كذلك كان الخلفاء الفاطميون يشاركون الشعب في المناسبات القومية مثل : تخليق المقياس (دهن مقياس النيل بالمسك والزعفران) وفتح أو جبر الخليج ، وقد سجل لنا ناصر خسرو وغليوم وماريوس كانار مظاهر الإحتفال بعيد فتح الخليج .. حيث كان الخليفة يغادر قصره ممتطياً جواده تحميه مظلة ، وحاملاً لجميع الرموز الخاصة بالملوك ، يتهادى موكبه بين آلاف من الجنود والحاشية ، يتقدمهم أربعون نافخاً في الأبواق (ثلاثون بوقاً من الفضة وعشرة من الذهب) وكان التجار يقومون بتزيين الشوارع التي يمر بها الموكب ، بينما تحتشد جموع الشعب «من أجل التنعم ببركة الحصول على نظرة من الخليفة» .. إلى أن يصل إلى فم الخليج ، حيث يجلس في مقصورته يشاهد عملية كسر السد ثم تدفق المياه تنساب الزوارق على صفحة الخليج في مهرجان شعبي صاخب .

المراجع والمصادر :

١- ناصر خسرو علوى : سفرنامة ، رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري ، ترجمة : د. يحيى الخشاب ، القاهرة ، ١٩٤٦

٢- اندريه ريمون : القاهرة - تاريخ حاضرة ، ترجمة : لطيف فرج ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٤

3- Gabriel, Fr.: Le Caire de Nasiri Khusrev, CIHC, PP. 155 - 158

خان الخليلى

****

عرفه عبده على

عبقرية المكان ... وعطاء التاريخ ... شكلا موضع الجلال وموطـــن الجمـــال للقاهرة التي ظلت منذ نشأتها مصدراً للإشعاع الحضاري والتجديد الثقـــافى ، فتبوأت مكانتها كأهم مراكز الحياة السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية فـــي العالم الإسلامي ..

وقاهرة الشرق ... لا حد لروعتها ، وما إستطاع الزمان أن يطمـــس طابعـــها وجلالها ، وكم بهرت - رحالة وأدباء وفنانين وشعراء ومؤرخين - بما حبتـــها الطبيعة ، وما أضفاه عليه التاريخ من عراقة ، وما إرتفع على أرضـــها مـــن آيات الفن ... مدينة يسكنها التاريخ ... لشوارعها حكايات ... ولقصورها أسـرار ... وبواباتها ومساجدها وأسبلتها ووكالاتها وحماماتها ... ديكـــورات لمشـــاهد صنعت التاريخ ... مشربيات على الزمان الجميل !

على دخان مبخرة شرقية .. نرتحل إلى عالم متوهج بإيقاعاته المتداخلـــة ، ونقلب صفحات مشرقة تسطع ببريق الذهب ... وعبر الأزقة والممرات الضيقة : وشواهد تشي بعطر التاريخ ... نمضى ونتأمل ... ونتحسس بنظرات رفيقة ... أحجار المآذن والقباب والعقود ... والوكالات ... والحوانيت وانطباع ســـحري يوحي إلينا بما كان عليه الحال في سالف الزمان ... وبأن " ألف ليلة وليلـــة " كانت حقيقة لاجدال فيها !

تتفاعل بداخلنا أحلام العظمة القديمة ، ونحن نجوب عالم " خان الخليلى " ... في هذا الحي الأشهر ، ومن خلال المواقف والأحداث التـــي أبدعـــها أديبنـــا العالمى نجيب محفوظ : شكل لنا صورة مصرية واقعية ، دقيقـــة ، غزيـــرة التفاصيل ، نابضة بالحياة ، برع في إلتقاط ألوانها وظلالها المتباينة ... في فترة

مضطربة من تاريخنا ، خلال الحرب العالمية الثانية ، فيقدم عناصر الديكــور الواقعي :

" كان الشارع طويلاً في ضيق ، تقوم على جانبيه عمارات مربعة القوائـم ، تصل بينها ممرات جانبية تتقاطع مع الشارع الأصلـــي ، وتزدحـم جوانـب الممرات والشارع نفسه بالحوانيت ، فحانوت ساعاتي ، وخطاط وأخر للشـاي ورابع للسجاد وخامس رفاء وسادس للتحف ... وتقع هنا وهناك مقاه لا يزيــد حجم الواحد على حجم حانوت ، وقد لزم البوابون أبواب العمـــارات بوجـوه كالقطران وعمائم كالحليب ، وأعين حالمة كأنما خدرتـها الروائـع العطريـة وذرات البخور الهائمة في الفضاء ، والجو متلفع بغلالة سمراء ، كأن الحـــي في مكان لاتشرق عليه الشمس ، وذلك أن سماءه في نـــواح كثـيرة منـها ، محجوبة بشرفات توصل ما بين العمارات ، وقد جلس الصناع أمام الحوانيـت يكبون على فنونهم في صبر وأناة ، ويبدعون آيات بينات من أفانين الصناعـة ، فالحي العتيق لا يـــزال يحتفظ لليد البشرية بقديم ســمعتها فــي المـهارة والإبداع " ...

وبنظرة من أعلى ، يقدم نجيب محفوظ صورة أخرى بالغة الدقة لمعالم خان الخليلى ، فالعمارات قد شيدت على أضلاع مربع كبيرة المساحة " ... فكـــانت نوافذ العمارات وشرفاتها الأمامية تطل على أسطح الحوانيت ، وتأخذ نصيبـها من الهواء والشمس ".

" ويرى في أسفله مربعات كثيرة من أسطح الحوانيـت ، تخترقـها شـبكة معقدة من الممرات والطرقات ، ويرى فيما وراء ذلك مئذنة الحسين في علوها السامق تبارك ما حولها " .

هذه صورة الماضي القريب ، أما الأصول التاريخية لخان الخليلى ، فيصوغها العلامة " المقريزى " في خططه ، فكتب :" هذا الخان بخط الزراكشة العتيـق ، كان موضعه تربة القصر التي فيها قبور الخلفاء الفاطميين المعروفـة بتربـة

الزعفران ، أنشأه الأمير جهاركس الخليلى أمير آخور الملك الظاهر برقـوق ، وأخرج منها عظام الأموات في المزابل على الحمير وألقاها بكيمـان البرقيـة هوانا بها ، وكان يلوذ به شمس الدين محمد بن احمد القليجى ، وقال له أن هذه عظام الفاطميين وكانوا كفاراً رفضه ...!

عندما قدم إلى مصر ، الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ، في يـوم الثلاثـاء السابع من رمضان سنة ٣٦٢ هـ / ٩٦٨ م ، احضر معه رفات أبائـه فـي توابيت ، من بلاد المغرب ، وإنشاء لهم مدفنا ، خصص فيما بعد لدفن خلفائهم ونسائهم وذرياتهم ، واشتهر هذا المدفن بتربة الزعفران ، وهى فـي موضـع وكالة القطن .

ولقد لقي أمير جهاركس مصرعه ، في الحادي عشر من ربيع الأخر لسـنة ٧٩١ هـ ، وكان في موته عبرة لأولى الألباب - كما يشير المقريزى - فإنـه لما قتل في معركة الأمير يلبغا الناصر بظاهر دمشق : " ترك علـى الأرض عاريا وسوءته مكشوفة وقد انتفخ ، وكان طويلا عريضاً ، إلى أن تمزق وبلى عقوبة من الله تعالى " !

وكان الأمير جهاركس قد أوقف هذا الخان " على عمل خبز يفرق بمكـة " على كل فقير منه في اليوم رغيفان .

وكانت سوق الرقيق تقام بخان الخليلى منذ عام ٨٧٩ هـ / ١٤٧٤ م ، إلى أن تولى السلطان الغورى ، فاقام سوقا أخرى للرقيق بالقرب منه .

في سنة ٩١٧ هـ / ١٥١١ م آلت ملكية الخان إلى السـلطان الغـورى ، بطريق شرعي ، فأمر بهدمه وإعادة بنائه ، وأنشاء فيه حواصـل وحوانيـت وباب البادستان ، لا يزال مكتوبا عليه اسم السلطان الغورى ويقـول النـص :أنشاء هذا المكان المبارك السلطان الملك الاشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره " .. وعقد هذا الباب الأثرى محلى بمقرنصات أحيطت بزخـارف جميلة .

ويذكر علي باشا مبارك في خططه التوفيقية أن شارع خان الخليلي : طوله مائتان متر ، وبه عدة عطف يسلك منها لشارع السكة الجديدة ، ولشارع سيدنا الحسين ، وعدة زوايا ووكائل " .

ومنها زاويتا السلطان الغوري ، وزاوية السلطان العادل بوكالة الخيلطين ، وزاوية السلطان جقمق ، وزاوية احمد باشا يجن ، وزاوية خليل أغا بنهاية الشارع تجاه وكالة العناني ... وهذه الزوايا كانت شعائرها مقامة بنظر الأوقاف ، حتى عهد علي مبارك .

أما الوكالات التي ذكرها : وكالة البزرستان المخصصة لتجارة القطن ، ووكالة احمد باشا يجن لتجارة السجاد ، محاطة بعدة حوانيت ، ووكالة خان السبيل للحرائر والمنسوجات ، ثم وكالة السلحدار وكان بها عدة حوانيت وحواصل ، مخصصة للسلع الواردة من بلاد الشام ... بالإضافة إلى أبواب الصاغة الكبرى ، ثم وكالة الجواهرجية ، وباب شارع المقاصيص ، والمؤدى إلى حارة اليهود وشارع خان أبى طاقية .

والنشاط التجاري الضخم لخان الخليلي ، وتأثيره في حياة القاهريين ، وحركة التجارة الإقليمية بصفة عامة ، كان موضع اهتمام الرحالة والتجار الأوروبيين ، فكتب " چان بالين " عام ١٥٨١ :" خان الخليلي ... يشبه قصر منيف فخم ، شيد بمهارة من أحجار منحوتة ، يتكون من ثلاثة طوابق : الطابق الأرضي عبارة عن مجموعة حوانيت رائعة ، على شكل مربع تتوسطه ساحة ، تحيط بها دعامات تعلوها قباب جميلة ، وهى مكان تجمع التجار والتعامل مع الوسطاء ، أما الطابق الأوسط فمخصص لبيع البضائع بالمزاد والجملة ، ولا يسمح إلا لصفوة التجار بالبقاء في هذا المكان الذي تعرض به أنواع متعددة من الأحجار الكريمة والمعادن الثمينة والتوابل ، ويشهد أيام السوق ، عدد من الأمراء والسناجق ، الذين يشترون بالمزاد كميات من السلع الثمينة ، أما الطابق العلوي فهو مخصص لإقامة أشراف التجار

الأجانب ، الذين يصاحبون قوافلهم الزاخرة بكل ثمين ، من الهند وبلاد فارس .

هذا إلى جانب ما يباع في الحوانيت ، من العطور الفاخرة والمسك ، ومنسوجات وطنافس ، ومشغولات ذهبية وفضية ، معظم من يتاجر بها من اليهود " !

وحوانيت أسواق القاهرة ، تكاد لا تختلف كثيراً عن مثيلاتها في أسوق المدن العربية ، وقد قدم لنا " إدوارد لين " في كتابة " المصريون المحدثون " وصفا كلاسيكياً للحانوت :

" الحانوت " محل مربع " ارتفاعه نحو خمسة أو ستة أقدام ، وعرضه ثلاثة أو أربعة أقدام ، وأحيانا يزود بغرفة إضافية كمخزن ، وترتفع الأرضية بمقدار قدمين أو ثلاثة ، مزودة بمقعد حجري من الآجر - مصطبة - يجلس إليها التاجر وزبائنه ويحتسون القهوة خلال النقاش والمساومة ، وهذه المصاطب تعوق حركة المرور ، وكانت تستخدم كمتاريس في أوقات الاضطرابات " .

وقد أشار الرحالة الفرنسي :" فيلامون " إلى انتعاش التجارة في القاهرة " نظراً لعلاقاتها الاقتصادية الوطيدة بأوروبا وأفريقيا والهند .. وأنها تعج بأعداد هائلة من التجارة ، وتتركز العمليات التجارية في أحياء الغورية وخان الخليلى تعرض فيه البضائع الهندية من التوابل ، واجود الروائح والمسك والعنبر .

وأكد سير " ستانلى بول " في كتابه " سيرة لقاهرة " على اهتمام السلاطين الجراكسة بتجارة الترانزيت بين الهند وأوروبا ، والتي كانت مصدرا هاما لثروة البلاد ، وسيطرتهم على الموانئ وطرق القوافل بين أوروبا وتجارة الهند ... وجانب كبير من هذه التجارة يتخذ طريقة إلى الأسواق ، ليباع إلى أثرياء القاهرة ، وليرضى تلك الأذواق المترفة الخاصة بأتباع السلطان المملوكي ... وأضاف : " ومن الحانات التي أنشئت في العصور الوسطى ، ومازال يعرفها

كل سائح : خان الخليلى أو - البازار التركي - الذي شـيده الأمـير جركـس الخليلى أمير آخور السلطان برقوق في عام ١٤٠٠ م .

ويشير البروفيسور " اندريه ريمون " إلى أن " مجموعة الأسـواق المعروفـة بخان الخليلى بالقاهرة - والتي احتكرت الأنشطة الاقتصادية للمدينة - كـانت أيضا قيسارية ، وقد بنى بابان من أبوابها عام ١٥١١ م ، ومن بيـن سـمات خان الخليلى التي تجعلنا نعتقد انه قيسارية ، الدور الهام الذي كان يلعبه فـي التجارة الكبيرة خاصة المنسوجات والتوابل .. وكانت السـلطات الحكومية تبدى اهتماما بالغا بتشييد هذه المنشآت حيث تتركز التجارة الدولية " ...

ويضيف ريمون:" وفى القاهرة ، كثيرا ما كانوا يطلقون على خان الخليلـى اسم " البازستان " أو " البادستان " ولعل ذلك بسبب شهرته كمركـز رئيسـي لنشاط التجار الأتراك حتى القرن السادس عشر ، وقد يكون الذين قاموا علـى إنشائه ، استهلموا فكرة البادستان ، الذى كان شـائعا فـي الأنـاضول وفـى استانبول آنذاك .

ويتطرق البروفيسور ريمون إلى الحديث عن أسواق الصاغة ، التي كان يتم فيها تبادل العملات ، وأهمية دورها في التجارة العالمية ، وفى القاهرة ، سوق الصاغة الشهير يلاصق خان الخليلى .. ومن الأهمية أن نعرض لهذا السوق ، الذي لعب دوراً مؤثراً في نشاط خان الخليلى ، حيث كـان مركـزاً لتصنيـع المشغولات النفيسة والأحجار الكريمة ، وفيه تتم عمليات الصرافة .

يصف المقريزى الصاغة بقوله " هذا المكان تجاه المدارس الصالحية بخـط بين القصرين " وهى في موقع - مطبخ القصر الفاطمي - يخرج إليه من باب " الزهومة وقد هدم هذا الباب ، وأقيمت مكانه قاعة شيخ الحنابلة في ذلك العصر ، نحو عام ١٤٤٠ م ، كان صناع الحلي وأرباب تجارتها ، يمتد نشاطهم داخل ثلاث حارات بالصاغة ، والصيارفة يحتلون مدخل هذا السوق ... بالقرب مـن جامع السلطان قلاوون والمدرسة الصالحية .

في العصر العثماني ، وحتى القرن الثامن عشــر ، ظلــت حــدود ســوق الصاغة شبه ثابتة ، شمالا إلى حمام الصاغة ووقف برسباى المعروف بــــ " ربع خسرو باشا "... يحده جنوبا شارع درب السلسلة والذي عرف فيمــا بعــد بـــ" عطفة القسم " ... ثم اتسع الحي ليشمل باب الزهومة حتى مدخــل شــارع المقاصيص .

والحارات الثلاث بداخل الصاغة ، لم يكن لها أســماء محــددة ، غــير أن مداخلها كانت محكمة بثلاثة أبواب :" الباب الأول " بالقرب من حمام الصاغة، والباب الثانى عرف باسم : الباب الوسطانى ، ومع نهاية القرن السابع عشـر ، عرفت هذه الحارة الوسطى بـــ " عطفة شيخ سوق الصاغة " ، " ثــم البـــاب الثالث أو " الباب الأخير " ... وفى وثائق العصر العثماني استخدم بكثرة تعبـير " صدر سوق الصاغة " في الإشارة إلى الحوانيت الواقعة في عمق السوق .

ويصف " ليون الأفريقي " تجار الصاغة بأنهم : " ... تمـــر بيـــن أيـديـــهم ثروات عظيمة " !

وتأخذنا عالمة المصريات الرحالة البريطانية : " اميليا إدوارد " ... مـــابين التنوع الرائع والزخارف المتناغية " إلى طرقات خافتة الإضاءة " .. تزدحـــم بالعابرين وكأنهم في مهرجان شرقي ! ... وتعبر عن انطباعاتهم ، فتكتب فـــي عام ١٨٧٣ .. " في خان الخليلى ، يطالعنا سوق صاغة الذهـــب والفضـــة ، نادراً ما تعرض بضائع للبيع ، والأزقة غاية في الضيق ، والحوانيــت بالغــة الصغر بأكثر مما تتخيل ، وهى عبارة عن دواليب فحسب ، يبلغ عرضه ثلاثة أقدام ، وأعد كل صوان منها على شـــكل صفـوف مـــن الأدراج الصغـيرة والفتحات الضيقة ، أمامها درج حجري مغطى بالحصير يسمى " مصطبــــة " تستخدم في الجلوس والعرض ، ويجلس التاجر القرفصاء أو متربعاً بـالداخل ، وبهذه الحال يمكنه - دون أن ينهض من مكانه - أن يسحب درجا تلو الآخـــر ، بعده تتحول المسافة بين المشترى والمتجر ، إلى أكـــوام مـــن حلـــى الذهـــب

والفضة ، وهذه المشغولات تختلف عن بعضها فقط طبقا لنوع المعدن لكنـــــها تكاد تتطابق في نقوشها وزخارفها ، وتبـــاع بـــالوزن مـــع هـــامش ربـــح ، والمشغولات الفضية عادة تقوم بالروبية أو خمسة فرنكـــــات للقطعـــة ، أمـــا المشغولات الذهبية فتقوم بالعملة النابوليونية أو بالجنيهات الذهبية الإنجليزيـــة ، والحلى المصنوعة بالقاهرة ، تشمل بشـــكل أساســـي ، السلاســـل والأقـــراط والأساور والخلاخيل والقلائد المحلاة بالعملات وحليات هلاليـــة ، وصنـــاديق التمائم المشغولة بالحفر والطرق والنقوش البارزة ، وتتميز جميعها بتصميمات غنية وعتيقة .. أما التجار ، فإن لطفهم وحلمهم لانهاية له ، وصـــبرهم غـــير قابل للنفاذ ، فربما قلب المرء بضائعهم رأسا علـــى عقـــب ، ويجـــرب كـــل معروضاتهم ، يغدو عليهم ويروح المرة تلو المرة ، دون أن يشترى ، ومـــع ذلك فهو يلقى منهم الترحيب إذا غدا ... والبسمة إذا راح .. ! ثم أشارت اميليـا إلى إنها وصديقتها مسز " لفنجستون " كانتا تقضيان ساعات طويلة ، تتعلمـــان اللغة العربية في خان الخليلي!

ويحدثنا الأديب والرحالة البريطاني* دوجلاس سلادين* في كتابـــه : Cairo Oriental » عن انطباعاته فيقول :" .. إذا أخذت طريقـــك ، مـــارا بـــالحوانيت والمساجد وتكيات الدراويش والحمامات وقصور رائعة تزينـــها المشـــربيات " فستجد نفسك في اشهر أسواق الشرق – خان الخليلي – مفتونا مسلوب العقـــل في أجواء ألف ليلة وليلة الساحرة ، المثيرة ، تتنفس هـــواء مشـــبعا بروائـــح المسك والصندل والزعفران والبخور ... الدلالون يزيدون وتختلط أصواتـــهم في إيقاعات عجيبة ... وفى شارع الصاغة ، ينتشر صائغو الذهب والفضة ... من هذا السوق ، بنات البلد والفلاحات يفضلن أن يشترين قلائدهن وأقراطـــهن الذهبية ، بالقدر الذى يعلن عن مستوى ثرائهن !... وهنا أيضا ، يجد الزائـــر كل أنواع التحف والأحجار الكريمة ، والأقل مثل أحجار اليـــاقوت والزمـــرد والياقوت الأصفر المنقوش ، وعبر ممرات مظللة سيجد نفسه في عالم أخر ..

وان عصرا بأكمله يمثل أمامه عبر القرون !... حشود من التجار والسلع مثلما كان يحدث في زمن السلطان برقوق ومماليكه !... وينزوي الحرفيون وهم يعملون في صمت ، كل في صنعته ، وقد يتنبه الزائر إلى انه منجذب إلى صوت طرق صانع محترف ، يطرق بمهارة شريطا من الفضة بأبيات شعرية على طبق من النحاس الأصفر ، وآخر مكباً في صبر بلا حدود وصبوة مناسبة على – عرق لؤلؤ – يرصع به حذاء أو علبة خشبية .. أكداس من الحرير المقصب الفاخر ... وأوان نحاسية مطروقة متعددة الأشكال ... أطباق منقوشة مطعمة بالعاج ، نمارق جلدية ، أبسطه ومفروشات وحقائب ، مجوهرات ومشغولات فضية وسجاجيد للصلاة .. وكل ذلك تزينه نقوش فرعونية وعربية رائعة .. وغير ذلك من أعجب وغرائب الأشياء !... حقا إنها تجربة أسطورية !.. وتلك المشاهد ، والأشياء المدهشة في الماضي : كانت تشكل خيالاً ملوناً ساحراً عن مصر والشرق ! .

ونطوى صفحة مفعمة بثراء الماضي .. وسحر الشرق ، المكان والتاريخ .. في مدينة الزمن المفقود ، لم تعد اليوم سوى ذكرى !

المراجع :

١- نجيب محفوظ ، خان الخليلي - مكتبة مصر - القاهرة ، ١٩٧٦

٢- على باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٩ - ١٩٩٢

٣- ادوارد لين : عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم ، ترجمة : سهير دسوم ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩١

4- Palerne, J. : Le Voyage en Egypte 1581, IFAO, le Caire, 1970

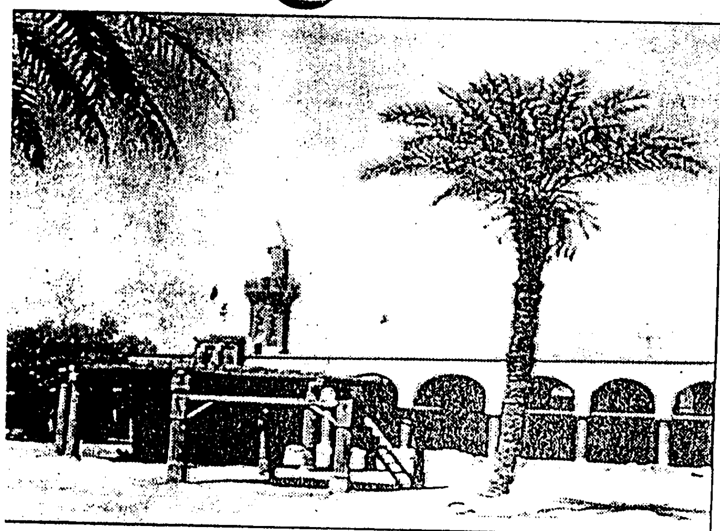
5- De Villamont : Voyage en Egypte des annees 1589 - 1591, IFAO, le Caire, 1971

6- Edwards, A. : The thousand miles up the Nile, London, 1878

7- Sladen, D. : Oriental Cairo - the City of the Arabian Nights, London, 1911

جوامع و مشاهد

جامع عمرو



جامع عمرو

الزائر لهذا المسجد الكبير، لابد أن يداعب خياله ماضى مدينة الفسطاط، وماكانت عليه من عمران وحضارة عظيمة، فهى أول مدينة اسلامية انشئت بمصر، وجامع عمرو هو اول جامع انشئ بديار مصر، شيده القائد عمرو بن العاص عام ٢١ هـ / ٦٤٢م. واشتهر بالجامع العتيق، وتاج الجوامع، وكان وقتئذ مشرفا على النيل، ومساحته ٥٠×٣٠ ذراعا ولاصحن او منارة له، كان شديد البساطة فى كل شئ، وقد زادت مساحته الحالية ١٢٠.٥×١١٢.٥ متر، والجامع القديم لم يتبق منه سوى الاسم فقط وكان يواجه دار عمرو بن العاص.

وكان لحريق الفسطاط سنة ١١٦٨م خشية احتلال الصليبيين لها، اثر فى تخريب الجامع وهو فى أزهى عصوره، ثم توالت عليه العناية بالاصلاح والتجديد والتوسعة من ولاة مصر والخلفاء الفاطميين، وسلاطين الدولة الايوبية، وقام محمد على بتجديده واعاد صلاة الجمعة فيه، وكان اكبر مشروع لتجديد وتوسعه الجامع تم فى عهد الملك فؤاد عام ١٩٢٦.

وقد نال الجامع قدرا كبيرا من اهتمام الاثريين وعلى راسهم: محمود باشا احمد وكوربت بك ود. كريزويل، ولم يقتصر الجامع على اداء الصلاة فحسب، بل كانت به محكمة لفض المنازعات الدينية والمدنية، وكانت تعقد جلساتها فى الزيادة الغربية، الموجود فى جزء منها الآن المحراب الجصى، وكان به ايضا بيت المال، وقد وصفه الرحالة «ابن دسته» بانه كان يواجه المنبر، شبه قبة عليها ابواب من الحديد. كما قام الجامع بدور الجامعة، حيث كانت تعقد به حلقات للتدريس، بعضها لارشاد الناس الىماينفعهم فى دنياهم، وبعضها حلقات لتدريس الفقه وعلوم القرآن والحديث والادب، وبلغت هذه الحلقات فى نهاية القرن العاشر الميلادى: ١١٠ حلقات، يترأسها اشهر واجل العلماء والفقهاء. وكان الامام محمد بن ادريس الشافعى يلقى دروسه

فى الفقه بهذا الجامع، عقب وصوله الى مصر سنة ١٩٩ هـ، وكان يطلق على حلقته «زاوية الامام».

وحتى يومنا هذا، يحرص كثير من سكان القاهرة، على اداء «الجمعة اليتيمة» فى جامع عمرو، ومنذ الصباح الباكر فى اخر يوم جمعة من شهر رمضان كل عام، لاتجد موضعا لقدم، كما يحرصون ايضا على ختم القرآن وصلاة التراويح» بهذا الجامع، وصلاة الجمعة اليتيمة تقليد نشأ منذ عصر الدولة الفاطمية، حيث كان الخليفة يركب للاحتفال برؤية هلال شهر رمضان، ويؤدى صلاة الجمعة الاولى فى القصر، والثانية فى جامع الحاكم، والثالثة فى الجامع الازهر، والرابعة فى جامع عمرو، وكان اهل القاهرة يقومون بعمل الزينات بطول شارع المعز (قصبة القاهرة) حتى جامع عمرو، والذى قال عنه المؤرخ «ابن دقماق»: «امام المساجد وقطب سماء الجوامع، ومطلع الانوار اللوامع، موطن اولياء الله وحزبه، طوبى لمن حافظ على الصلوات فيه...»

عرفه عبده على

لمزيد من التفاصيل راجع :

١- حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٤

٢- محمود أحمد : العمارة الاسلامية ، القاهرة ، ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م

3- Creswell, K.A.C.: Early Muslim Architecture, 2 Vols, Oxford, 1932, 1940

مدرسة السلطان حسن

مدرسة السلطان حسن هى إحدى عجائب العمارة الإسلامية ومن مفاخرها. وكان فى موقعها قبل إنشائها قصران، أحدهما للأمير يلبغا اليحياوى والآخر للأمير طنبغا الماردانى، وقد أمر السلطان الناصر حسن بن السلطان الناصر محمد بن المنصور قلاوون بهدمهما، وبدأ المشروع فى سنة ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م ليكون مسجدا ومدرسة للمذاهب الأربعة، الحق بها مساكن للطلبة، واحتفل بإفتتاحها سنة ١٣٥٩م قبل الفراغ من بنائها، واغتيل السلطان حسن سنة ١٣٦٢م ولم يدفن تحت قبتها! وأكمل البناء الطواشى «بشير الجمدار» مساحة المدرسة ٧٩٠٦ امتار ارتفاع المدخل ٣٧.٨٠ متر وهو افخم بوابة فى آثار مصر الإسلامية، ويحيط بالصحن المفروش بالرخام الملون أربعة أروقة للمذاهب الأربعة، تتوسطه فسقية فوقها قبة، ويحيط بالصحن أربعة إيوانات متعامدة اكبرها الايوان الشرقى، كما يحيط به افريز من الجص مزخرف بآيات من سورة الفتح بالخط الكوفى، وفى الايوان «دكة المبلغ» من الرخام الفاخر، والمحراب من الرخام المزخرف بالأويمة المذهبة، يجاوره منبر من الالباستر، وعلى جانبه بابان يؤديان إلى القبة الجنوبى منهما مغشى بالنحاس المطعم الذهب، ويتدلى من أسقف الايوانات مشكاوات زجاجية منقوشة بالمينا، يحتفظ متحف الفن الاسلامى بمجموعة رائعة منها، وخلف المحراب، ترتفع القبة الخشبية الضخمة على ثمانية أعمدة من الرخام، ارتفاعها ٤٨ مترا، جدرانها مطعمة بالرخام الملون، ومقرنصاتها من الخشب الملون والمذهب، وعلى جانبى القبة الفريدة، ترتفع مئذنتان، اقدمهما الجنوبية وارتفاعها ٦٠ و٨١م

وقد قرر السلطان حسن لكل مذهب من المذاهب الأربعة شيخاً ومائة طالب، من كل فرقة خمسة وعشرون متقدمون وثلاثة معيدون، وعين مدرساً لتفسير القرآن ومعه ثلاثين طالباً، كما عين مدرساً للحديث النبوى، ومقرئاً لقراءة الحديث ومعه ثلاثين طالباً، وعين بالايوان القبلى عالماً مفتياً، ومقرئاً أربعة أيام من كل أسبوع منها يوم الجمعة، وعين شيخاً عالماً بالقراءات السبع، واثنين لمراقبة الحضور والغياب، وأعد مكتبة عين لها أميناً، وألحق بالمدرسة مكتبين لتعليم الأيتام القرآن والخط، وقرر لهم الكسوة والطعام، واليتيم الذى يتم حفظ القرآن يمنح خمسين درهماً وكذلك يمنح مؤدبه نفس القيمة مكافأة له، أيضاً عين طبيبين أحدهما باطنى والآخر للعيون، وطبيباً ثالثاً جراحاً وقد أرصد السلطان فى وقفيته مرتبات الشيوخ والطلبة والموظفين وقيمة ما يصرف لهم من الطعام كل ليلة جمعة وما يصرف لهم فى الأعياد.

وشموخ البناء يدل على العظمة والمقدرة الفنية الهائلة، وقد إجاد مهندسه «محمد بن بيليك الحسنى» وضع تصميمة، وفى تناسب أجزائه وفى إختيار زخارفه لرائعة وكتاباته الكوفية، تمثل فى مجموعها ثروة فنية. وعنه يقول المقريزى «لا يعرف فى بلاد الاسلام مايحاكى هذا الجامع» وكتب عنه «جومار» أحد علماء الحملة الفرنسية: «انه من أجل مبانى القاهرة والأسلام ويستحق أن يتبوأ عن جدارة المرتبة الأولى فى العمارة العربية»... وقال عنه الفنان «رينوار»: أجمل جامع فى الشرق كله، بمساحته العظيمة، وأسلوب بنائه من أرقى الأساليب المعمارية... وقال عنه المؤرخ بن تغرى بردى: «إن هذه المدرسة من عجائب الدنيا»!

المراجع :

١- حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٤

٢- محمود أحمد ، موجز تاريخ جوامع أحمد بن طولون والسلطان حسن والمؤيد ، القاهرة ، ١٩٣٩

٣- سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٧١ - ١٩٨٤

4- Wiet, G. a Hautecoeur : Les Mosquées du Caire, 2 Vols, Leroux, Paris, 1932

المشهد الحسينى

حب آل البيت متأصل فى وجدان المصريين ، جيلاً بعد جيل ، منذ أن طابت مصر لهم مستقراً ومقاماً ، ونشعر بزيارتهم بقدر سعادتنا بجوارهم .. وأذكر عندما كانت والدتى - رحمها الله - تصحبنى وإخوتى ، فى عهد الطفولة ، لزيارة مقامات أهل البيت .. أهل الله .. وتدعو لنا فى حضرتهم وتمسح بيدها على المقصورة ثم تمسحها على رؤوسنا ووجوهنا التماساً لبركتهم ، وعندما تفتح العمر وتتبعت سيرتهم العطرة ، أصبح التردد عليهم عادة ..

ومسجد مولانا الإمام الحسين ليس المركز الروحى للقاهرة فحسب - كما يقول الأديب الكبير جمال الغيطانى - ولكنه المركز الروحى للوادى كله .. وفى أى وقت ، تجد جموع الناس تحث الخطى نحو المشهد الحسينى يحصرها الشوق قلوبهم ولا ينقطع تدافعهم .. داخل المقام عالم منفصل من الصفاء واللطف الآسر ، بسطاء طيبون أتوا من كل صوب يتشبثون بالمقصورة يرشقونها بقبلاتهم ، والبعض يقبل العتبات الرخامية لأبواب الضريح ! .. وتتباين الأصوات ما بين المناجاة فى همس والدعاء المسموع .. وتتضوع فى أرجاء المكان الطاهر روائح البخور والعطور .. وتضىء أصوات الذاكرين .. والكل يرجو « المدد » من سيدنا الحسين وبركته !

وكلما وقفت أمام الضريح ، لابد أن أتذكر عقيلة بنى هاشم « ستنا زينب » وقصتها الرائعة الدامية فى المحنة التى لحقت بآل البيت فى كربلاء .. وذهابها إلى مسجد رسول رب العالمين بالمدينة المنورة ، لتمسك بعارضة بابه وهى تبكى قائلة : « ياجداه .. إنى ناعية إليك أخى الحسين » .. وتتوجه إلى مصر ومعها فاطمة وسكينة إبنتا الحسين - رضى الله عنهم أجمعين - ويقول عنها أحد شهود استقبالها الحافل « رأيت لها وجه كشقة القمر » ! .. وتستقر فى « الحمراء القصوى » دار الوالى مسلمة بن مخلد ، عابدة زاهدة ترشد الناس إلى أمور دينهم حتى إنتقالها إلى رحاب الله ، ويرحل « القمر » إلى السماء ، لكن نوره لم يرحل عن القاهرة أبداً !

وتتزاحم الذكريات أمام ضريح مولانا سيد الشهداء .. فأتذكر « كمال » بطل ثلاثية أديبنا العالمى « نجيب محفوظ » .. فكان لمولانا الحسين منزلة خاصة فى قلب كمال وكم وقف حيال الضريح حالماً مفكراً .. « يود لو ينفذ ببصره إلى الأعماق ليطلع على الوجه الجميل الذى أكدت له أمه أنه قاوم غير الدهر ، بسره الإلهى ، فاحتفظ بنضارته ورونقه حتى يضىء ظلمة المثوى بنور غرته ، ولما لم يجد إلى تحقيق أمنيته سبيلا ، قنع بمناجاته فى وقفات طويلة ، مفصحاً عن حبه ، شاكياً إليه متاعبه .. ثم خاتماً مناجاته عادة

بالتوسل إليه أن يكرمه بالزيارة فى منامه « !

ثم والدته « الست أمينه » التى يخفق قلبها دائماً بذكر الحسين ، وتهيم به على البعد وهو منها قريب .. ورحلتى من مجرد التفكير فى مخالفة زوجها فى غيابه خلال سفره إلى بورسعيد ، وياسين (الذى شغلته أمور الدنيا عن زيارة الحسين !) حرضها على الخروج من نفسها مرة واحدة .. فتدعو الله أن يسامحه ! .. ولكن قلبها يستجيب للنداء ، حيث بدت زيارة الحسين عذراً قوياً له صفة القداسة ! .. ولما وطئت قدماها أرض المسجد « شعرت بأن بدنها يذوب رقة وعطفاً وحناناً ، وأنها تستحيل روحاً طائراً يرفرف بجناحيه فى سماء يسطع جنباتها عرف النبوة والوحى ، فاغرورقت عيناها بالدمع .. وراحت تلتهم المكان بأعين متطلعة ، جدرانه وسقفه وعمده وأبسطته وتحفه ومنبره ومحاريبه ... وتيار الزائرات يدفعها ، وتود لو تتريث لتتملى مزاهر السعادة لولا شدة الزحام ... إرتوت من المنهل العذب ولكنها لم تطفىء ظمأها .. لقد هاج الطواف حنينها فتفجرت عيونه وسال وزخر ، ولم تزل تنشد المزيد من القرب والإبتهاج ، ولما وجدت نفسها مرغمة على مغادرة المسجد ، إنتزعت نفسها منه إنتزاعاً ، وأودعته قلبها وهى توليه ظهرها ، ثم مضت حسرى يعذبها شعورها بأنها تودعه الوداع الأخير » !

موقع المشهد :

داخل سور القاهرة الفاطمية ، كان القصر الكبير الشرقى يشغل الجزء الشمالى الشرقى للمدينة ، وكانت مساحته ١٧ فداناً ، خُمس مساحة القاهرة فى ذلك العصر ، وكان من العظمة والأبهة مما أحار المؤرخين والرحالة فى وصفه .. ويشغل موقعه اليوم : المشهد الحسينى وخان الخليلى فى الجنوب ، وخانقاه بيبرس الجاشنكير والجامع الأقمر فى الشمال .. ويقول عنه المؤرخ العلامة المقريزى : « هو سكن الخليفة ومحل حرمه وموضع جلوسه لدخول العساكر وأهل الدولة وفيه الدواوين وبيت المال وخزائن السلاح ، وهو الذى أسسه القائد جوهر وزاد فيه الخلفاء من بعد .

وعندما حدثنا مؤرخنا عن « باب قصر الشوك » الذى أدرك قطعة من أحد جانبيه ، قال : « كانت تجاه الحمام التى عرفت بحمام الأيدمرى ، ثم قيل لها فى زماننا حمام يونس ، بجوار « خزانة البنود » وقد عمل فى هذا الباب زقاق يسلك منه إلى المارستان العتيق وقصر الشوك ودرب السلامى ، ويسلك من باب قصر الشوك إلى باب الديلم وموضعه الآن « المشهد الحسينى » وكان فيما بين قصر الشوك وباب الديلم رحبة عظيمة تعرف برحبة قصر الشوك ، أولها من رحبة خزانة البنود وآخرها حيث المشهد الحسينى » ..

ويشير د. عبد الرحمن زكى إلى أن المشهد الحسينى « يقوم فوق الركن الجنوبى الشرقى للقصر الفاطمى الكبير الذى إندثر ، فبعد زوال الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية ، شيد الناس فى مكان هذه الرحبة الفسيحة كثيراً من المبانى التى إخترقتها الحارات والعطف والدروب .

الضيقة ، وأغلقت المنافذ أمام الأزهر »

ويقول علي باشا مبارك - الذي وضع تصميم التوسعة الجديدة للمسجد - في عهد الخديو إسماعيل : « ثم إن هذا الجامع عند حفر أساسات أساطينه في هذه العمارة الأخيرة ، وجدت به أبنية كثيرة مقببة بهيئة قبور ، فلا بد أن ذلك من قبور الفاطميين ، فإنها كانت في محل خان الخليلي ممتدة إلى هذا المشهد »

وكان الخليفة المعز لدين الله الفاطمي فور وصوله إلى القاهرة ، أمر ببناء تربة في الركن الجنوبي الغربي للقصر ، ليدفن فيها توابيت آبائه التي أمر بإحضارها من المغرب (عرفت فيما بعد بتربة الزعفران والتربة المعزية) وجعلها مدفناً للخلفاء وذريتهم ، ولما توفي دفن بها سنة ٣٦٥هـ .

ويشير المقريزي إلى أن نقل الرأس الشريف من عسقلان إلى القاهرة ، كان في الثامن من جمادى الآخرة سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م . وعند وصوله حمل في سرداب إلى قصر الزمرد ثم دفن في قبة المشهد الذي أنشئ خصيصاً له سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م

ويقول المؤرخ «ابن تغري بردي» لما ولي السلطان صلاح الدين الأيوبي مُلك مصر سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م أنشأ مدارس للمذاهب الأربعة ، مثل مدرسة بجوار هذا المشهد غلب عليها اسم المشهد وقرر بها مدرسين وعهد بالإشراف عليها إلى الفقيه البهائي الدمشقي . فكان يجلس للتدريس عند المحراب الذي خلفه الضريح ..

ويذهب العالم د. حسن عبد الوهاب إلى أن «المسجد الحالي » قد حل محل تلك المدرسة لوجود الضريح خلف جدار المحراب ».

عمارة المسجد :

لم يبق من المشهد القديم إلا الباب المعروف بـ « الباب الأخضر » .. والمنارة التي تعلوه فهي من عمل : أبي القاسم يحيى السكري المعروف بالزرزور وأتمها إبنه محمد سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م ، وهي حافلة بالزخارف الجصية ، وعلى قاعدتها المربعة لوحتان تذكاريتان تخلدان عمل المنشئ وولده .. وممن عنى بالمشهد وزاد فيه العلامة معين الدين بن شيخ الشيوخ وزير الصالح نجم الدين ، وألحق به ايواناً وبيوتاً للفقهاء ، كما قام القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني بترميمه وتوسعته وألحق به ساقية وميضأة ووقف عليه أراضي خارج الحسينية عام ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م ..

أيضاً عنى بالمشهد وأصلحه وزخرفه والي مصر في عهد الدولة العثمانية : محمد باشا الشريف سنة ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م .. ومن مآثر الأمير : حسن كتخدا عزبان الجلفي (توفي في ٩ شوال ١١٢٤هـ) التي ذكرها الجبرتي أنه « وسع المشهد الحسيني واشترى عدة أماكن بماله وأضافها إليه ووسعه وصنع له تابوتاً من أبنوس مطعماً بالصدف مضبباً بالفضة وجعل عليه ستراً من الحرير المزركش » ..

وفى سنة ١١٧٥هـ/ ١٧٦١ جدد الأمير الجليل «عبد الرحمن كتخدا» عمارته، فيقول الجبرتى بعد أن تحدث عن العمائر التى شيدها الأمير وتجديده للجامع الأزهر «وبنى المشهد الحسينى على هذه الصفة وعمل به صهريجًا وحنفية بفسحة ولواوين فى غاية الحُسن ورتب له ترتيب»..

وفى سنة ١٢٠٤هـ/ ١٧٨٩ قام السيد على أبو الأنوار بتجديده وتوسعته وأثبت تاريخ عمارته بالباب البحرى للقبة. وشرع عباس حلمى الأول فى توسعة المسجد، فاشترى الأملاك المحيطة به وهدمها، لكن المنية لم تسعفه من أجل إنجاز هذا المشروع «ومن اشترى الأرض وصفى بك العنانى وعمرها لنفسه رباعًا وفنادق»!

وفى سنة ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢ أمر الخديو إسماعيل باشا بتجديد المسجد وتوسعته، وتولى على باشا مبارك تصميم المشروع الذى روعى فيه ترك القبة على حالها فلم يتناولها التجديد، ويقول: «.. وندبنى لعمل رسم للجامع يكون به وافيًا بمقصده الحسن، فبذلت الهمة وعملت الرسم اللائق بعظم شأنه، بحيث لو وضع عليه لكان مبرأ من العيوب مع الاتساع العظيم داخلاً وخارجًا، إذ جعلته منفصلاً من كل جهة من المساكن بشوارع وميادين رحبة، وجعلت شكله قائم الزوايا... وجعلت للضريح بابًا إلى الجامع وبابًا إلى الصحن وبابًا إلى شارع الباب الأخضر لزيارة النساء، بعلت سعة الشارع فى غربيه وشرقيه نحو ثلاثين مترًا وفى بحريه نحو أربعين مترًا» وقام بتنفيذ المشروع «راتب باشا» ناظر الأوقاف، وأتمه فى سنة ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣، ولم يلتزم بالرسم الموضوع، فجاء البناء غير قائم الزوايا وأضلاعه غير متساوية، فكان موضع نقد على باشا مبارك.. وشيدت المنارة السامقة الرشيقة على الطراز العثمانى سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨ ونقل إليه منبرًا جميلاً كان فى جامع الأمير أزبك بن ططخ (كان موقعه بمدخل شارع الموسكى وهدم عام ١٨٦٨ عند الشروع فى فتح شارع محمد على) كما أمر إسماعيل باشا بشراء الأعمدة الرخامية من استانبول على نفقته الخاصة.

فى سنة ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥ قام المغربى «عبد الواحد التازى» بكسوة المحراب بالقاشانى، ونقش عليه آيات من القرآن ثم ما نصه: «اللهم كن برحمتك خير مجازى لمنشئه عبد الواحد التازى».

وفى سنة ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨ أمر الخديو عباس حلمى الثانى بتجديد نقوش القبة وفتح نوافذ جديدة بها، مع المحافظة على نصوص الكتابات التاريخية، وفى عهد الملك فاروق، أصلحت أرضية القبة وأخرج التابوت الخشبى لإصلاحه، والذى ظل محتجبًا عن الأنظار نحو ثمانية قرون، ولم يسعد برؤياه سوى السيد «محمود الببلاوى» وسماحة السيد «محمد الببلاوى» نقيب الأشراف، والسيد محمد عرفه وكيل مشيخة المسجد الحسينى، ويقول د. حسن عبد الوهاب:

«كانت فرصة سعيدة تلك التى أتاحها لى الملك الصالح فاروق الأول، فقد أمر بأن يستبدل بالقاشانى الذى بأرضية المقصورة النحاسية رخام جميل، فكشفت أرضية القبة وأخليت، فانتهزت الفرصة يوم ١١ سبتمبر ١٩٣٩ وهبطت إلى أسفل المقصورة ومعى الأستاذ محمد عرفه، فبهرتنى صناعة التابوت، كما أحزنتنى الحالة التى هو عليها، فأخذت له فى مكانه صورًا فوتوغرافية، ورفعتها مع تقريرى

إلى لجنة حفظ الآثار العربية ، ثم أخرجته بعد الاتفاق مع وزارة الأوقاف وأصلحته إدارة حفظ الآثار العربية وأعادته إلى محره الفنى ، ثم أودعته دار الآثار العربية فى ٢٢ يناير ١٩٤٥ » .. ومن المرجح أن السلطان صلاح الدين الأيوبى هو الذى أمر بصنعه ، فلا أثر عليه لنصوص تاريخية ، فقط زخارف متنوعة رائعة وآيات قرآنية مكتوبة بالخطين الكوفى والنسخ ، منها : « بسم الله الرحمن الرحيم رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد » « إنما يريد الله أن يذهب عنكم الرجس أهل البيت » « لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير ، ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا » « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ... »

فى عام ١٩٦٣ ، أمر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بتجديد وزيادة مساحته ، فبلغت مساحة الصحن ٣٣٤٠ متراً مربعاً ، وتم تعديل الجوانب المشطورة المطلة على الميدان ، فالواجهة القديمة لم تكن مستقيمة ، فأضيف إليه مثلث فى الطرف الجنوبى الشرقى مساحته ٣٥ متراً مربعاً ، وأزيلت المبانى القديمة التى كانت تحجب المسجد عن الميدان ، وشيدت واجهة جديدة ، كما أنشئت مكتبة عامرة مساحتها ١٤٤ متراً مربعاً فى الجهة الشرقية بامتداد القبة ومصلى السيدات .

حجرة الآثار النبوية :

فى شهر ربيع الأول عام ١٣١١هـ / ١٨٩٣ ، أمر الخديو عباس حلمى الثانى بتخصيص غرفة للمخلفات النبوية بالمشهد الحسينى ، وهى تجاور القبة من الجهة الجنوبية ، ويتوصل إليها من بابين أحدهما فى جدارها الغربى والآخر فى جدارها البحرى .. وتضم قطعة من قميصه الشريف ، ومكحلة ومرودين ، وجزء من عصاته وشعرتين من اللحية الشريفة ، ومصحفان كريمان بالخط الكوفى ينسبان إلى الخليفة عثمان بن عفان والإمام على بن أبى طالب .. وهذه الآثار النبوية كانت محفوظة برباط الآثار بمنطقة أثر النبى ، وقد وصفها الرحالة « ابن بطوطة » عام ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م ، وقد بقيت فى هذا المكان ، إلى أن استصدر السلطان الغورى فتوى بنقلها إلى قبته عقب تمام بناءها سنة ٩١٠هـ / ١٥٠٤م ، ثم نقلت من قبة الغورى إلى مشهد السيدة زينب عام ١٢٧٥هـ / ١٨٥٨ ثم نقلت إلى القلعة ، إلى أن أمر بنقلها الخديو توفيق إلى المشهد الحسينى ، فنقلت إلى سراى عابدين وأمر بأن تحفظ فى صندوق من الديباج الأخضر ، مطرزة بسلوك من الفضة المذهبة ، ثم احتفل بنقلها إلى المشهد الحسينى احتفالاً فخماً مهيباً ، فى يوم الخميس ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٥هـ / ١٨٨٨ وقد سار خلفها الوزراء والعلماء على أقدامهم إلى أن وصلوا بها إلى مسجد مولانا الحسين .

الكسوة الشريفة :

كانت الكسوة الشريفة - كما يشير مؤرخنا الجبرتى - تنزل من القلعة فى العاشر من شوال كل عام ، ويشهد بها فى موكب حافل إلى المشهد الحسينى ، حيث يتم تجهيزها ، وفى اليوم

السابع عشر منه موعد « دوران المحمل » تخرج من المشهد بموكب حافل مشهود أيضاً ..
ويقول على باشا مبارك « في شوال تحمل إليه كسوة الكعبة الشريفة بموكب ، فتخاط فيه
وتحمل منه بموكب إلى غير ذلك من العوائد الجليلة التي تعمل فيه ، ولم يزل هذا المشهد من وقت
إنشائه عامراً مجللاً محتفلاً به ولا يزال كذلك إلى ما شاء الله تعالى » .. وكان يذكره بـ
« الحرم المصري والمشهد الحسيني المتفرد بالمزايا السنية والأنوار الحسية والمعنوية » !

يقصر عنه الواصفون !

كان المشهد الحسيني هو أول ما ذكره الرحالة « ابن جبير » في وصفه للقاهرة ،
خلال رحلته من بلاد الأندلس قاصداً الحج سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م ، في عصر السلطان الناصر
صلاح الدين الأيوبي ، فقال :

« أول ما نبدأ بذكره منها الآثار والمشاهد المباركة التي ببركتها يمسكها الله عز وجل ،
فمن ذلك المشهد العظيم الشأن الذي بمدينة القاهرة ، حيث رأس الحسين بن علي بن أبي
طالب - رضي الله عنهما - وهو في تابوت فضة مدفون تحت الأرض ، قد بني عليه بنيان حفيل يقصر
الوصف عنه ولا يحيط الإدراك به ، مجلل بأنواع الديباج محفوف بأمثال العمد الكبار شمعاً أبيض
ومنه ما هو دون ذلك ، قد وضع أكثرها في أتوار فضة خالصة ومنها مذهبة ، وعلقت عليه قناديل
فضة ، وحف أعلاه كله بأمثال التفافيح ذهباً في مصنع شبيه الروضة ، يقيد الأبصار حسناً
وجمالاً ، فيه من أنواع الرخام المجزع الغريب الصنعة البديع الترصيع ما لا يتخيله المتخيلون ،
ولا يلحق أدنى وصفه الواصفون ، والمدخل إلى هذه الروضة على مسجد على مثالها في التأنق
والغرابة ، حيطانه كلها رخام على الصفة المذكورة ، وعن يمين الروضة وشمالها بيتان من
كليهما المدخل إليها ، وهما أيضاً على تلك الصفة بعينها ، والأستار البديعة الصنعة من
الديباج معلقة على الجميع ، ومن أعجب ما شاهدناه في دخولنا إلى هذا المسجد المبارك حجر
موضوع في الجدار الذي يستقبله الداخل ، شديد السواد والبصيص يصف الأشخاص كلها
كأنه المرآة الهندية الحديثة الصقل ، وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك وإحداقهم
به وانكبابهم عليه وتمسحهم بالكسوة التي عليه وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين متوسلين
إلى الله سبحانه ببركة التربة المقدسة ومتضرعين ، ما يذيب الأكباد ويصدع الجماد ، والأمر
فيه أعظم ومرأى الحال أهول ، نفعنا الله ببركة ذلك المشهد الكريم ، وإنما وقع الإلماع بنبذة
من صفته مستدلاً على ما وراء ذلك ، إذ لا ينبغي لعاقل أن يتصدى لوصفه لأنه يقف موقف
التقصير والعجز ، وبالجملة فما أظن في الوجود كله مصنعاً أحفل منه ولا مرأى من البناء أعجب
ولا أبدع ، قدس الله العضو الكريم الذي فيه بمنه وكرمه » .

شارع المشهد الحسيني :

وإذا انتهينا من زيارة المشهد الشريف ، وخرجنا من الباب الغربي للجامع ، ستلتقي عيوننا بواجهة سبيل « أحمد باشا رفعت » شقيق الخديو إسماعيل ، شيد عام ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤ بشارع المشهد الحسيني « ويعلوه كتاب عين به مدرسين لتعليم الأطفال العلوم الحديثة كما في المدارس الملكية » .. ويعد من الأسبلة النادرة نظراً لتفرد تصميمه ، فالمسقط الأفقي لحجرة السبيل وحجرة الكتاب ، عبارة عن مستطيل واجهته الجنوبية الشرقية « مقعرة » مستديرة للداخل ، وسقف حجرة السبيل من الخشب المزدان بزخارف نباتية داخل إطار بيضاوي ، وواجهة السبيل مكسوة بالرخام الفاخر بنقوش نباتية من طراز الباروك والركوكو ، ويعلو الباب الرئيسي ساعة خشبية كبيرة .

خان الخليلي :

مجموعة من المباني القديمة والحديثة ، نشأت وامتدت في أزمنة مختلفة وكونت شوارع وأزقة متفرعة ، أنشأه الأمير « جهاركس الخليلي » أمير آخور الملك الظاهر برقوق في موقع « تربة الزعفران » .. وقد أوقف هذا الخان على عمل خبز يفرق على فقراء مكة المكرمة ، لكل فقير في اليوم رغيفان ، في سنة ٩١٧هـ/ ١٥١١م آلت ملكية الخان إلى السلطان الغوري الذي أمر بهدمه وإعادة بنائه وأنشأ فيه حواصل وحوانيت و « باب البادستان » الذي يعلوه نقش نصه : « أمر بإنشاء هذا المكان المبارك السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري عز نصره » .. ومن المعالم التي ذكرها علي باشا مبارك بشارع خان الخليلي : زاويتا السلطان الغوري والسلطان العادل بوكالة الخياطين ، وزاوية السلطان جقمق وزاوية أحمد باشا جين وزاوية نصر الله الخطيب وزاوية الشيخ عطي ثم زاوية خليل أغا .

أما الوكالات فهي : وكالة البزرستان المخصصة لتجارة القطن ، ووكالة أحمد باشا جين لتجارة السجاد ووكالة خان السبيل للحرير والمنسوجات ، ووكالة السلحدار للسلع الواردة من بلاد الشام ، بالإضافة إلى أبواب الصاغة الكبرى ووكالة الجوهرجية وباب شارع القاصين المؤدي إلى حارة اليهود .. والنشاط التجاري الضخم لخان الخليلي ، وتأثيره في حياة القاهريين ، كان موضع إهتمام الرحالة والمؤرخين والباحثين الأوروبيين .

شارع أم الغلام :

تقول الروايات المتداولة أن الرأس الطاهر بعد أن احتز في كربلاء ، طار لمدة أربعين يوماً حتى إستقر في القاهرة ، في حجر إمرأة فقيرة تبيع الفاكهة ، وكان عطر يفوح من رأس سيد شباب أهل الجنة ، فخبأته وجاء جنود يبحثون عنه ، فقامت بجز رأس إبنها الغلام وقدمته إليهم على أنه الرأس الذي هبط عندها !

ويقول أديبنا الكبير جمال الغيطاني : « ومن الغريب أنه يوجد شق صغير في جدار الجزء المتبقي من المسجد الأصلي الذي بناه الفاطميون ، هذا الشق عطر الرائحة ، إذا وضعت اليد فيه

خرجت بعطر غريب رقيق ، وكم حملت يدى هذا العبق ، يقول الناس هنا أن هذا هو الموضع الذى
حط فيه الرأس الشريف بعد أن طاف أربعين يوماً من كربلاء مسجاً موحداً ! ».. ومن العالم الأثرية
بالشارع :

● **مسجد أيدمر البهلوان (أثر ٢٢) :**

ذكر المقريزي هذه المدرسة المنسوبة إلى الأمير سيف الدين بيدمر البدرى (٧٤٨هـ) أحد مماليك
السلطان الناصر باسم المدرسة البيدرية ، وقد حرف الاسم إلى الايدمرية ، وقال : « رحبة الأيدمر
بالقرب من باب قصر الشوك ، فيما بينه وبين المشهد الحسيني» وهذه المدرسة لا تزال باقية إلى اليوم ،
وتعرف بجامع البهلوان على رأس حارة الجعادية ، وهو مسجد أثرى صغير له قبة ، كما احتفظ بمحرابه
وشبابيكه الخشبية النادرة وله مئذنة مزخرفة ، وذكر على مبارك هذه المدرسة فقال انها عرفت بزاوية
اللبان ، نسبة إلى الحاج داود اللبان صاحب الحانوت المجاور لها !

● **مسجد آل ملك الجوكندار الناصر (أثر ٢٤) :**

الحاج آل ملك على ، كان نائب السلطنة فى مصر (٧٤٨هـ) ومن جملة أمراء الديار المصرية ، وكانت
له دار عظيمة بالقرب من الباب الأخضر ، إندثرت وزالت معالمها ، وتعرف هذه المدرسة اليوم بزاوية حالومة
وهو رجل مغربى طالح خدمته لهذه الزاوية فعرفت به ، وتاريخ إنشاءها عام ٧١٩هـ/١٢١٩م .

● **سبيل البازدار (أثر ٢٧) :**

كان هذا السبيل بشارع المشهد الحسينى ، ففى الجهة القبلية من المسجد كانت زاوية جددها
الأمير بشباى - رأس نوبه كبير - سنة ٨٠٥هـ وجعلها مدرسة ، وخلال القرن ١٩ جددها السيد
محمد البازدار وجعلها مسجداً وسبيلاً ، وقد خرب هذا المسجد وأزالت مصلحة التنظيم ما تبقى
منه : الواجهة البحرية وفتح باب المسجد وشباك السبيل .. والسبيل الملحق به من الاسبلة الأثرية
العثمانية ، وقد إضطرت لجنة حفظ الآثار العربية للمحافظة على نموذجه أن تنقله إلى موضعه الحالى
بدرب الفزازين المتفرع من شارع أم الغلام عام ١٩٣٥ .

● **سبيل إسماعيل مغلوى (أثر ٥٧) :**

شيد هذا السبيل بشارع المشهد الحسينى عام ١٠٦٨هـ / ١٦٥٧م ثم نقل إلى موضعه الحالى
بشارع أم الغلام .

● **سبيل أمين بن هيزع (أثر ٢٣) :** شيد عام ١٦٤٦م

● **مسجد ومدرسة السلطان اينال (أثر ٢٥) :** شيده السلطان اينال السيفى وألحق به
سبيل عام ٨٦٥هـ / ١٤٦٠م .. وفى شارع قصر الشوك ، شمال شارع أم الغلام ، يوجد مسجد محمد
مغلطاى الجمالى (أثر رقم ٢٦) الذى شيد عام ٧٣٠هـ/١٣٢٩م ، وبشارع القائد جوهر : قبة الأمير
أبو الغضنفر الفائزى (أثر رقم ٣) كما شيد الأمير أيضاً مشهد سيدى معاذ عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م .

● **مقهى الفيشاوى :** أشهر المقاهى بالقاهرة الإسلامية ، وتشير بعض الروايات إلى
أنه تأسس عام ١٧٧٢ ، وكم شهد - خاصة فى شهر رمضان - أجيال من رواد الأدب والفن
والصحافة توزعت أعمارهم على مقاعده العتيقة !

المراجع :

١- إبن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٤٢

٢- إبن جبير : تذكرة بالأخبار عن إتفاقات الأسفار ، تحقيق المستشرق : وليم رايت ، ليدن ، بريل ، ١٨٥٢

٣- الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، الجزء الثالث .

٤- جمال الغيطانى : ملامح القاهرة فى ألف سنة ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٩٧

٥- حسن عبدالوهاب : تاريخ المساجد الأثرية .

٦- على باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ، مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية ، ١٩٦٩ - ١٩٨٧

٧- كمال الدين سامح : العمارة الاسلامية فى مصر ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠

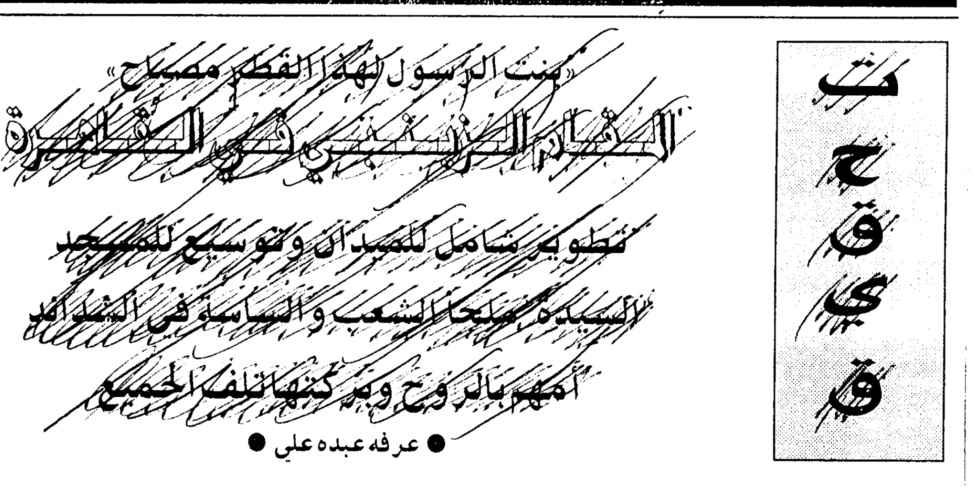
٨- محمود أحمد : العمارة الاسلامية ، القاهرة ، ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧

٩- المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بولاق ١٢٧٠هـ/١٨٥٣

10- Wiet, G. a Hautecoeur, L.: Les Mosques du Caire, 2 Vols, Leroux, Paris, 1932

مشهد السيدة زينب

تحقيق



● عرفه عبده علي ●

اجمع المؤرخون المسلمون والمستشرقون على ان «عقيلة بني هاشم» السيدة زينب بنت الامام علي بن ابي طالب، هي اول سيدة في الاسلام، قدر لها ان تلعب دوراً بارزاً على مسرح الاحداث السياسية، فقد اقترن اسمها في التاريخ الاسلامي والانساني بمأساة «كربلاء» احدى المعارك الحاسمة في تاريخ الاسلام عامة.

ويروي امير البيان «الجاحظ» عن ابي اسحق عن خزيمة الاسدي قال: «دخلنا الكوفة سنة احدى وستين. فصادفت منصرف علي بن الحسين بن علي رضوان الله عليهم اجمعين بالذرية من كربلاء الى ابن زياد بالكوفة.. ورأيت زينب بنت علي كرم الله وجهه ورضي عنهما، فلم ار والله خفرة انطق منها، كانما تنزل عن لسان امير المؤمنين».

وعقب وصول ركب البقية المباركة من اهل البيت الى المدينة، اتجهت السيدة زينب الى مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وامسكت ببابه وهي تقول باكية: «اني ناعية اليك اخي الحسين» وارادت عقيلة بني هاشم ان تقضي ما تبقى من عمرها الى جوار جدها خاتم المرسلين، ولكن الخليفة الاموي يزيد بن معاوية ابى عليها ذلك. فقد كان وجودها بالمدينة، كافياً لان يلهب مشاعر الناس للاخذ بثأر الحسين سيد الشهداء.

وبايعاز من «القيادة السياسية» طلب منها والي المدينة (عمرو بن سعيد الاشدق) ان تخرج منها الى حيث تشاء من ارض الله عدا الحرمين الشريفين!..

فأبت وعز عليها فراق المدينة ومثوى الأعظُم العطرات، فهوّنت عليها ابنة عمها زينب بنت عقيل بن ابي طالب، واوصتها بالرحيل، فتخيرت مصر، فهي كنانة الله في ارضه، والله تبارك وتعالى ذكرها بالخير في كتابه الكريم، كما سمعت بان اهلها يوقرون اهل البيت ويضعونهم في اسمى منزلة، ولما علمته ايضاً من ان جدها صلوات الله عليه وسلامه، قد اوصى بمصر خيراً قبيل انتقاله الى رحاب الله.

وصحبتها في رحلتها فاطمة وسكينة ابنتا الحسين رضي الله عنهما، وتشير معظم المراجع، الى دخول السيدة الطاهرة مصر في مستهل شهر شعبان سنة ٦١ هـ، الموافق ٢٦ نيسان (ابريل) سنة ٦٨١م، وما ان وصلت الى مدينة بلبيس (من اعمل محافظة الشرقية) عند قرية «العباسية» حتى كان في استقبالها «مسلمة بن مخلد الانصاري» والي مصر، وعبد الله بن الحرث ورهط من كبار الامراء والعلماء وجمع من عامة المسلمين، وبكى مسلمة. وبكت السيدة زينب وهي تقول: «هذا ما وعد الله وصدق المرسلون».. ويصل الموكب الى مدينة الفسطاط - اول عاصمة لمصر الاسلامية - ويخصص لها الوالي داره الشهيرة بـ«الحمراء القصوى» معززة مكرمة، وكانت فيها موضع اجلال المصريين وتقديرهم، فقال احد الشعراء:

> اخترت مصر فرحبت بك وانثنت
>
> تعتز من شرف على الكونين

وكانوا يغدون الى دارها ملتمسين بركاتها ودعواتها، مستمعين الى ما ترويه من احاديث نبوية شريفة وآداب رفيعة، كما كان ديوان الحكم يعقد في هذه الدار، والوالي والامراء يستفتونها من خلف حجاب في امور الدين والدنيا، فاشتهرت عند العامة من اهل مصر، حتى يومنا هذا، بلقب «رئيسة الديوان»..

والى رحاب الله، تنتقل سيدتنا الطاهرة، فرع دوحة النبوة المثمرة، المجاهدة المثابرة، يوم الاحد لاربع عشرة مضين من رجب سنة ٦٢هـ، الموافق ٢٧ آذار (مارس) سنة ٦٨٢م، فمهدت لها الارض في خلوتها من دار مسلمة حيث اقامت، واختارت ان تلقى فيها ربها الكريم..

وصار مقامها هذا، مزاراً مباركاً، يفد اليه المسلمون من كل حدب، يتبركون به ويسألون الله - تبارك وتعالى - فيه صالح الدعوات.

وضريح السيدة زينب كان في الجهة البحرية من دار مسلمة، مشرفاً على الخليج، الذي كان يخرج من النيل عند «فم الخليج» حالياً وينتهي في السويس، وتعاقبت السنون على هذه الدار، واندثر جزء كبير منها، الا ما كان من ضريح سيدتنا الطاهرة، فانه كان معظماً مقصوداً بالزيارة، وموضعاً لتقدير واجلال الخاصة والعامة، فكانوا يتعهدونه بالرعاية، واصلاح ما يتصدع من جدرانه، فأصبح من المشاهد المعدودة التي تناوب خدمتها اناس نذروا انفسهم لذلك..

وفي عصر الدولة الطولونية، كان المشهد الزينبي احد مشاهد آل البيت التي امر «احمد بن طولون» بتجديدها وعمارتها.

وفي عصر الدولة الفاطمية، كان الخليفة «ابو تميم معد نزار بن المعز لدين الله» اول من شيد عليه بناءً جليلاً عام ٣٦٩هـ، اما الحاكم بامر الله فقد

اختص ضريح الطاهرة بأوفر نصيب من الاوقاف.

وظل هذا المشهد موضع عناية جميع الدول التي تعاقبت الحكم، وتوالى على خدمته نجوم زاهرة من اهل العلم والفضل، من اجلّهم قدراً، العارف بالله محمد بن ابي المجد القرشي الحسيني الشهير بسيدي محمد العتريس، وهو شقيق سيدي ابراهيم الدسوقي - رضي الله عنهما - وضريحه بالجهة البحرية من المسجد.

في القرن السادس الهجري، وعلى وجه التحديد، في زمن الملك العادل سيف الدين ابي بكر بن ايوب، شهد هذا المسجد عمارة وتجديداً، برعاية الامير الشريف «فخر الدين اسماعيل بن ثعلب الجعفري» نقيب الاشراف الزينبيين، وصاحب البساتين التي عرفت بمنشاة ابن ثعلب، التي كانت تمتد من باب اللوق الى قنطرة البركة، ومؤسس المدرسة الشريفية التي تعرف الآن بجامع العربي في الفحامين، وظل على عمارته هذه، حتى سنة ٩٥٦هـ، عندما اعاد تشييده الامير «علي باشا الوزير» والي مصر في عهد السلطان العثماني، سليمان خان بن سليم الفاتح.

ويشير المؤرخ العلامة «الجبرتي» الى ان الامير «عبد الرحمن كتخدا القازدوغلي» اعاد تشييد مسجد السيدة زينب سنة ١١٧٠هـ /١٧٦٨م، وانشا به ساقية وحوضاً للطهارة، وجدد مقام سيدي محمد العتريس.

وفي كتابه «مشارق الانوار» قال الشيخ عبد الرحيم الاجهوري المقري: «.. قد حصل لي في سنة سبعين ومائة بعد الالف كرب شديد من كروب الزمان، فتوجهت الى مقام السيدة زينب، وانشدتها هذه القصيدة فانجلى عني الكرب ببركتها» ثم اورد قصيدة من ٤٣ بيتاً في مدح آل البيت، منها هذا المقطع:

شرفت مصرنا بكم آل طه
فهنيئاً لنا وحق الهناء
منكم بضعة الامام علي
سيف دين لمن به الاهتداء
خيرة الله افضل الرسل طراً
من له في يوم المعاد اللواء
زينب فضلها علينا عميم
وحماها من السقام شفاء
كعبة القاصدين كنز امان
وهي فينا اليتيمة العصماء
وهي بدر بلا خسوف وشمس
دون كسوف والبضعة الزهراء

في سنة ١٢١٠هـ، قبيل حملة نابوليون على مصر، تصدعت جدران المسجد، فانتدبت السلطة المملوكية «عثمان بك المرادي» لتولي الاشراف على اعادة بنائها، ثم اعمال التجديد إبان الحملة الفرنسية، وفي عام ١٢١٦هـ، استكمل «يوسف باشا الوزير» عمارة المسجد، وارخ لذلك بأبيات من الشعر، على لوح من الرخام، نصها:

نور بنت النبي زينب يعلو
مسجداً فيه قبرها والمزار
قد بناه الوزير صدر المعالي
يوسف وهو للعلي مختار
زاد اجلاله كما قلت وأرخ
مسجد مشرق به انوار ١٢١٦هـ

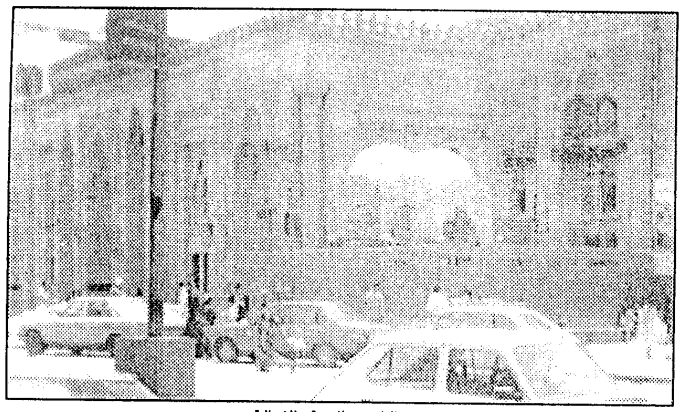
في عام ١٢٧٦هـ، اجريت بعض التجديدات للمسجد، ولضريح سيدي العتريس، وكتب على باب ضريح الطاهرة هذا البيت:

يا زائريها قفوا بالباب وابتهلوا
بنت الرسول لهذا القطر مصباح

وفي عهد الخديوي توفيق، شهد مسجد السيدة زينب تجديدات وعمارة شاملة، ما زالت آثارها واضحة في مواضع كثيرة، حتى يومنا هذا، فتطالعنا لوحة تذكارية كبيرة، من الرخام الازرق، تعلو المحراب القديم، نصها:

«امر بانشاء هذا الجامع الشريف والمقام الزينبي خديوي مصر المفخم محمد توفيق وقد باشر العمل واتمه محمد زكي باشا مدير الاوقاف سنة ١٣٠٢» تحتها لوحة رخامية اخرى: «قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينّك قبلة ترضاها».. وعلى مداخل القبة التي تعلو مقام السيدة زينب، نقرأ الابيات التالية:

قف توسل بباب بنت علي
بخضوع وسل اله السماء
تحظ بالعز والقبول وارخ
باب اخت الحسين باب العلاء
رفعوا لزينب بنت طه قبة
علياء محكمة البناء مشيدة
نور القبول يقول في تاريخها
باب الرضا والعدل باب السيدة


الواجهتين الغربية والشمالية

وتحت القبة تتدلى ثريا ضخمة، وعلى الجدران الداخلية للمقام، فوق الابواب والنوافذ، كتابات داخل شريط اخضر بخط بارز تتضمن آية الكرسي وسورة الاخلاص ثم.. «كتبه عبد الكريم المولوي تحت نظر محمد زكي باشا مدير الاوقاف المصرية في عهد صاحب الدولة خديوي مصر الافخم محمد توفيق باشا».. وحاجز من الارابيسك والستائر الخضراء، يفصل بين الرجال والنساء من الزائرين، وعلى المقصورة الرائعة المصنوعة من الفضة الخالصة، التي اهديت لها عام ١٩٨٠، على الجانب الشرقي «.. ويجزيهم الله احسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب» وتحت هذه الآية، نقرأ: «.. تبكي اخاها وتندب، من دمه الشَعْر تخضب، والدمع كالغيث يسكب، وهي بغير رداء، والهفتا ياحسيناً، يا سيد الشهداء» «ورحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت انه حميد مجيد» وفي مواجهة الضريح من الجهة الجنوبية، تطالعنا من اعلى الآية: «الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة..» تحتها سورة الشمس، وعلى كل جانب ثلاث دوائر مكتوب بداخلها بالخط الكوفي «سيدتنا زينب عليها السلام».

في عام ١٩٤٠، قامت وزارة الاوقاف بعمل بعض التجديدات واضافة مساحة قدرها ١٧×٣٢ متراً مربعاً، لتصبح مساحة المسجد نحو ثلاثة آلاف من الامتار المربعة، وهذه المساحة التي ذكرتها، هي التي تفصل بين المسجد الاصلي والتوسعة الجديدة التي قدرت بنحو ٢٥٠٠ متراً مربعاً، التي اضافتها وزارة الاوقاف عام ١٩٦٩، لتتضاعف مساحة المسجد ويتصل بمسجد «الزعفراني» الواقع في الجهة



فتحي سرور رئيس مجلس الشعب المصري

الجنوبية تجاه شارع السد، وتتقدم المسجد من الواجهة الشمالية: رحبتان بهما مدخلان رئيسيان، يفصل بينهما مستطيل تعلوه «شخشيخة» والمساحة الاصلية للمسجد تتكون من سبعة اروقة موازية للقبلة القديمة، يتوسطها صحن مربع مغطى بقبة، والبوائك مشيدة على ٧٢ عموداً رخامياً، و٢٥ من الاعمدة المشيدة بأحجار ضخمة يكسو قواعدها رخام باللونين العاجي والاسود، والاضافة الجديدة يتوسطها المحراب الجديد، وهو اقل ثراء في نقوشه من المحراب القديم، تعلوه لوحة رخامية تتضمن الأية «الله نور السموات والارض» وتحتها «فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب» والى يمينه منبر خشبي كبير رائع الصنع، والى يمين المنبر باب المكتبة العامة، التي تضم عشرات الالوف من الكتب وقسماً للمخطوطات النادرة، الحقت بها قاعة فسيحة للمطالعة.

والى الجنوب من صحن المسجد، تتربع «دكة المؤذنين» او دكة التبليغ، يُصعد اليها بسلم خشبي، شيدت على ثمانية اعمدة خشبية، تعلوها عقود وسقف مزخرف.

ولنقتبس من سيرة سليلة اكرم البيوتات، سراجاً منيراً، فخر النساء.. ابنة اشرف نساء الارض، فاطمة الزهراء، صغرى بنات امام المتقين وخاتم المرسلين واحبهن اليه، وابنة من كرم الله وجهه، علي بن ابي طالب، فتى الاسلام، ومثال التقوى والتضحية والشجاعة والنبل ومكارم الاخلاق والعلم وقوة البيان.. السيدة الطاهرة، التي تسابقت الفضائل بين يديها، والتي غلبت القادة، فراعهم منها انها احبطت مكائدهم السياسية افسدت تدبيرهم، وهي العزلاء الا من قوة الحق وصفو الايمان.

مسجد السيدة
واثره في الحياة العامة بالمنطقة

كلما تجولت بحي السيدة زينب، تذكرت اديبنا الكبير «يحيى حقي» حيث ولد وعاش حيناً من الدهر، ورائعته «قنديل ام هاشم» فأبدع لوحة تفيض بالحركة والحياة، في عبارات هادئة، رقيقة، انيقة، ودقة ملاحظات.. كأنما كان يستقرئ اعماق من حوله، حتى احاط بأكثر الخصائص المادية والروحية لهذا الحي الشعبي الاشهر:

«.. ما هذا الظلم الخفي الذي يشكون منه، وما هذا العبء الذي يجثم على الصدور جميعها؟.. ومع ذلك فعلى الوجوه كلها نوع من الرضا والقناعة، وما اسهل ما ينسون!»

«ليس هنا قانون ومعيار وسعر، بل عرف وخاطر وفصال وزيادة في الكيل او طبة في الميزان، وقد يكون الكيل مدلساً، والميزان مغشوشاً، كله بالبركة..»!

عقب صلاة الجمعة بمسجد السيدة زينب، ترى البشر في موجات يتدافعون نحو ضريح الطاهرة، وتنتصب حلقات الذكر بصحن المسجد، والبعض قائم يصلي، وأخرين يتلون الكتاب، او يقرأون «دلائل الخيرات».. وصفوف تستند الى الجدران، والبعض يتوسد الارض، اما خارج المسجد، فترى عجباً، خليط من رجال ونساء واطفال، من مختلف الطبقات، لا تدري من ابن جاءوا!.. والجميع تشملهم «الست» ببركاتها!

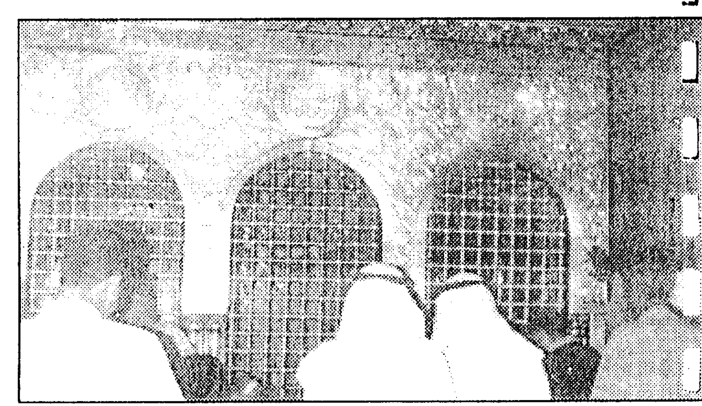
وبجوار مدخل النساء، رأيت جمعاً حاشداً على شيء ما.. لحظات.. ورأيت من يحاولون تخليص انفسهم من بين الاجساد المتلاحمة، واطفال يمرون بين غابة من السيقان.. وبيد كل منهم طبقاً يفيض ارزاً باللبن او فولاً نابتاً ورغيفاً او ارزاً مع قطع من اللحم المسلوق، والكل يتسابق لينال نصيبه من «النذر».. ولا اعرف كيف افاءت هذه الاواني الضخمة بحاجة الآلاف من الناس، ومنهم من كان يعود ثانية. قرابة الساعة وانا ارقب هذا المشهد.. والاواني تبدو لي كينابيع لا تنضب!.. وشعور عميق ببركة «الست» ولا شيء غيرها!

وتجدر الاشارة الى ان «محمد نجيب» اول رئيس للجمهورية، هو الوحيد الذي اعتلى منبر مسجد السيدة زينب، وخطب الجمعة حاثاً المصلين على «الالتفاف حول الثورة»!.. وكانت اشهر زيارات عبد الناصر للمسجد، تلك التي كانت في ليلة الاسراء والمعراج، عقب هزيمة يونيو ١٩٦٧!.. كما زاره السادات للمرة الاولى عام ١٩٧٧ عقب مظاهرات كانون الثاني (يناير) الشهيرة.

التقيت بضابط شرطة عبر لي عن حسن حظه وسعادته بالعمل في منطقة تضم ضريح السيدة الطاهرة ومسجدها العامر، وبالرغم من تزايد العبء الامني تجاه العشرات ممن يقصدون زيارتها يومياً، خصوصاً في يوم الجمعة، وتتضاعف الجهود الامنية خلال مولدها، حيث تصل الى الذروة في الليلة الختامية، لتوفير الامن لاكثر من مليون زائر، وبالنسبة الى الحالة الامنية في الايام العادية، اكد ان حي السيدة زينب هو اقل احياء القاهرة في معدلات الجريمة وتكاد تنعدم الانشطة المشبوهة فيه، ربما لاحساس قاطني الحي انهم يعيشون في رحاب «الطاهرة» وبركاتها تعم الجميع.. وتحدث عن ابرز الشخصيات العامة التي كانت او ما زالت ترتاد المشهد الزينبي، منهم السيدة جيهان السادات مع بعض ضيفاتها من الدول الاسلامية، وحسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية الاسبق، وكمال الدين حسين،



لوحة تذكارية من عهد الخديوي توفيق - اعلى المحراب



زوار الطاهرة

والمهندس سيد مرعي، وحسن التهامي، والمرحوم ممدوح سالم. وعبد العزيز كامل وزير الاوقاف الاسبق، والشيخ متولي الشعراوي، وبالطبع د. فتحي سرور، وبعض الوزراء واعضاء مجلس الشعب، السابقين والحاليين.

ومع بدء عملية تطوير ميدان السيدة زينب، انتقل باعة الكتب القديمة، ابرز سمات الميدان ومدخل شارع بور سعيد، في ما مضى، الى شارع مراسينة، وشارع «مراسينة» هذا يطلق عليه الآن شارع الشيخ عبد المجيد اللبان، وان ظل الاسم القديم - كالعادة - هو الاشهر، بيوت قديمة متهالكة وبعض الآثار الاسلامية المهملة، وبائعو الكتب على الجانبين، وبتركيز على الجانب الايسر بطول الشارع. تقدمت من احدهم، وكان لدهشتي يتحدث في «الفلسفة» مع صديق له، وبعد فراغه، قدم لي نفسه: «محمد جابر» ٤٨ سنة، واكثر من ربع قرن في هذا المجال، كان مزيجاً بين الهواية والمهنة، قرأ كثيراً في علوم التراث والادب والنقد وعلم الجمال، وعندما اشدت بحسن حديثه وسعة اطلاعه، قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي، تعلمت على ايدي مشايخ مشهود لهم بالعلم والصلاح، منهم الشيخ صالح الجعفري والشيخ محمد عبد الشافعي والشيخ عبد ربه سليمان»... سألته عن تأثير السيدة زينب في مهنته وحياته الخاصة، فقال: «انني اعتبر السيدة زينب امي بالروح، واتوجه اليها في كل شؤوني، وما لجأت اليها الا وفرّج الله كربتي.. وكل اهل البيت احياء في حياتهم البرزخية، وهم كأشعة الشمس في انعكاسها على الاشياء.. ولو ارتقت روحي الى اسمى درجات الثقافية، لرأيت الطاهرة. وكثير من اصدقائي المثقفين يعتبرونني درويشاً في حب السيدة.. غير ان بعض النفوس المعتمة لا ترى الحقائق الناصعة..»!

وعلى احد المقاهي الشعبية المنتشرة بالحي، التقيت بـ «فؤاد محمد محمود» سائق باحدى الشركات البترولية، تميزه سمات اولاد البلد واصالتهم، يتحدث عن السيدة الطاهرة بحب واجلال، فهي: «عند اهل العزم - ام العزائم - وهي عند اهل الجود والكرم «ام هاشم» وان الامام علي واخويها الحسن والحسين كانوا يسألونها رأيها فسميت «صاحبة الشورى» وكانت دارها مأوى لكل عاجز وضعيف فلقبت بـ «ام العواجز»..!

والملاحظ هنا، ان جميع المقاهي والمطاعم والمتاجر بأنواعها، تحمل اسماء مثل: السيدة، والطاهرة، وأم هاشم.. وعربات الكارو تحمل الزائرات من النساء والفتيات والاطفال، القادمين من الاحياء الشعبية المجاورة، والحمير والجياد الهزيلة تنوء بأحمالها، والوجوه تفيض بالبهجة والمرح!

خطوط الترام اصبحت تبعد عن ميدان السيدة زينب بنحو مائتي متر، وهي التي كانت تمر مباشرة امام المسجد، حتى منتصف السبعينات، وتجدر الاشارة الى ان اول خط ترام تم تسييره من ميدان السيدة زينب، بطول موقع الخليج المصري الذي تم ردمه عام ١٨٩٨ ليصبح شارع الخليج ثم شارع بور سعيد، الى ميدان الظاهر في حزيران (يونيو) عام ١٩٠٠.

ميدان السيدة زينب، يشهد عملية تطوير شاملة، وتمثلت المرحلة الاولى في ازالة سوق الفاكهة والملابس والادوات المنزلية في الساحة المواجهة للبوابة الغربية لمسجد السيدة، ثم اغلقت هذه المنطقة من شارع السد الشهير، واصبحت حرماً تابعاً للمسجد، يسع عشرة آلاف مصل، والتوسعة الجديدة يحدها جنوباً جدار وبوابة ضخمة، وشمالاً بوابة ضخمة متصلة بجدار به ثلاثة شبابيك مزدوجة، ينتهي الى جوار المدخل المخصص للنساء..

وقد افتتحت هذه التوسعة الجديدة - المرحلة الاولى - في ذكرى «غزوة بدر» ١٧ رمضان ١٤١٤ الموافق ٢٧ شباط (فبراير) ١٩٩٤.

مشهد عام للمقصورة من الباب الايمن للمقام

المراجع والمصادر :

١- علي أحمد شلبي : السيدة زينب - تاريخ حياتها ، وزارة الأوقاف ، القاهرة ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م

٢- سيد الشبلنجي : نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار ، المطبعة الأزهرية ، القاهرة ، ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م

٣- عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، مطبعة الأنوار المحمدية ، القاهرة ، ١٩٨٦

٤- كريستل كيسلر : عمارة الأضرحة في داخل مدينة القاهرة ، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ١٩٧٠

٥- محمد حمزة إسماعيل : عمائر القاهرة الدينية في العصر العثماني (٩٢٢-١٢١٢هـ / ١٥١٧-١٧٩٨م) القاهرة ، ١٩٩٠

فى روضة

السيدة نفيسة

عرفه عبده على

السيدة نفيسة بنت الامام الحسن الانور بن زيد بن الحسن بن الامام على بن طالب، ولدت بمكة المكرمة فى «ربيع الاول سنة ١٤٥هـ، نشأت فى بيت كريم واسرة طاهرة ، وكان والدها أعلم اهل عصره، وواليا على المدينة المنورة حفظت القران فى سن مبكرة، وعنيت بالتفسير والفقة وعلم الحديث ، واخذت عن اعلام اهل البيت وعلماء عصرها، وحجت ثلاثين مرة سيرا على قدميها ، تزوجت «إسحاق المؤتمن» بن الامام جعفر الصادق، وانجبت منه القاسم وام كلثوم.

رحلت «نفيسة العلم» مع زوجها الى مصر عام ١٩٣ هـ / ٨٠٩م واستقبلت بحفاوة تفوق الوصف من كل المصريين الذين اشتهروا بحبهم لآل البيت. وخصص لها والى مصر : عبيد الله بن السرى بن الحكم، داره بدرب السباع، وكان الناس يحتشدون ببابها يسألونها الدعاء والتفقه فى أمور دينهم .. فى يوم الجمعة ١٥ رمضان سنة ٢٠٨هـ / ٨٢٤م انتقلت الى رحمة الله .

دفنت السيدة نفيسة فى نفس الدار التى عاشت بها فى القاهرة، واول من بنى على قبرها هو والى مصر عبيد الله، وفى عام ٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م أمر الخليفة الفاطمى المنتصر بالله بتجديد المشهد، كما أمر الخليفة الحافظ لدين الله بتجديد القبة عام ٥٣٢هـ / ١١٣٨م، وفى سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م أمر السلطان قلاوون بإنشاء مسجد على ضريحها، وبان يتولى الخلفاء العباسيون بالقاهرة نظارة «المشهد النفيسى» .. فى سنة ١١٧٣هـ/١٧٦٠م قام الأمير «عبدالرحمن كتخدا» بتجديد الضريح والمسجد، وفى عام ١٣١٤هـ/١٨٩٢م تم اعادة بناء المسجد وتجديد الضريح، طبقا لما هو موضح باللوحة التذكارية أعلى المدخل الرئيسى «امر بانشاء هذا المسجد المبارك خديو مصر عباس حلمى الثانى الأفخم ادام الله ايامه سنة ١٣١٤ هـ»

مشهد السيدة نفيسه فى ذاكرة التاريخ :

حظى المشهد النفيسى بإهتمام كثير من مؤرخى الخطط والمزارات فقال عنه المقريزى :-

" لما توفيت السيده نفيسه – رضى الله عنها – دفنت فى منزلها وهو الموضع الذى به قبرها الآن ويعرف بخط درب السباع ودرب بزرب ، وأراد زوجها إسحاق بن جعفر الصادق أن يحملها ليدفنها بالمدينة فسأله أهل مصر أن يتركها ويدفنها عندهم لأجل البركة .

قيل : أنهم جمعوا له اثنى عشر ألف درهم فتركها مدفونه عندهم ، وقبرها أحد المواضع المعروفة بإجابة الدعاء بمصر ، وهى أربعة : سجن نبى الله يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام ، ومسجد موسى صلوات الله عليه ، وهو الذى بطره ، ومشهد السيده نفيسه رضى الله عنها ، والمخدع الذى على يسار المصلى فى قبلة مسجد الأقدام بالقرافه .

فهذه المواضع لم يزل المصريون ممن اصابته مصيبة أو لحقته فاقة أو جائحة يمضون إلى أحدها فيدعون الله تعالى فيستجاب لهم مجرب ذلك .

ويقال : أنها حفرت قبرها هذا بيدها وقرأت فيه مائة وتسعين ختمه : ثم قال :

وذكر غير واحد من علماء الأخبار بمصر : أن هذا قبر السيدة نفيسة (رضى الله عنها) بلا خلاف ، وقد زار قبرها من العلماء والصالحين خلق لايحصى عددهم . ويقال : أن أول من بنى على قبر السيدة نفيسه عبيد الله بن السرى بن الحكم أمير مصر ، ومكتوب فى اللوح الرخام الذى على باب ضريحها وهو الذى كان مصفحاً بالحديد بعد البسملة ما نصه : (نصر من الله وفتح قريب) لعبد الله ووليه معد أبى تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه المكرمين أمر بعمارة هذا الباب السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الأنام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين عضدالله به الدين وأمتع بطول بقائه المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته ، وشد عضده بولده الأجل الأفضل سيف الإمام جلال الإسلام شرف الأنام ناصر الدين خليل أمير المؤمنين ، زاد الله فى علائه وأمتع المؤمنين بطول بقائه فى شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثمانين وأربعمائه .

" والقبة التى على الضريح جددها الخليفة الحافظ لدين الله فى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وأمر بعمل الرخام الذى بالمحراب ".

وفى " الخطط التوفيقية " قال " على باشا مبارك " :-

" هذا الجامع خارج خط الخليفة داخل البوابة الكبيرة الموصلة الى القرافة الصغرى بقرب العيون ، التى عليها مجرى القلعة عن شمال الذاهب إلى القرافة " .

وحدده فى كتاب المزارات وغيره بأنه فى درب السباع بين القطائع وأرض العسكر التى عرفت فيما بعد بكوم الجارح .

قال المقريزى : الجامع بالمشهد النفيسى . قال ابن المتوج : هذا الجامع أمر بإنشائه الملك الناصر محمد بن قلاوون فعمر فى شهور سنة أربع عشرة وسبعمائه ، وولى خطابته علاء الدين محمد بن

نصر الله بن الجوهرى شاهد الخزانه السلطانية وأول خطبته فيه يوم الجمعة الثامن من صفر السنة المذكورة ، وحضر أمير المؤمنين المستكفى بالله أبو الربيع سليمان وولده وابن عمه والأمير كهرداش متولى شد العمائر السلطانية وعمارة هذا الجامع ورواقاته والفسقية المستجدة .

وقيل : ان جميع المصروف على هذا الجامع من حاصل المشهد النفيسى ، وما يدخل إليه من النذور ومن الفتوح . قاله المقريزى فى ذكر الجوامع .

ويدخل إلى هذا الجامع من طرقة طويلة مفروشة بالحجر المنحوت بعد النزول من نحو ثلاثة سلالم ، وعن يمين الداخل فى تلك الطرقة مطهرة الجامع من ميضأة ومرافق ومصنع وبجوارها مكتب جدد فى زمن نظارة المرحوم أدهم باشا ، وعن اليمين والشمال عدة خلاو للصوفية وفى نهايتها بابان : أحدهما منه إلى الضريح ومن الآخر إلى الجامع .

والباب الذى إلى الضريح يدخل منه إلى طرقة مفروشة بالرخام الأبيض بها نحو الأربعة سلالم وزيادة ، وعن شمال الداخل منها سبيل وجهة من الرخام عليه كيزان من النحاس الاصفر ، وعن اليمين بقرب نهايتها المشهد الشريف له باب من الرخام والقيشانى ويكتنفه عمودان صغيران من حجر السماق وحائط القبة من الأسفل مكسو بالرخام والقيشانى نحو ثلثى قامة ، وفى أعلاها آيات قرآنية وفيها قبلة بالرخام والقيشانى وأخرى من الخشب ، وعلى البرزخ الشريف مقصورة من النحاس الأصفر المتين وبجوار باب المشهد من الخارج إيوان يجلس عليه القراء فى ليلة الحضرة فيه قبلة وباب صغير إلى الضريح لايفتح إلا فى أيام المولد وشباك مطل على مدافن السادة العباسية التى دفن بها فى سنة سبع وعشرين وتسعمائة كما فى ابن اياس الخليفة يعقوب العباسى رحمة الله تعالى ..

وتجاه الباب الكبير باب للمسجد يصعد إليه بسلالم من الرخام وعليه من الخشب المصفح بالنحاس وعلى وجهة مما يلى الجامع البيتان المتقدمان من كلام النفراوى :-

عرش الحقائق مهبط الأسرار الخ ..

فلعلهما نقلا من باب الضريح إلى باب الجامع ، وتحت البيتين تاريخ سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف وهو تاريخ تتميم عمارة أجراها محب الخيرات المرحوم عباس باشا رحمة الله تعالى . فإنه جدد المقصورة وبعض الأبواب والرخام والدرابزينات وغير ذلك ، وتحت التاريخ سطر فيه :-

" رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد " .

وبالجامع سبعة عشر عموداً من الرخام ومنبر خشب ودكة للتبليغ ، وسقفه خشب بصنعة بلدية ، وهناك خلوتان صغيرتان أبوابهما إلى الجامع ويكتنفهما ثلاثة أحجار فى الحائط من الحجر الأسود اللماع ، وبجوار ذلك لوح قيشانى صغير فيه خط كوفى وبوسطة طرة مكتوب فيها : توكلت على خالقى . وفى مؤخر الجامع درابزين من الخشب حائل بينه وبين الطرق الموصلة له .

وللمسجد باب آخر فى الحائط التى عن شمال القبله خارجه طرقه طويلة مفروشة بالحجر ، وفى خارجها باب بجوار ضريح الست جوهرة وهناك سبيل ومدافن كثيرة ، وهو مسجد جامع ورحاب واسع ، وشعائرة مقامة إلى الغاية ولا يخلو من الازدحام لكثرة زوار هذه السيده ذات المناقب الكثيرة

والبركات الشهيرة ، فترى الناس يهرعون إليها رجالا ونساء لزيارتها والتماس بركتها سيما عند الشدائد وخصوصاً فى ليلة حضرتها وهى كل ليلة اثنين "

وقد اشار على مبارك إلى شهرة قنديل السيدة نفيسة – فطبقاً للموروث فى الاعتقادات الشعبية – ان زيت هذا القنديل يشفى امراض العيون !.. وتجدر الاشارة الى أن أديبنا الراحل " يحيى حقى " قبيل إنتقاله الى رحاب الله قد إعترف بأنه قد نقل هذا المعتقد الشعبى عن قنديل السيدة نفيسه إلى قنديل السيدة زينب فى رائعته :" قنديل أم هاشم " فقال : " فى معتقدات الشعب أن القنديل الذى يشفى العيون هو قنديل السيدة نفيسه وليس قنديل السيدة زينب .. هذه من المعتقدات الراسخة فى أذهان الشعب .. لكن المقتضى الفنى لاحداث الرواية فى حى السيدة زينب ألزمنى بذلك " ! .

وقال " السخاوى " فى كتابه المزارات عن ضريح السيدة الطاهرة نفيسة :

" أحد الأماكن المجاب فيها الدعاء بمصر وهى أربعة ، هذا وموضع سجن يوسف نبى الله عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ومسجد نبى الله تعالى موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام وهو بأرض طرا والمخدع الذى على يسار المصلى فى قبلة مسجد الأقدام بالقرافة الكبرى (ولم تزل) الصالحون والأئمة والفقهاء والقراء والمحدثون والعلماء يزورون مشهد السيدة نفيسة ويدعون عنده وهو مجرب باجابة الدعاء (ومدفنها) بمنزلها الذى كانت ساكنة به وكان وهبه لها أمير مصر السرى بن الحكم فأقامت عدة سنين فلما مرضت حفرت قبرها بيدها فى وسط دارها وكانت تحفر فيه فى كل يوم قليلا الى أن تكامل الحفر فاتخذته مصلاها فكانت تنزل اليه وتصلى فيه وكان الامام الشافعى رحمة الله تعالى يأتى هو وأصحابه الى زيارتها ....

(ولما توفيت) السيدة نفيسه بنى لها السرى بن الحكم ثم جدد البناء كما هو مكتوب على اللوح الرخام على باب ضريحها وهو الذى كان مصفحا بالحديد بعد البسملة مامثاله نصر من الله وفتح قريب لعبد الله ووليه معد أبى تميم الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين (أمر) بعمارة هذا الباب السيد الاجل أمير الجيوش سيف الاسلام قاضى الأنام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه المؤمنين ، وأدام قدرته وأعلا كلمته وشد عضده بولده الأجل الأفضل سيف الاسلام ، جلال الأنام ناصر الدين خليل أمير المؤمنين ، بطول بقائه زاد الله فى علاه ، وأمتع أمير المؤمنين بطول بقاه فى شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثمانين وأربعمائه (وأما القبة) التى على الضريح فالذى جددها الخليفة الحافظ لدين الله عبد المجيد العلوى الفاطمى وذلك فى سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة وهو الذى أمر بعمل الزجاج فى المحراب ثم أخذ أرباب الدولة فى العمارة بجوار ضريحها تبركا بها قديما وحديثاً (فمنهم) الستر الرفيع والحجاب المنيع أم السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب بن شادى الكردى أنشأت رباطاً بجوارها ثم ان الملك الناصر محمد بن قلاوون أمر بإنشاء جامع بخطبة وشيد بناءه وصار الناس يتقربون إليها بالبناء حول ضريحها ".

وقد تمت توسعة المسجد فى عهد الرئيس السادات سنة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢، مع اقتطاع جزء من الميدان اضيفت الى ساحته الخارجية، خصص به مكان لصلاة السيدات يوم الجمعة، واقيمت بالساحة فسقية رائعة من الرخام على شكل نجمة مثمنة ، ومساحات خضراء ، وشملت عملية التجديد قاعة المشهد والمحراب الذى كانت تصلى فيه، ويزدان المسجد بالسجاد الفاخر والآيات القرآنية وصور ضخمة للكعبة والمسجد النبوى وضريح السيدة نفيسة، من هبات وهدايا الزوار، كما يضم المسجد مكتبة فيها كتب قيمة، فى علوم التفسير والحديث والفقه والتاريخ الاسلامى.

الواجهة الرئيسية للمسجد يتوسطها المدخل، وهو مرتفع عنها تغطيه طاقية مقرنصة، وتعلوه منارة رشيقة على الطراز المملوكى، ويؤدى المدخل الى «دركاه» نصل منها الى داخل الجزء الذى شيده الخديو عباس الثانى، وهو مربع الشكل تقريبا، مسقوف بالخشب المنقوش بزخارف مذهبة، ويعلو منتصف البائكة الثانية «شخشيخة» مرتفعة تزينها شبابيك صغيرة من الجص والزجاج الملون، والسقف محمول على ثلاثة صفوف من العقود المرتكزة على ١٢ عمودا رخاميا، ويتدلى من السقف ٢٤ ثريا من البلور الأبيض والملون، ويتوسط جدار القبلة : محراب مكسو بالقيشانى الملون، مزخرف باشكال نباتية، وهو من اجمل المحاريب التى شاهدتها، تعلوه الآية : «كلما دخل عليها زكريا المحراب » وإلى اليمين منه منبر خشبى، وإلى يساره ساعة انجليزية ضخمة يبلغ ارتفاعها نحو ١١/٢ متر، وإلى اقصى اليمين من جوار القبلة باب يؤدى إلى ردهة يتوسط سقفها شخشيخة حليت بنقوش رائعة، وتنتهى الردهة إلى مدخل معقود من الرخام يؤدى إلى الضريح، يعلوه نقش نصه : «يامن أتى متوسلا بنفيسة، ابشر بنيل القصد والاسعاد » .. وتحيط بالضريح مقصورة نحاسية تزدان بالآيات القرآنية وباقات الورود، ويتوسط الجدار الشرقى لقاعة الضريح : المحراب فى الموضع الذى كانت تتعبد فيه.

والتوسعة الجديدة للمسجد، مستطيلة الشكل، والسقف محمول على ثلاثة صفوف من العقود المرتكزة على ١٨ عمودا من الرخام، ويتوسط جدار القبلة محراب من الرخام ، بسيط الزخارف، تعلوه الآية : « فنادته الملائكة وهو قائم يصلى بالمحراب » ..

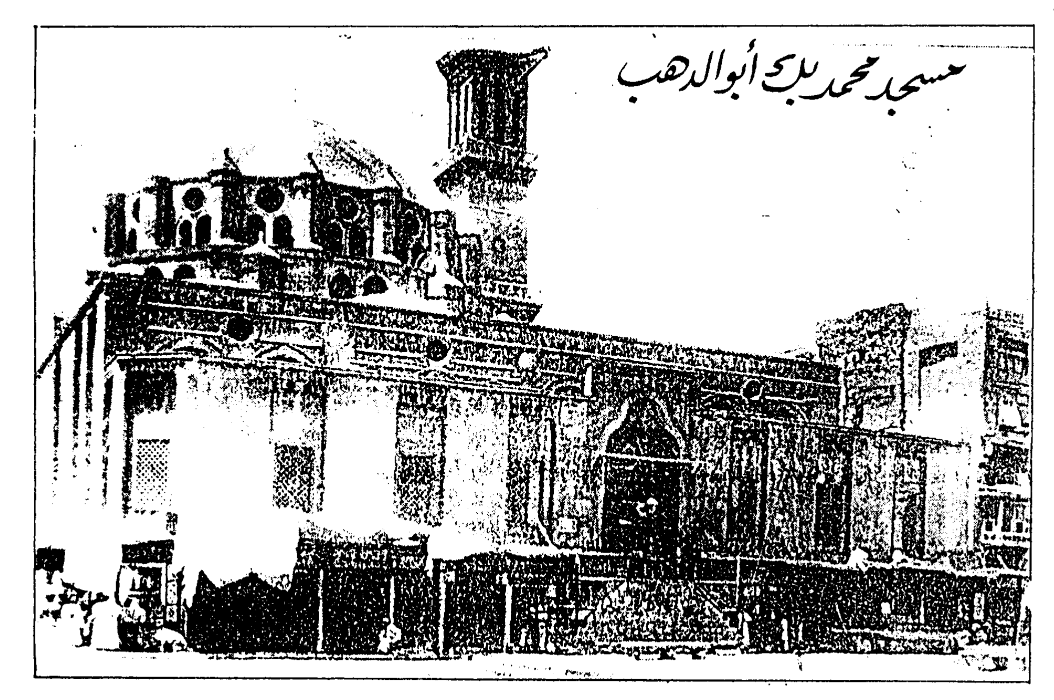
وحب آل البيت متأصل فى وجدان المصريين ، جيلا بعد جيل ، منذ أن طابت مصر لهم مستقراً ومقاماً ، فنسعد بزيارتنا لهم بقدر سعادتنا بجوارهم ، وأذكر عندما كانت والدتى - رحمها الله - تصحبنى واخوتى فى عهد الطفولة ، لزيارة مقامات اهل البيت .. أهل الله .. وتدعو لنا فى حضرتهم وتمسح بيدها على المقصوره ثم تمسحها على رؤوسنا ووجوهنا إلتماساً لبركتهم ..

وعندما تفتح العمر ، وتتبعت سيرتهم العطرة ، أصبحت زيارتهم عادة محببه الى النفس والقلب وتعبير عن مودتنا لقربى رسول الله - زادهم الله شرفاً وتعظيماً - ومشهد سيدتنا نفيسة رضى الله عنها وعن آلها ، التى من الله عليها بحب الملايين من المؤمنين ، من أشهر البقاع المباركة ، ففى هذا المكان جمعت نفسها وفتحت قلبها وناجت ربها ، فتجلت أنوار الحق لهذه النفس الزكية وأضاءت قلبها الطاهر ...

وفى كل يوم ، خاصة يوم الجمعة ، تتزاحم وفود المشوقين نحو ضريحها .. واحساس بشجن غامض كلما إقتربت من مشهدها ، الذى تتعلق به آلاف العيون والأيدى ، مابين المناجاه فى همس ، والدعاء المسموع .. الكل عاجز ينشد بركتها ، والحول والقوة لله وحده الواحد القهار .. فى رحابها يلوذون بباب الله ، وهو وحده علام الغيوب والقلوب .. ينشدون عطفها الفياض لتأسوا جراحهم .. والكل يبث سيدتنا آلامه ، ويبوح لها بآماله .. راجيا كرامتها وبركاتها .. بينما البعض يتسابقون لأداء ركعتين فى محرابها الذى كانت تتعبد فيه .. وأطياف أنوار تنبعث من الضريح الذى يجسد رقة الخشوع وغاية الشفافية ، وعالم منفصل من الصفاء والأنس البديع واللطف الآسر، وأصعد ببصرى من الضريح إلى مركز القبة ، وسمو يتناول الروح ويخف بها إلى أعلى ، وبعد جلسة تطول أو تقصر يحتوينى المكان فيضئ مابداخلى .. كم يزخر هذا المكان المبارك بالطهر .. وكم يتضوع بالطيب الربانى !

المراجع والمصادر :

١- سيد الشبلنجى : نور الأبصار فى مناقب آل النبى المختار ، المطبعة الأزهرية ، القاهرة، ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م
٢- على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ، الجزء الثالث .
٣- حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية .
٤- سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون .
٥- السخاوى : تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات ، القاهره ، ١٩٣٧



أمس

مسجد محمد بك ابو الدهب بقبته ذات الطراز العثمانى ويبدو جزء من المئذنة

مسجد محمد بك أبو الدهب

عرفة عبده على

تتباين اشكال القباب وتتنوع طرز المآذن .. التى تتسامى فى شموخ وكبرياء .. فى سماء القاهرة .

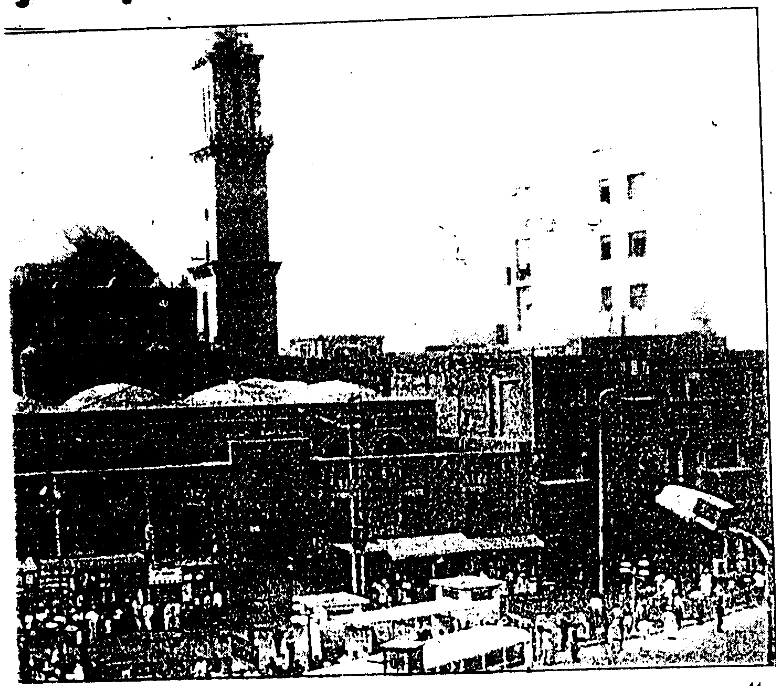
وإلى جوار الجامع الازهر ، وبالقرب من منشآت السلطان الغورى ، وفى تلك المنطقة التى شهدت العصر الذهبى للقاهرة .. حيث روائع العمارة الاسلامية ، وابداعات الصناع والحرفيين ، وحركة تجارية ضخمة تتدفق من الهند وآسيا الصغرى واوربا وشمال افريقيا والحبشة .. ومشاهد لاسواق وقيساريات وخانات ووكالات وحمامات واسبلة .. مازال ماء الذهب يسطع ببهجة ايامها الغابرة .. يطالعنا مسجد محمد بك ابو الذهب ، رابع مسجد بمصر صمم على الطراز العثمانى بمدينة استامبول ، فقد كان أولها مسجد سليمان باشا بالقلعة ، وثانيها مسجد سنان باشا ببولاق ، وثالثها مسجد الملكة صفية بالداودية .

والامير محمد بك ابو الذهب ، كان مملوكا للامير على بك الكبير ، تقلد الخازندارية عام ١١٧٨ هـ اشتهر بحب الخيرات وإجلال العلماء ، وعنه يقول المؤرخ الكبير « الجبرتى » إنه تامر فى تلك السنة وتقلد الصنجقية و « عرف بابى الذهب وسبب تلقبه بذلك ، انه لما لبس الخلعة بالقلعة ، صار يفرق بالبقاشيش ذهبا ، وفى حال ركوبه ومروره جعل ينثر الذهب على الفقراء والجعيدية ، حتى دخل إلى منزله ، فعرف بذلك لانه لم يتقدم نظيره لغيره ممن تقلد الامريات ، واشتهر عنه هذا اللقب وشاع ، وسمع عن نفسه شهرته بذلك ، فكان لايضع فى جيبه إلا الذهب ولايعطى إلا الذهب ، ويقول انا ابو الذهب فلا امسك إلا الذهب » .. !

تبوأ الامير ابو الذهب منزلة سامية ، وعظم شانه فى وقت قصير ، واصبح من اركان دولة على بك الكبير ، الذى عهد إليه فى سنة ١١٨٥ هـ / ١٧٧١ م بقيادة الجيوش لفتح سوريا ، واستولى على كثير من بلاد الشام ، وما ان اتم فتح دمشق ، حتى تفاوض سراً مع رجال الباب العالى ، وتعاهد معهم على بسط النفوذ العثمانى على مصر من جديد ، ثم عاد إلى مصر ، ليقود حرباً ضد على بك ، انتهت بمصرع على بك سنة ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م ، ولتعود مصر ولاية عثمانية ، خالصة إمارتها ومقاليد حكمها إلى محمد بك ابو الذهب ، فى ٢ ربيع الثانى سنة ١١٨٨ هـ / ١١٧٤ م .

ومع بداية سنة ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥ م ، قاد جيش مصر ، قاصداً الشام ، لمحاربة الشيخ ظاهر العمر ، واستولى على غزة ، ويافا ، وعكا التى وافته بها المنية فى ٨ ربيع الثانى سنة ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥ م ، ونقل جثمانه إلى القاهرة ، حيث تمت مراسم دفنه بمسجده فى ٢٤ ربيع الثانى .

بدأ تشييد هذا المسجد سنة ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م وهو خاتمة المساجد العظيمة التى شيدها سلاطين المماليك ، واحتفل بافتتاحه بصلاة الجمعة ، فى شهر شعبان سنة ١١٨٨ هـ / ١٧٧٤ م ، والحقت به مكتبة عنى بتكوينها العلامة الشيخ احمد ابن شاهين الراشدى ، الذى كان خطيبا للمسجد ، وضمت اكثر من الف مجلد لمخطوطات نادرة ، بالاضافة إلى عدد من المصاحف المذهبة الثمينة ، واختير للتدريس فيه نخبة من اجلة العلماء فى ذلك العصر : الشيخ على الصعيدى ، الشيخ



اليوم مسجد محمد بك ابو الذهب وقد بدات عليه اثار الزمن حيث تساقط.

عدسة الفنان : مكرم

بك أبو الذهب

احمد الدردير ، الشيخ عبد الرحمن العريشى ، الشيخ محمد الامير ..

وقد اقيم المسجد على مساحة كبيرة من ارض خان الزراكشة ، الذى ابتاعه أبو الذهب ، مرتفعاً عن الشارع ، واسفل واجهتيه الشرقية والبحرية حوانيت ، وكان امام الباب البحرى ، سلم مزدوج من الرخام الملون ، وامام الباب الشرقى سلم مستدير ، وكلاهما استبدل بالحجارة ! كذلك الحقت بالمسجد ، من الواجهة القبلية ، تكية لمتصوفى الاتراك ، وسبيل وحوض لشرب الدواب ، والباب الشرقى يؤدى إلى طرقة تنتهى إلى منارة المسجد والتكية الملحقة به ، وتتميز المنارة - دون منارات هذا العصر - بطرازها المصرى ، وتتكون من ثلاث دورات تعلوها خمسة رؤوس ، وبصحن المسجد ، مربع طول ضلعه ١٥ مترا ، يشمل قبة كبيرة لها ثلاثة ابواب ، تؤدى إلى ثلاثة إيوانات ، يتألف سقفها من قباب صغيرة محمولة على عقود متكئة على اكتاف واعمدة من الرخام ، حليت طباليها الخشبية بمقرنصات ، وماحول ابواب القبة مكسو بالرخام الأسود والابيض ، ومغطى بمقرنصات مذهبة ، وقد نقش على الباب البحرى :

امير اللوا انشأت لله مسجداً

عليه بهاء العز جلّ الذى وهب

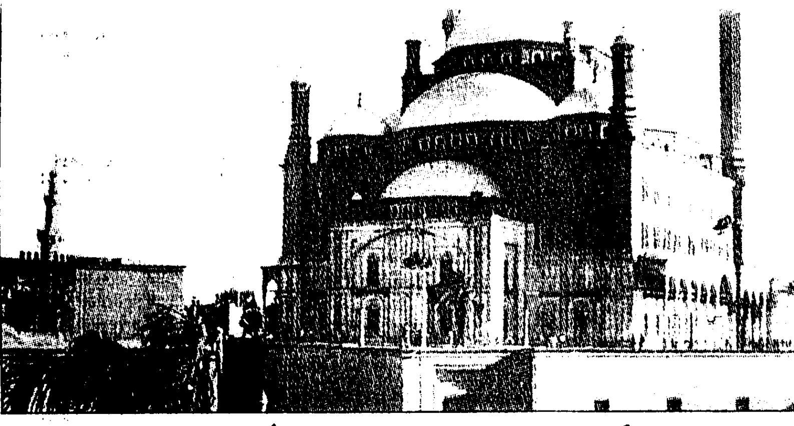
لك الفوز فيه بالثواب مؤرخ

لقد حاز الطاف القبول ابو الذهب

ويقول العالم الراحل د . حسن عبد الوهاب ، إن لهذه القبة منظرا يملأ النفس روعة ، وذلك لضخامتها والشبابيك القندلية بها والدعائم المكتنفة لها ، وبكل من زوايا المربع الداخلية ، عقد به مقرنصات ولفظ الجلالة ، وفوق زوايا المربع إفريز به آيات من سورة الفتح ، واسم صاحب المسجد بحروف مذهبة على ارضية

ولقد كانت مصر فى الفترة القصيرة لحكم ابو الذهب ، تنعم بالامن والرخاء ، وازدهار حركة التجارة والصناعات والفنون والبناء ، ومن تصاديف الاقدار .. وبينما القاهرة وضواحيها فى أوج زينتها ، ومظاهر البهجة والفرح فى الشوارع والطرقات ، ودوى المدافع ، والمواكب الشعبية تتقدمها الاعلام والبيارق ، واذكار الدراويش ، والمراكب والسفن المزينة ، والمضاءة قناديلها ليلا .. إبتهاجاً بانتصارات أبى الذهب فى الشام ، فيأتى خبر وفاته فى الليلة الثالثة من بدء هذه المهرجانات ! .. ويظل التاريخ مكاناً وزماناً واحداثا يصنعها الانسان .. !

المراجع :
١- حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية .
٢- محمود أحمد : العمارة الإسلامية .
٣- عبد الرحمن زكي : خطط القاهرة في أيام الجبرتي (كتاب الجبرتي - دراسات وبحوث) القاهرة ، ١٩٧٦ ،
٤- عبد الرحمن زكي : الأزهر وما حوله من الآثار ، الهيئة العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٠ .



جامع محمد على
هرم مصر الحديثة !

عرفه عبده على

ف عام ١٨٢٠ ، لم يتبق من قصر صلاح الدين سوى ساحة مليئة بالانقاض ، الذى وصفه كثير من الرحالة ، بأعمدته الجرانيتية الوردية التى انتزعت من معابد منف وهليوبوليس .. وليشيد مكانه جامع محمد على ، وعندما زار القاهرة الاديب الرحالة « جيراردى نيرفال » لم تكن المآذن الشهيرة لهذا الجامع قد بنيت بعد ، فبدا المبنى ف عينيه أقرب إلى « قوقعة سلحفاة تركية الملامح رابضة فوق افق المدينة المطرزة بآلاف القباب والمآذن » !

وبعد أن أتم محمد على ترميم القلعة ، وفرغ من تشييد القصور والدواوين والمدارس وإعادة تخطيط المدينة ، فكساها ثوبا قشيبا غزلته يداه ، عهد إلى المهندس التركى « يوسف بوشناق » بوضع تصميم الجامع يشمل ضريحا له بعد وفاته . فكان أن اختار مسجد السلطان أحمد بالاستانة ليقتبس منه المسقط الافقى وتصميم الصحن والفسقية مع بعض التعديلات الطفيفة ..

وبدأ تنفيذ هذا المشروع سنة ١٢٤٦ هـ/ ١٨٣٠ م ، وحتى انتقال محمد على إلى رحاب الله ف ١٢٦٥ هـ/ ١٨٤٨ م ، كانت الاسوار والقباب والمنارات قد اكتمل بناؤها ، والقسم الأسفل فقط حتى الباب القبلى للصحن هو الذى تمت كسوته بالرخام ، والنقوش والكتابات التى تعلو الشبابيك الداخلية والخارجية .. وعندما تولى حفيده عباس الاول حكم مصر ، أمر بإتمام بناء الجامع ، واعداد تركيبة رخامية ومقصورة نحاسية وضع بداخلها شمعدانات فضية ومصاحف مذهبة ، كما أمر بفرشه وإضاءته بالنجف وتعيين القراء ورصد الخيرات عليه بمقتضى وقفية مؤرخة ف ٩ رجب سنة ١٢٦٩ ، وفى عهد سعيد باشا ، تقرر اقامة الاحتفالات الرسمية لخمس مناسبات بهذا الجامع ، وهى : ليلة الاسراء ، والنصف من شعبان ، وثلاث ليال من رمضان ، ليلة الثالث عشر منه إحياءً لذكرى وفاة محمد على بالاسكندرية ، والليلة التالية ف ذكرى ايداعه مقره الاخير بمسجده ، ثم الاحتفاء بليلة القدر ..

كما أصدر اسماعيل باشا عدة « أوامر كريمة » بانشاء أبواب جديدة واعداد مقصورة بجوار المنبر ، يصلى فيها السلطان عبد العزيز خلال زيارته الشهيرة لمصر ، كما أهداه بعض المصاحف المذهبة .

وبناء على تقرير أعده « محمود باشا احمد » مدير ادارة حفظ الآثار العربية ، اصدر الملك فؤاد أمره بتشكيل لجنة تتولى الاشراف على مشروع ترميم الجامع ف ٢٩ ديسمبر ١٩٣١ ، واثبت الفحص الاول ضرورة إزالة القبة الكبيرة واعادة بنائها ، وشرع ف عمل شدة من الصلب ، بلغ وزنها ٦٥٠ طنا ، شكلت ف مجموعها عدة ابراج مستقلة وعقود لتحمل القباب ، وعقب الانتهاء منها ، ضرب اول معول ف القبة الكبيرة ف ١١ فبراير سنة ١٩٣٥ .

والقسم الشرقى من الجامع مخصص للصلاة ، ويشكل الصحن القسم الغربى منه ، تتوسطه فسقية للوضوء ، والقسم الشرقى مربع الشكل طول ضلعه من الداخل ٤١ مترا ، تتوسطه قبة مرتفعة قطرها ٢١ مترا وارتفاعها ٥٢ مترا وجدران الجامع من الداخل والخارج يكسوها الرخام الألباستر الفاخر المجلوب من محاجر بنى سويف ، وتشغل الجانب الغربى « دكة المؤذنين » بعرض الجامع ، شيدت على ثمانية أعمدة من الرخام ، تعلوها عقود وسقوف مزخرفة ، ولها سياج نحاسى ، وقد نقشت على أعتاب الشبابيك ابيات من بردة البوصيرى ، والمحراب من الالباستر ، بجواره منبر رخامى كان الملك فاروق قد أمر بصنعه ، وبالقرب منه ، إلى اليمين ، المنبر الاخضر المحلى بنقوش مذهبة ، وهو أكبر منبر بين كنوز الآثار الاسلامية .

وجميع جدران الجامع محلاه بنقوش رائعة ملونة ومذهبة ، وزخارف القبة الكبيرة وانصاف القباب ، تمثل عقودا وزهورا يتوسطها هلال ، وكتب ف اضلاع القبة على التوالى : بسم الله ، ماشاء الله ، تبارك الله ..

وقد زينت زوايا القباب والعقود بلفظ الجلالة ، محمد رسول الله ، واسماء الخلفاء الراشدين ، أبدعها الخطاط الشهير « امين ازميرى » ..

وإلى يمين المدخل ، ضريح محمد على باشا ، بمقصورة نحاسية مذهبة ، جمعت بين فنون الزخرفة العربية والتركية والمصرية ، وعلى جدارها الجنوبى ، لوحة رخامية مكتوبة باللغة التركية ، تضمنت نبذة عن حياة محمد على ومناقبه ومدة حكمه وتاريخ وفاته ، وعلى طرفى الجانب الغربى للصحن منارتان رشيقتان يبلغ ارتفاعهما ٨٤ مترا ، وتبلغ مساحة الصحن ٥٣ × ٥٤ مترا ، يحيط به اربعة اروقة ذات عقود محمولة على أعمدة رخامية ، تحمل قبابا صغيرة ، ويوسط الصحن « ميضه » انشئت عام ١٨٤٤ ، تعلوها قبة على ثمانية أعمدة رخامية ، باطنها محلى بنقوش تمثل مناظر طبيعية ، ويتوسط الرواق الغربى للصحن برج من النحاس المحلى بالزجاج الملون ، بداخله الساعة التى أهداها « لويس فيليب » ملك فرنسا إلى محمد على ، وقد أصاب العطب هذه الساعة ، فظلت معطلة حتى عهد الملك فاروق ، الذى أمر باصلاحها وترميم البرج ، وثبتت على قاعدته لوحة تذكارية نصها : « ف عهد الفاروق وبامره الملكى الكريم ، تم ترميم هذا البرج واصلحت الساعة المهداة إلى محمد على باشا الكبير من ملك فرنسا عام ١٨٤٥ م » ..

وقد أولى فاروق هذا الجامع عناية كبيرة ، ف اطار مشروع ضخم لتجديده ، وقد وضعت على الباب البحرى للجامع لوحة تذكارية ، نصها : « بدأت إدارة حفظ الآثار العربية بعمارة وتجديد مسجد محمد على باشا الكبير ف عهد المغفور له الملك فؤاد الاول ، وتم افتتاحه ف عهد حضره صاحب الجلالة الملك فاروق الاول ، وذلك باداء جلالته فريضة الجمعة ف خامس شهر المحرم سنة ١٣٥٨ هـ/ ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٩ م » .. كما تم ف عهده ، تجميل الساحة الواقعة بين الجامع وقصر الجوهرة ، وكتب على شاهد ضريح محمد على : « بسم الله الرحمن الرحيم ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » - هنا مثوى والى مصر ومنقذها وراس أسرتها المالكة المغفور له محمد على باشا ، ولد نضر الله وجهه بمدينة قوله سنة ١١٨٢ للهجرة النبوية وولى مصر ف ١٧ من صفر سنة ١٢٢٠ ، ولحق بربه ف ١٣ رمضان سنة ١٢٦٥ رحمه الله وطيب ثراه وبارك ف أسرته الذكية وسلالته العلوية » !

ويقول العالم الراحل د . حسن عبد الوهاب « إن موقع هذا المسجد ، من أجمل المواقع ، إذ يشرف على القاهرة مطاولا السماء بمنارتيه الرشيقتين وقبته الكبيرة ، ترمقه العيون من جميع نواحيها ، فكما أن الاهرام رمز لمصر القديمة .. فهذا المسجد رمز مصر الحديثة » !

المراجع والمصادر : ١- حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية .
٢- محمود أحمد : تاريخ ووصف مسجد محمد علي باشا بالقلعة ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٩ .
٣- " " : العمارة الإسلامية .
4- Wiet, G. a Hautecoeur : Les Mosquées du Caire.

جامع الرفاعى

جامع الرفاعى يقابل جامع السلطان حسن ، وجامع قلعة الجبل ومسجد المحمودية ومسجد قانيباى الرماح يشكلون فى مجموعتهم فخر العمارة الاسلامية . وكان بموقعه مسجد فاطمى عرف بمسجد الذخيرة، الذى شيده : ذخيرة الملك جعفر والى القاهرة ومتولى الشرطة والحسبة ، وكان هناك أيضا الزاوية البيضاء أو زاوية الرفاعى ، واشتملت على قبور بعض الأولياء : على أبى شباك حفيد الرفاعى الكبير ويحيى الأنصارى وآخرين ..

فى سنة ١٨٦٩ ، أمرت الأميرة «خوشيار هانم» والدة الخديو إسماعيل بتجديد زاوية الرفاعى وهدم ما حولها ، وعهدت إلى حسين باشا فهمى وكيل الأوقاف ، بإعداد مشروع لبناء مسجد كبير تلحق به مدافن لأسرتها . وتبلغ مساحة الجامع ٦٥٠٠ متر ، والجزء المخصص منها للصلاة ١٧٦٧ مترا . فى عام ١٨٨٠ ، أوقفت العمارة نظراً لكثرة النفقات ، وتوفيت الوالدة باشا عام ١٨٨٥ ، لتمتد فترة التوقف نحو ربع قرن . وفى سنة ١٩٠٥ ، باشر المشروع «هرتس باشا» مهندس لجنة الآثار العربية إلى أن أتم بنائه ، وافتتح بصلاة الجمعة بحضور الخديو عباس الثانى فى غرة سنة ١٣٣٠هـ / ١٩١٢ . وقد نجح هرتس باشا فى محاكاة مدرسة السلطان حسن فى ضخامتها وارتفاعها ، وتتميز منارتاه بالرشاقة والجمال ، وقد أقيمتا على قواعد مستديرة ، والشبابيك من النحاس المشغول برسوم رائعة ليس لها مثيل . وتزدان جدران الجامع وسقوفه بوزرات من الرخام مختلف ألوانه ، يحيط بها طراز مذهب منقوش بآيات من القرآن ، ويقابل الداخل من الباب القبلى الغربى حجرة طعمت مصاريعها بالسن والأويمة المذهبة ، والأعتاب تزينها نقوش ملونة مطعمة بالرخام . بها ضريح الشيخ على أبو شباك ، فوقه قبة تزدان مقرنصاتها بالالوان المذهبة ، وقطب القبة مفرغ بأشكال هندسية مغطاة بالزجاج الملون ، بها أربعة أبواب تفتح على الجامع ، ويتوسط الجدار الشرقى المحراب الكبير من الرخام الملون ، بجانبه منبر كبير مطعم بالأبنوس وخشب الجوز ، ودكة المبلغ ترتفع على أعمدة رخامية حافلة بالنقوش الذهبية ، ويزدان المسجد بالثريات النحاسية العربية والمشكاوات الزجاجية المشغولة بالمينا . وبالجانب البحرى من المسجد ، ستة أبواب ، أربعة منها توصل إلى المدافن والحجرة البحرية مدفون بها من أولاد إسماعيل : الأمير على جمال الدين ، الأميرة توحيدة هانم ، وزينب هانم والأمير ابراهيم حلمى ، وإلى الغرب منها قبة تحتها ضريح خوشيار هانم وآخر للخديو إسماعيل ، عليه تركيبة رخامية ملونة تعلوها أعمدة صغيرة خضراء تحمل عقوداً طعمت توا شيحها بالرخام الملون الفاخر ، يليها قبة تحتوى قبور زوجات إسماعيل الأربعة ، تميزها تشكيلات رخامية غاية فى الإبهار ، ويتصل بها غرفة تضم قبر السلطان حسين كامل ، تزدان جدرانها بأفخر الرخام .. وتجدر الإشارة إلى أن نقيب السادة الأشراف الحالى وشيخ الطريقة الرفاعية يؤم المصلين فى صلاة يوم الجمعة فى هذا المسجد ، الذى يعد - بكل ما حواه من فنون العمارة الاسلامية - درة المساجد الحديثة !

المراجع :

١- حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية .

٢- محمود أحمد : العمارة الاسلامية

٣- سيد كريم : قاهرة إسماعيل فى ميزان التاريخ العمارى ، مجلة العمارة ، مجلد ٥ ، عدد ٦-٧ ، ١٩٤٥

4- Wiet, G. & Hautecoeur : Les Mosquées du Caire .

بيوت إسلامية

بيت السحيمي

بحى الجمالية.. وبالتحديد في شارع الدرب الاصفر.. مشربيات تاخذ الالباب وتاسر القلوب، وبوابة خشبية ضخمة تفتح بحذر.. خطوتين، وباب اخر يفتح على قسمى البيت، ممشى ضيق يؤدى بنا الى صحن او حوش كبير، لنجد انفسنا امام بيت هو: نموذج للنتاج المعمارى لمصر فى العالم الاسلامى، وتعبير عن حصيلة ثقافات وتجارب وعمق حضارى، وارتقاء بالذوق الفنى..

الحوش الكبير، عبارة عن حديقة رائعة، مستطيلة الشكل، تتوسطها فسقية من الرخام، وشجرات نخيل باسقة تعتد باستقامتها وشموخها، ومبانى فخمة ترتفع من الجهات الاربعة المحيطة بالصحن، الذى يفتح عليه مداخل حواصل الفلال والقاعات السفلية والسلالم و«التختبوش».. احدى السمات الرئيسية فى بيوت وقصور العصر الاسلامى فى الجهة المقابلة للمدخل الرئيسى، محمول على عمود من الرخام.. وتحت التختبوش، أرائك خشبية كبيرة مفروشة بالحصر، تغرى على الاسترخاء فى بساطة شديدة!.. فى عمق الصحن، تطالعنا الطاحونة والساقية التى كانت تمد هذا المنزل العتيق بحاجته من الماء.

شعور مفاجىء بانتقالنا الى عالم لم يعد من زماننا.. قسما البيت شيدا فى زمانين مختلفين: الجزء الجنوبى شيده الشيخ عبدالوهاب الطبلاوى عام ١٠٥٨ هـ/ ١٦٤٨، كما هو مدون على طراز من الخشب على احد جدران البيت.. بينما الجزء البحرى او الشمالى، شيده الحاج اسماعيل بن الحاج شلبى عام ١٢١١ هـ/ ١٧٩٦.

الشيخ أمين السحيمى

وقد اشتهر البيت باسم «السحيمى».. نسبة الى الشيخ أمين السحيمى، الذى كان شيخا لرواق الأتراك بالأزهر الشريف، كما كان سليلا لعلماء ورجال افاضل، اقام بالبيت حتى وفاته عام ١٩٢٧، واشتهر بأخلاقه الكريمة وسمو ذوقه وحس فنى راق.

فى مدخل البيت، جرة فخارية ضخمة، فى موضعها الرمزى طبقا للعادة التى كانت منتشرة فى ذلك العصر، بوضع اوان فخارية ونحاسية امام مداخل البيوت لشرب عابرى السبيل، كعمل من أعمال البر التى تعود بالخير وتكتب فى سجل الحسنات!

متاهة من القاعات أو الغرف الواسعة، تتصل ببعضها البعض، تطل على الحديقة، من خلال المشربيات وواجهات من الخشب الخرط، وكل قاعة تتألف من أيوانين و«درقاعة».. وقد كسيت اسفل الجدران بوزرات من الخشب المنقوش على هيئة مربعات، والارضيات مفروشة بالرخام المختلف الوانه.

والقسم البحرى، الذى شيده الحاج اسماعيل شلبى، وأدمجه فى القسم الجنوبى وجعل منهما بيتا واحدا، يعتبر اكبر من القسم الجنوبى، واهم قاعاته، القاعة البحرية الشرقية (الاستقبال) تعلوها غرفة كبيرة، يقابلها قاعة غربية يتوسطها فسقية من المرمر، تعد من اجمل ما صنع من نوعها، امامها درقاعة يتوسط سقفها «شخشيخة»، وتتصل القاعة بسلمين يؤديان الى الطابق العلوى.. غرف واروقة «الحرملك» بالطابق الثانى..

احدى القاعات يطلق عليها «مسجد السيدات» تميزها عناصر ديكور اسلامى بسيطة، والمحراب بالحائط الجنوبى منها..

حمام شبه كامل

ويشمل المنزل كذلك، حمام شبه كامل، تعلوه قبتين متتاليتين، وجزء مخصص لما كان يطلق عليه «المسلخ» وقد صممت واجهة هذا الحمام الشرقى، باسلوب يضمن تسرب الضوء واحتفاظه بالحرارة بشكل مناسب، الارضية من الرخام المزخرف باشكال هندسية، سقف الحجرة الساخنة عبارة عن قبة من الجص المخرم باشكال نجمية بها «مضاوى» من الزجاج الملون، تنفذ منها اشعة الشمس لتضفى على المشهد مزيدا من الابهار والمتعة.

بيت السحيمى بالجمالية

عرفه عبده على

قاعة الاستقبال

التختبوش عبارة عن عقدين من الخشب الخرط، محمولين على عمود رخامى، تدور حول جدرانه أرائك من الخشب، يجلس اليها الزوار، الى حين نزول رب البيت فيصحبهم الى قاعة الاستقبال، المركبة على التختبوش..

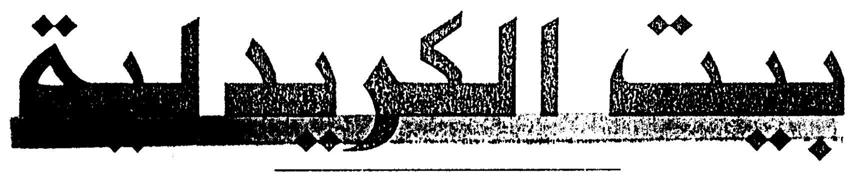
والدرقاعة، هى بهو الدخول الى الايوان، عبارة عن صحن مسقوف تغطى ارضيتها بالفسيفساء الرخامية، تزينها زخارف هندسية بديعة، وينخفض مستواها بمقدار درج واحد عن مستوى أرضية ايوانى القاعة، هذا الدرج هو الذى يحدد المكان الذى يجب على الزائر ان يخلع نعليه قبل ان تطأ قدماه السجاد الفاخر، الذى كان يكسو ارض القاعة. فى نهاية الدرقاعة ومواجهة المدخل: رف رخامى يسمى «الصفه» يستند على عقدين بارتفاع نحو المترين، توضع فوقه اباريق الماء واقداح القهوة، وباسفله تصطف قنانى العطور وماء الورد والطست واباريق الوضوء وغسل اليدين، ويتوسط الدرقاعة، فسقية مثمنة الاضلاع، من الفسيفساء والرخام النادر، تساعد على تلطيف الحرارة، وتضفى على المشهد بهجة وسحرا وجمالا..

باب القاعة من الخشب الثمين المطعم بالعاج، ويرجع تاريخه الى القرن الخامس عشر، القاعة مستطيلة عبارة عن ايوانين، ارضيتها خشبية، اسفل حوائطها مكسو ببلاطات رائعة متنوعة الزخارف، يغلب عليها اللون اللازوردى - الازرق السماوى - والاسقف تمتد بها عوارض خشبية «براطيم» مزخرفة ومموهة باللون الذهبى، تتدلى منها ثريات من البللور والنحاس والزجاج المحلى بالميناء، الدواوين تتوزع عليها طنافس مطرزة ناعمة، اعلى الحوائط، فتحات دائرية ومستطيلة، تزدان بتشكيلات من الارابيسك او الزجاج المعشق، وعلى الموائد الخشبية، مجموعات نادرة من الاوانى الزجاجية التركية والاطباق اليابانية والزبديات الصينية، واوانى نحاسية مطلية بالذهب والفضة، بالاضافة الى تحف وطرف اوروبية.. كوات ودواليب او خزائن داخل جدران القاعة.. بينما الضوء ينساب ناعما من خلال مشربيات اكثر اناقة وجمالا، تطل على الحديقة وعلى الشارع، فتترك فى النفس اثرا اكثر فتنة وسحرا..

واذا رحلنا بخيالنا - على دخان مبخرة شرقية - لنشهد صورة من الحياة اليومية لذلك العصر.. فقد كان العشاء هو الوجبة الرئيسية، فاذا حضر بعض الضيوف فى موعده وجب عليهم ان يتناولوا عشاءهم مع رب المنزل، ويقدم خلال جلستهم بقاعة الاستقبال، على صينية من النحاس المطعم بالفضة، توضع على «طبلية».. وتتكون اساسا من اطباق الخضروات، والارز غالبا بالمكسرات، وحساء، ولحم مشوى ودجاج، او سمك مقلى.. والحلو فاكهة او حلوى شرقية كالكنافة والبقلاوة.. مع شراب الخشاف او البرتقال، واقداح الشاى والقهوة وتدخين «الشبك».. وكانوا جميعا يجلسون الى الارض او فوق دوارين، يغسلون ايديهم قبل الاكل وبعده، ويقدم لكل منهم منشفة، وطبقا للتقاليد الشرقية، كان رب البيت يفرغ اولا، ثم يصب الماء لضيوفه كنوع من التحية، وغالبا ما كان يتم غسل الايدى بماء الزهر..!

وقد حظى بيت السحيمى باهتمام «لجنة حفظ الآثار العربية» التى ادت دورا خالدا من اجل الحفاظ على شواهد عزنا القديم، بما كانت تضمه من علماء ومهندسين ومسئولين على وعى رائع باهمية هذه الابداعات الحضارية للانسان المصرى، وقد سجل البيت كاثر عام ١٨٩٠ برقم «٣٣٩».. وضعت اللجنة خططا واعتمادات لترميم البيت والحفاظ عليه، وفى تقارير اللجنة برئاسة: عدلى يكن باشا - مدير ديوان عموم الأوقاف - عن سنة ١٩٠٦، نجد ان «ماكس هرتس بك باشمهندس اللجنة» قد تقدم بمشروع لتقوية سقف القاعة الكبيرة - الاستقبال - بواسطة قضبان من الحديد، منعا لزيادة الانحناء الحاصل به.. ومن مبلغ الاعتماد المخصص من الحكومة قدرت «المقايسة بمبلغ ستة جنيهات»!!

المصادر:
١- ثروت عكاشة: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١
٢- حسن فتحي: القاعة العربية في منازل القاهرة، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة
3- Revault, J. a Maury: Palais et Maisons du Caire, XIVe - XVIIIe siècles, 1-IV, IFAO, le Caire, 1972-1980



عرفه عبده على

عند المدخل الشرقى البحرى لجامع بن طولون يطالع الزائر مجموعة من المشربيات الرائعة لمنزلين الى اليمين «بيت الكريدلية» أنشأه «الحاج محمدبن سالم الجزار» عام ١٠٤١هـ/ ١٦٣١ م .

ونسب الى أخر من اقامت به وهى سيدة ينتهى اصلها الى عائلة من جزيرة كريت والى اليسار المنزل الذى شيده المعلم «عبد القادر الحداد» عام ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م ، وينسب الى آخر من سكنته السيدة «آمنة بنت سالم» ويتصل البيتان من أعلى بقنطرة «ساباط» وأطلق على البيتين معا « متحف بيت الكريدلية»

المدخل الرئيسى لبيت الكريدلية يؤدى الى رحبة (دركاه) ثم ممر يؤدى الى حوش المنزل ، تتوسطة فسقية بسيطة ، وتتصدره دكة يجلس اليها قارىء القرآن كل صباح فى الجدار الشرقى ثلاث مداخل : الاول يؤدى الى سلم خاص بالحريم ، والثانى خاص بالخدم ، والثالث يؤدى الى السلم الرئيسى للبيت كما يوصل الى السبيل الملحق بالمنزل، وهو مايجعله فريدا بين دور القاهرة، وسقف السبيل حافل بالنقوش الملونة والمذهبة ، ويحيط بالحوش مجموعة من الحواصل متنوعة العقود ، ويطل عليه من الجهة الجنوبية: مقعد البيت ، ونصل اليه عن طريق باب يعلوه عقد شاهق يزدان بالمقرنصات والنقوش ،

←

وللمقعد عقدان محمولان على عمود رخامي وهو مخصص لجلوس الرجال في ليالي الصيف ، وبه صفت الارائك ،عليها مفارش مختلف الوانها، ودواليب خشبية بالحائط لحفظ الاواني الزجاجية والفضية ، وتتوسط المقعد صينية نحاسية كبيرة تزدان بنقوش تركية ، حولها أربعة كراس منخفضة من الارابيسك ، والارضية مغطاة بالحصير فرشت فوقه بعض قطع السجاد الشرقي الفاخر ، ومن المقعد يصل الزائر الى «القاعة الكبرى» المطلة على المدخل الرئيسي للبيت ، وتنقسم الى ايوانين بينهما «درقاعه» وتزدان بشبابيك جصية ذات زجاج ملون ، وكانت هذه القاعة مخصصه لجلوس الرجال شتاء ، وتدل هذه القاعة على ماكانت عليه دور هذا الزمان من فخامة وثراء ، تزدان الشبابيك بستائر هندية وفرشت الارائك والارضية بمفروشات أرمينية وسجاجيد ايرانية وتركية ، وحامل لشبوكات التدخين من الخشب

المطعم بالصدف ، وصفة رخامية لوضع الاباريق والاقداح ، وعلى الحائط مجموعة من الطبنجات الفارسية والتركية ، وتتدلى من السقف قناديل من النحاس المشغول ومن الزجاج الاحمر والابيض ، ومجموعات من الاطباق النحاسية المنقوشة بالامثال والحكم والاساطير الطريفة!

وقاعة الحريم تطل على الحوش ، في مواجهة المقعد ، تميزها دواليب داخل الحوائط ، أبوابها تبدو كلوحات رائعة مثبتة على الجدران ، ويزدان صدر القاعة بتختبوشين على الطراز التركي ، ومنضدة مستديرة تزينها زخارف بارزة ، وسرير من الخشب المطعم بالعاج ، وصناديق منقوشة لحفظ الملابس ، ومجموعة من الشكمجيات الجميلة لحفظ المجوهرات ،ومن القاعات الاخرى للمنزل :القاعة الفارسية ، التي تعد متحفا للاثاثات والمفروشات الايرانية ، ثم الغرفة البيزنطية وهي الساباط الذي يصل بين البيتين ، والى اليسار القاعة التركية ، ثم غرفة «الملكة ان» وفي مواجهتها الغرفة الصينية ، والغرفة الدمشقية ، ثم قاعة الاحتفالات

وقد أقام بهذا البيت مستر «جاير اندرسون» سنة ١٩٣٥ حتى سنة ١٩٤٢ وكان « امير الاى» بالجيش المصري شغوفا بالآثار الاسلامية ، وقام بتنسيق هذه المجموعات النادرة وأضاف اليها ، كما أسس مكتبة هامة في تاريخ وادب الرحلات الى مصر.

المصادر :

1- Revault, J. a Maury, B. : Palais et Maisons du Caire, XIVe – XVIIIe siecles, I - IV, IFAO, le Caire, 1972-1980

٢- محمود أحمد : العمارة الاسلامية ، القاهرة ، ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م

كبارى

القاهره

أسئلة

سبيل الأمير عبد الرحمن كتخدا

ويعرف أيضاً بسبيل « بين القصرين » .. وموقعه عند تقاطع شارع بين القصرين مع شارع التمبكشية .. شيده « الأمير عبد الرحمن جاويش باش طائفة مستحفظان بقلعة مصر المحروسة ، ابن المرحوم الجناب العالى الأمير حسن كتخدا طائفة مستحفظان بمصر الشهير بقازدوغلى - فى عام ١١٥٧ هـ / ١٧٤٤ م » كما هو مدون على اللوح الرخامى بأعلى المدخل .

وكان الأمير عبد الرحمن كتخدا قائداً للأوجاقات الينكجرية .. وكتب عنه « الجبرتى » شيخ المؤرخين ، أنه « شرع فى بناء المساجد وعمل الخيرات وابطال المنكرات فأبطل خمامير حارة اليهود » إ .. وأضاف : « أول عماراته السبيل والكتاب الذى يعلوه ، ببين القصرين ، وجاء فى غاية الظرف وأحسن المبانى » .. وكان الأمير الجليل عبد الرحمن كتخدا من أكبر البنائين فى العصر العثمانى وأكثرهم نشاطاً فى تاريخ القاهرة ، حتى أنه شيد وجدد ١٨ مسجداً عدا الزوايا والأسبلة والأضرحة والقصور .

ولهذا السبيل أهمية فنية خاصة ، فهو يكون مجموعة مستقلة تجمع كثيراً من روائع الفن الاسلامى ، وهو ملحق بمنزل يقع فى الجهة الشرقية للسبيل ، وستة حوانيت ، اثنان بالجهة الجنوبية بين مدخل السبيل ومدخل المنزل والأربعة الأخرى على شارع النحاسين ، ويعلوه كتاب ، وله ثلاثة شبابيك للتسبيل ، ويتكون من :

- كتلة المدخل : وتقع فى الجهة الجنوبية بشارع التمبكشية ، وتؤدى إلى السبيل والكتاب وملاحق السبيل والصهريج .
- حجرة التسبيل : مستطيلة الشكل وتحتوى على ثلاثة شبابيك للتسبيل وجدرانها الداخلية مكسوة بالقاشانى الفاخر .
- ملاحق حجرة التسبيل : وتضم حاصل كبير للماء وصهريج يجاوره حوض السبيل .
- الكتاب : بأعلى حجرة التسبيل مباشرة ويأخذ نفس الهيئة .

وللسبيل ثلاث واجهات ، جنوبية وبحرية وغربية ، متشابهة ومتساوية ، يكونون فى مجموعهم الواجهة الخارجية للسبيل ، التى تحتوى ثلاثة عقود ترتكز على أربعة أعمدة رخامية ، يتوسط هذه العقود ثلاث شبابيك للتسبيل معقودة بعقود مستديرة ومرتكزة على أعمدة رخامية حلزونية الشكل تسمى فى الوثيقة « أعمدة شخشخانه » يعلوه عليها تغشية نحاسية ترتكز على بائكة من عقود ثلاثية ، يحيط بها إطار خشبى يتميز بزخارف نباتية ، كما تزدان تواشيح العقود بزخارف هندسية رائعة بالرخام الملون .

ويتقدم شبابيك التسبيل ألواح رخامية محمولة على كوابيل حجرية مخصصة لوضع كيزان الشرب ، وتنتهى واجهات السبيل من أعلى بستة صفوف من المقرنصات تحمل أرضية الكتاب .

←

أرضية السبيل عبارة عن ألواح رخامية مربعة ومستطيلة خالية من أى زخرفة وهى حديثة من تجديدات البعثة الدانماركية ، وكانت الأرضية الأصلية من الرخام الملون .

جدران حجرة السبيل .. آية من آيات الفن الاسلامى ، فإلى يسار الداخل للحجرة ، وعلى الجدار الجنوبى الشرقى رسم للكعبة المشرفة ، وما حولها على القيشانى داخل إطار بزخارف نباتية رائعة ، وهذا الرسم يشغل مستطيل من القيشانى مكون من إثنى عشرة بلاطة مربعة ، ٣ عرضاً فى ٤ طولاً ، بالألوان الأزرق والأخضر والأصفر على أرضية بيضاء ، عليها كلمات : « لا إله إلا الله ، مقام على ، مقام صفا ، مولود أبا بكر ، مولود عمر ، مسجد ابراهيم ، مسجد مزدلفة ، مقام حنفى ، مقام شافعى ، مقام مالكى ، جبل عرفان ، جبل نور ، مولود عثمان » !

وبأسفل هذه الصورة المرسومة ، بقايا رسم لمحراب يتدلى منه مشكاة ، يعلوه كتابة بخط النسخ / الآية « كلما دخل عليها زكريا المحراب » .. وبأعلى باب الدخول بالخط النسخ والثلث الرقعة : « يا مفتح الابواب افتح لنا .... لك الممالك .... كل شىء هالك » أما باب حجرة السبيل فهو من الخشب المزخرف بحشوات على شكل طبق نجمى من إثنى عشر ضلعاً .

وقد قامت بعثة مشتركة ألمانية / دانماركية بترميم السبيل وتغطية السقف بغطاء من الشمع . والكتاب يصل إليه من باب فى صدر ردهة مدخل السبيل ، الذى يؤدى إلى سلم صاعد ينتهى يميناً بباب حجرة الكتاب « إيوان » بنفس مساحة حجرة السبيل ، مركب بدوابرها سبعة أعمدة من الرخام ، يعلوها ستة عقود من الحجر على شكل حدوة الحصان ، يتوجها رفرف خشبى مائل ، ويبرز من الحجرة شرفة يطلق عليها « سلاله دايره » ذات أعمدة رفيعة من الخشب ، عددها أربعة عشر عموداً ، تحمل خمسة عشر عقداً ترتكز على درابزين من الخشب الخرط ، يتوجها أفقياً رفرف خشبى أقل إرتفاعاً من الرفرف الأول ، وترتكز أرضية الشرفة التى ترتفع عن أرضية إيوان الكتاب بنحو ٢٠ سم على صفوف من المفرنصات المشبة أعلى واجهات السبيل

أما المنزل الملحق بالسبيل ، فيصعد إليه من مدخل بالواجهة الجنوبية للسبيل ، ويتكون من طابقين ، الأول يعلو جزء منه ملاحق السبيل والصهريج ، وينتهى سقفه عند بداية أرضية الكتاب ليبدأ الطابق الثانى المشيد فى مستوى الكتاب ، والطابق الأول عبارة عن حجرة محصورة بين السبيل والكتاب ، ولا تحتوى على أية منافذ ولذا فقد أطلق عليها : « الحجرة المسحورة » !

المصادر :

1- Raymond, A. : Les Constructions de l'Emir Abd al Rahman Kathuda au Caire, An. Isl. XI, IFAO, le Caire, 1972

2- " : Les Fontaines Publiques (sabil) du Caire à l'époque Ottomane (1517 – 1798) An. Isl. XV, IFAO, le Caire, 1979

سبيل السلطان مصطفى

أشار «جومار» العالم والمؤرخ الفرنسي وأحد العلماء الذين صحبوا حملة نابوليون . إلى أن أسبلة القاهره نشأت من مؤسسات أوقفها الأمراء والأثرياء لراحة السكان ، ولا توجد مدينة أوروبية تحوى هذا القدر من الأسبلة، أنه كانت هناك جمال مخصصة لنقل الماء من فرع النيل إلى هذه الأسبلة بدون توقف .

وهذا السبيل هو من أجمل أسبلة القاهره ، المشيدة على الطراز التركى ، ومع ذلك طالته يد الإهمال بقسوة! وقد أمر ببنائه السلطان «مصطفى خان الثالث» سنة ١١٧٢هـ/١٧٥٨م ، ويعد نموذجاً رائعاً للفن الإسلامى ؤ مصر العثمانية .. واجهة السبيل مقوسة تزدان بزخارف رخامية دقيقة وشبابيك نحاسية مشغولة ، على جانبيها مدخلان أحدهما بحارة «مونج» والتى إشتهرت بسبب وجود «بيت ابراهيم كتخدا السنارى» بها ، وهذا المدخل د ج على السبيل ، والمدخل الثانى على ميدان السيدة زينب ويصعد بنا إلى الكُتاب الذى يعلو السبيل .

والواجهة الخارجية ذات ثلاث دخلات معقودة ، ترتكز على أربعة أعمدة رخامية ، يتوسطهم ثلاث شبابيك ل سبيل ، ويتخلل العقود ثلاث حشوات رخامية مستطيلة ، يزدان كل منها بشكل بيضاوى يحتوى على طغراء باسم ال سلطان مصطفى ، تحيط به زخارف نباتية على طراز الباروك ، وتحيط الشبابيك إطارات رخامية تزدان بزخارف نبـ ـ بارزة ، وحول الشباك الأوسط أشكال قازات تخرج منها زهور عباد الشمس ، ويتقدم الواجهة دائر مـ الرخام بنفس شكل الواجهة لوضع أكواب الشرب ، كما يتقدم الواجهة أيضاً مصطبة حجرية دائرية .

وحجرة السبيل يزدان جدارها الأسفل بوزرة رخامية ، عبارة عن ألواح مستطيلة يحيط بها إطارات من ا ـام الملون ، والجزء العلوى يزدان ببلاطات خزفية باللونين الأزرق والأبيض ، وفى الوسط إزار خشبى مزخرف برسوم نباتية زيتية . وعلى يسار المدخل ، حجرة ملحقة كانت تحتوى على فتحة نزول للصهريج ، سُدت ا ـن تماماً ، إلا أن فوهة الصهريج مازالت موجودة . أما الكُتاب فمساحته نفس مساحة حجرة السبيل ، وملحق ـ ـة كانت مخصصة لشيخ الكتاب أو «العريف» ، وملحق به أيضاً دورة مياه . وتزدان واجهة الكتاب ببر ئكة محمولة على ثلاث عقود . وهذا السبيل الذى يواجه مشهد السيدة زينب ، هو السبيل الثانى الذى ـ سبيل سلطان عثمانى بالقاهره ، والأول هو سبيل السلطان «محمود خان» بالحبانية .

المصادر :

١- جومار : وصف مدينة القاهره وقلعة الجبل ، ترجمة وتقديم : أيمن فؤاد سيد ، مكتبة الخانجى ، القاهره ، ١٩٨٨

2- Raymond, A. : Les Fontaines publiques (sabil) du Caire à l'époque Ottomane.

القاهره
الحديثة

القاهرة الحديثة

كان تربع " محمد على باشا" على عرش مصر عام ١٨٠٥ .. نقطة تحول هامة فى تاريخ مصر، حيث شكلت توجهات الباشا طريقاً لتحديث مصر فى جميع المجالات، فأحدث إنقلاباً فى أوضاع البنيان الاجتماعى للدولة ، اذأ تم إصلاح نظامها السياسى والادارى ، وتكوين جيش وفقا لأحدث نظم الجيوش العالمية ، وتحديث الاقتصاد وتوجيهه نحو الغرب .. فاندمجت مصر في السياسة والاقتصاد العالميين .

كذللك كان وصول محمد على للحكم - نقطة تحول هامة فى تاريخ القاهرة ، وقد بينت له الصورة الشعبية التى كانت عليها المدينة أنها لاتليق بعاصمة ملكه ، فوجه عنايته الي التخلص من الأنقاض والآكام والدور المتهدمه ، فأصدر أمراً عالياً ، بإعداد حملة من المهندسين للكشف عن منازل القاهرة ، فيشير " الجبرتي " في تأريخه لحوادث ذي القعدة عام ١٢٣١ هجري / ١٨١٥ م الي " أن الباشا أطلق المناداة في البلدة ، وندب جماعة من المهندسين والمباشرين للكشف علي الدور والمساكن ، فإن وجدوا بها أو ببعضها خللاً ، أمروا أصحابها بهدمها وتعميرها ، فإن عجزوا عن ذلك ، أمروا بالخروج منها وإخلائها ويعاد بنائها علي طرف الميري وتصير من حقوق الدولة "..

وفي العام التالي ، أصدر أوامره بضروره كنس ورش الشوارع ، وتنظيف الأسواق ، وإنارة شوارع المدينة وإيقاد القناديل علي أبواب المنازل ، وأن يخصص لكل ثلاثة حوانيت قنديل ، وكان محتسب القاهرة يتابع تنفيذ هذه الأوامر بنفسه .

كان ظهور العربات الفخمة التي تجرها الخيول ، أمراً مدهشاً ومثيراً للفضول ، مثل تلك العربة التي أهدتها الحكومة الفرنسية لمحمد علي عام ١٨٢٤ ، مصحوبة بخطاب " شاتوبريان " وزير خارجية فرنسا ، أعرب فيه عن اعتزازه بالفترة التي قضاها بالقاهرة قبل ١٦ عاماً ، وكتب

الرحالة: جوزيف ديستورميل " ... كان جميع المارة يقفون للتعبير عن إعجابهم الصامت بعربة الباشا ، التي بدت لهم أكثر عجباً من الأهرامات "

في عام ١٨٢٩ ، أزيلت الآكام الملاصقة للنيل شمال قصر العيني ، والتي عرفت بكوم العقارب ، وكان مسطحها تسعة أفدنة ، فأزيلت في ٣٩٣ يوماً ، كذلك أزيلت التلال فيما بين حي الناصرية وجاردن سيتي ، ومساحتها ٣٨ فداناً ، وغرست بأشجار الزيتون ، كما أزيلت الآكام التي كانت تسد الطريق الي شبرا ، بجوار قنطرة الليمون ، لتتحول الي منتزه عام .

وفي عام ١٨٣١ ، صدر قرار بتعمير أراضي الخرائب ، سواء أكانت مملوكة أم موقوفة ، بعد إحصائها وتحديد مساحتها ، وبالرغم من الدمار الهائل الذي ألحقته قوات الحملة الفرنسية بالقاهرة، إلا أن بعض مشروعاتها قد مهدت الطريق أمام الإ جراءات التنظيمية التي اتخذها محمد علي ، وإن ظل الأسلوب التقليدي في معالجة المشاكل الحضرية اليومية ، ويشير الرحالة " سان جون " في عام ١٨٣٢ الي أن الشوارع " كانت فيما مضي قذرة ومقززة ، لكنها الآن - في معظمها - نظيفة بطريقة ملفتة للنظر ، إذا يتم كنسها ثلاث مرات يومياً ، وتقوم أربعمائة عربة تجرها الثيران الصغيرة بنقل القمامة خارج المدينة " .

ويذكر " إدوارد لين " المستشرق البريطاني الشهير ، في عام ١٨٣٥ ، ما تم التوصل إليه لحل مشكلة مصاطب الحوانيت التي كانت تعوق المرور في الشوارع : " لقد أزال محمد علي المصاطب من الشوارع المزدحمة ، ولم يسمح بها إلا في الأماكن الأكثر اتساعاً ، وبشرط ألا يزيد عرضها عن شبرين ، وفي الوقت نفسه ، أمر التجار بدهان حوانيتهم ، وبإزالة السقوف المصنوعة من الحصير ، التي تظلل بعض الأسواق ، ولم يسمح بإحلالها إلا بالسقوف الخشبية ، وبعدها أمر الباشا السكان بدهان واجهات منازل القاهرة باللون الأبيض " .

في عام ١٨٤٣ ، أصدر محمد علي باشا أمراً عالياً ، بإنشاء مجلس للإشراف علي تجميل القاهرة، وتعديل شوارعها ، أسوة بما استحدث بالأسكندرية ، فقد كان عدم انتظام شبكة الشوارع

يمثل إحدي العقبات الرئيسية أمام تحديث المدينة ، وأصبح من الضروري فتح المدينة أمام نوعية جديدة من المرور ...

وفي عام ١٨٤٦ ، صدر الأمر بفتح وتوسيع شوارع الموسكي وبولاق وفم الخليج والقلعة ، وفي إطار " التنظيم الجديد " شرع في شق طريق من الموسكي الي الأزهر ، وهو تقريبا نفس المشروع الفرنسي ، الذي يقطع المدينة من الشرق الي الغرب ، ويفتح المنطقة أمام التجار الأوروبيين ، وسمي فيما بعد " السكة الجديدة " بلغ عرضه ثمانية أمتار وهي أبعاد كبيرة للغاية بالنسبة لشوارع ذلك العصر .

وفي عام ١٨٤٧ ، شرع في توسيع الشارع من باب الحديد الي الظاهر والمتصل بطريق السويس، كما جرت توسعة لشارع درب الجماميز ، وباب الخلق والمشهد الحسيني ، وغرست الأشجار بتلك الشوارع ، وتم تمهيد طريق متسع بين وسط القاهرة وشبرا ، يمر بموضع ميدان رمسيس حالياً ، وغرست علي جانبيه أشجار الجميز واللبخ ، فكان من أجمل منتزهات القاهرة وفي حي شبرا ، شمال غرب المدينة ، شيد محمد علي قصره ، الذي كان نهاية في الفخانة والأبهة

وفي نفس العام ١٨٤٧ ، وفي إطار خطة عمل " مجلس تنظيم المحروسة " رئي تسمية الشوارع وترقيم الدور " كأسلوب أوروبا مما يستوجب المنافع العظيمة للمملكة ، ويورث السهولة لمن يقصد زقاقاً أو بيتاً ، سواء كان من الأهالي أو من الأجانب، استقر الأمر بمجلس تنظيم المحروسة علي التدابير اللازمة لذلك طبق الادارة السنية ..." كما ورد في ديباجة الأمر بهذا الشأن ، الذي أشرف علي تنفيذه أربعة من ضباط المدفعية .

وعندما قرر الباشا أن ينقل مقر الحكم من الأزبكية ، ليعود مرة أخري الي القلعة ، قام بهدم عدد من الصروح التي شيدها سلاطين المماليك ، مثل الإيوان الكبير ، وأعاد رسم أسوارها وتحصينها، وشيد في أقصي الجنوب " قصر الجوهرة " والي الشمال قصور الحريم ، التي تشكل حالياً المباني الرئيسية للمتحف الحربي ، ثم مسجده الجامع الذي شيده علي طراز مساجد استامبول .

وجاء عصر " إسماعيل العظيم " الذى كان نقطة التحول الكبرى فى التطور العمرانى للمدينة ... كان تحديث القاهرة بالنسبة لإسماعيل : رمزاً لارتقاء مصر حضرياً ، وتجسيداً لرغبته العارمة في أن يشهد الغرب - عاصمة أوربية في القاهرة - تحكم دولة عصرية تقوم علي ضفاف النيل ، تمتد من الاسكندرية الي الخرطوم .

تأهبت القاهرة للدخول في عصر جديد من العمران الحضري " "

ففي ربيع عام ١٨٦٧ م ، أقيم معرض باريس الدولي الذي كان فكرة البارون " هاوسمان - " وذروة سجل أعماله الخالدة ، حين كان يشغل آنذاك منصب محافظ السين - " ولأكثر من خمسة عشر عاماً ، استطاع خلالها أن يعيد تخطيط جزيرة المدينة - بقلب باريس ، والمناطق المحيطة بها ، وعمد الي إضافة مساحات من الحدائق المنسقة وسط أبنيتها ، وإنشاء وتمهيد طرق متسعة بها ، في اسلوب صار يعرف باسمه ، كما قام بتزويدها بالمرافق العامة ، وقنوات رائعة تباهت بها باريس ، واستخدمت في نقل الزوار الي ساحة المعرض ، وأعيد تخطيط منطقة - - التي أقيم بها، وكان لهذا المعرض أثر قوي في استحداث أسلوب جديد لتخطيط المدن الأوربية في نهاية القرن التاسع عشر ، أصبح طرازاً اقتدت به كثير من الدول لسنوات طوال ، مثلما حدث مع معرض شيكاغو الدولي لعام ١٨٩٣ م ، الذي أعاد الأسلوب الكلاسيكي الي سابق مجده ، ويحدد الطراز الذي استلهمته حركة " " التي سادت تخطيط المدن الأمريكية أمداً طويلاً ...

هل يمكننا القول بأن بناء القاهرة الحديثة ، كان وفقاً لمعرض باريس ، الذي كان في الوقت ذاته : احتفالاً دولياً بافتتاح قناة السويس ، فاستجابه الخديو إسماعيل لدعوة الامبراطور نابليون الثالث للاشتراك في المعرض ، كان دافعها رغبته في توطيد مكانه مصر بين دول العالم ، وتعزيز مكانته الشخصية كصنو لملوك أوربا . وكان قد أصدر أمراً عالياً في ٦ صفر ١٢٨٤ هجري الي

ناظر الجهادية : " حيث أن حضرة صاحب الجلالة امبراطور دولة فرنسا دعانا بصفة خاصة للحضور الي باريس في ١٥ من شهر يونية القادم لزيارة المعرض المقرر افتتاحه ، وقد تقرر سفرنا بإذن الله تعالي غداً لنكون حاضرين في التاريخ المذكور "

اتخذ الجناح المصري شكل " مدينة متأوربة " جديدة ، أعدت واجهاتها الخارجية علي وجه السرعة ، جنباً الي جنب مع أحياء القاهرة القديمة ، مكتملة بالحدائق العامة وبمسرح فود فيل ودار للأوبرا ، ونموذج لمعبد فيلة وسوق شرقية وفندق علي الطراز العربي ، وغير ذلك مما يمثل طابع الحياة في مصر ... وقد رد إسماعيل باشا هذه اللفتة بتشييد قصر علي النيل خصيصاً للامبراطورة الجميلة أوجيني - كلنت حجراته صورة طبق الأصل من حجراتها الخاصة في قصر التويلري .

سافر إسماعيل باشا الي باريس ، في ١٥ يونيو عام ١٨٦٧ م ، بصحبه حاشية ضخمة ، وفي اليوم التالي لوصوله ، افتتح الجناح المصري ، وكان في استقباله هاوسمان ، وفي ظهيرة ذلك اليوم زار غابة بولونيا والتقي بمهندس الحدائق : " باريه دي شان " الذي قام بتصميم وتنفيذ غابة بولونيا وحدائق " شان دو مارس " .. وربما فكر الخديو - خلال هذا اللقاء - في أن يحيل منطقة الأزبكية الي حدائق منسقة علي هذا الطراز ، يؤكد هذا الرأي ، استعانته بهذا المهندس في تنفيذ خططه لتجميل القاهرة .

وتعددت لقاءات هاوسمان بالخديو خلال تلك الزيارة ، وأعدت له - جولات فخمة - للطواف بأنحاء باريس وزيارة معالمها ، وسجلت الصحف الفرنسية مدي انبهار إسماعيل بالتخطيط الجديد لمدينة باريس ، ولنا أن نستقرئ من أحداث تلك الزيارة ما حفز الخديو لإعادة تخطيط وتطوير القاهرة علي هذا النحو الذي انبهر به .

عاد إسماعيل باشا الي مصر ، بعد توقف قصير في استانبول ، حصل خلاله من الباب العالي علي الفرمان الذي يقضي برفع لقبه من " والي ونائب السلطان " الي خديو ، وهو ما كان ينشده

منذ أمد بعيد ، وتأمل الحالة المزرية لعاصمة ملكه ، وراح ينقب بين أبنيتها المتداعية عن شئ يمكن أن تباهي به باريس أو حتي لندن التي زارها بعد رحيله من باريس ... ولعله ساءل نفسه : عما إذا كانت لديه الجرأة لأن يدعو ملوك أوربا الي مدينه كهذه ، تسئ بفقرها الي حاكمها ، وهو الذي عقد العزم علي أن يقيم احتفالاً أسطورياً يخلد به ذكري افتتاح قناة السويس .

لم يكن لدي إسماعيل متسع من الوقت ، لإحداث تغيرات جذرية تشمل القاهرة الشرقية ، مهما بذل من جهود ، ففكر في استحداث مدينة جديدة ، تمثل واجهة للقاهرة القديمة ، من الجهه الغربية ، وأن تقتصر جولات المدعوين علي المدينة الجديدة ، التي يأمل أن تضارع مدنهم ذاتها ، وكانت سرعة التنفيذ مطلباً ضرورياً لنجاح خطته ، التي أراد لها أن تكتمل قبل الموعد المقرر لافتتاح القناة الذي حدده ديلسبس في نهاية عام ١٨٦٨ م ، غير أن تأخر انتهاء العمل بالقناة عن موعده ، قد منح الفرصة لإسماعيل لاستكمال خططه - علي النحو الذي يطمح إليه - وتأجل الافتتاح الي نوفمبر عام ١٨٦٩ م .

وقد مهد الخديو إسماعيل لمشروعه الكبير ، بإسناد " ديوان الأشغال العمومية " عقب عودته من باريس بنحو شهرين الي علي باشا مبارك واحد من أعظم شخصيات مصر الحديثة - الي جانب مسئولياته كوكيل لديوان المدارس و " مهندس معية سنية " وناظر للقناطر الخيرية ، ثم مأمور لمصلحة السكك الحديدية أيضاً ، وكانت المهمة الرئيسية : إعداد برنامج شامل لتخطيط وتطوير القاهرة الحديثة ، طبقاً لطراز مدينة باريس .

كان اضطراب القاهرة واضحاً جلياً ، فالمجال الحضري الذي تحرك إليه المصريون كان أصبح مسألة سياسية ، مادة يتعين " تنظيمها " عن طريق بناء شوارع رئيسية عظيمة تتفرع من الوسطين الجغرافي والسياسي ، في اللحظة نفسها التي كان فيها المصريون يتحركون عبر هذا المجال ، كانت عقولهم وحياتهم بحاجة الي الانضباط ، في اقتصاد مشترك للنظام .

وشيد حي الإسماعيلية في زمن قياسي ، واحتل نفسي الحيز الذي كانت تشغله مزارع إبراهيم باشا ، وكان لمجانية الأراضي ، هبه من إسماعيل ، دور هام في حركة العمران بالحي ، وقد تمكنت مصلحة التنظيم من إقامة هذا الحي بفضل تجانس وبنية الأراضي التي أعدها إبراهيم باشا ، الي جانب إعفائها من الإجراءات الطويلة والمكلفة لا نتزاع الملكية وتحررها من عمليات التسوية اللازمة .

ويقول علي باشا مبارك ، منسق السياسة الحضارية للخديو ، والذي تولي الإشراف علي تخطيط حي الإسماعيلية ، وإعادة تعمير المناطق المحيطة بالأزبكية :

" هذه الخطة ظهرت في زمن الخديو إسماعيل ، ونسبت إليه ، لأنه هو الآمر بإنشائها ، وهي تمتد بين جسر السبتية ، أعني الطريق الموصل من مصر الي بولاق ، وهو حدها البحري ، وحدها الغربي ترعة الإسماعيلية ، الآخذة من قصر النيل وساحل النيل الي القصر العيني ، وحدها القبلي شارع القصر العالي والخليج المصري ، وحدها الشرقي سور البلد القديم ... أغلب مساحة هذه الخطة هي أرض اللوق ، وأكثر الأحكار التي ذكرها المقريزي ، وميداني الصالح نجم الدين الناصر محمد بن قلاوون وبعض بساتين ، منها البستان المعروف قديماً ببستان الفاضل "

وعلي مر التاريخ ، كانت مشروعات إنشاء القنوات وحماية الأراضي من طغيان مياه الفيضان، تسبق دائما بناء الأحياء أو التوسع في القديم منها ، لذا فقد كان إنشاء الخديو إسماعيل لترعة الإسماعيلية سبباً في ظهور وعمران حيين جديدين : الإسماعيلية والفجالة ، ولم تكن هذه الترعة ، إلا جزءاً من برنامج أشمل لإقامه المرافق والمنشآت العامة ، اضطلع به إسماعيل ومضي في تنفيذه دون عوائق . وصاحب حفر ترعة الإسماعيلية ، عدة مشروعات هندسية لتدعيم الجسور المقامة علي النهر ، تحت إشراف المهندس الفرنسي " بروكار - " وتم تدعيم شاطئ النهر شمال بولاق ، في روض الفرج والساحل ، كما أصبحت جزيرة بولاق التي اشتهرت بالزمالك بمأمن من أخطار الفيضان .

واكب تلك المشروعات العامة ، محولات لتزويد القاهرة بمياة الشرب والغاز ومجار للصرف الصحي ، حيث أصبحت تلك المرافق ضرورة قصوي للمدينة الحديثة .

وفي ١٥ فبراير عام ١٨٦٥ م ، منحت الحكومة المصرية للشركة التي يملكها " شارل ليبون" والتي كانت تضطلع بتزويد مدينة الاسكندرية بالغاز ، امتيازاً لتزويد القاهرة ومصر القديمة وبولاق بالغاز كذلك ، ومنحت الشركة قطعة أرض في بولاق لتقيم عليها محطتها .

وفي ابريل عام ١٨٦٧ م ، احتفلت الحكومة بافتتاح هذا المرفق الهام ، احتفالاً رمزياً ، بإضاءة ميدان باب الحديد ومحطة السكك الحديدية ، ثم امتدت النقلة الحضارية لتشمل منطقة الأزبكية وحي الإسماعيلية الجديد ، وبعض الشوارع الرئيسية ، وقصور الخديو ...

والواقع أن تلاقي " تخطيط المدينة الحديثة " و " تخطيط مؤسسات التعليم " لم يكن محض صدفة ... فأعمال علي باشا مبارك كانت تعبر عن اهتمامات عصره : فالشوارع تمهد ، والمدارس تشيد ، تعبيراً عن إنجاز لنظام ثقافي وترتيب اجتماعي ، كان ينظر إليه كحاجة سياسية أساسية : شكلت سياسة الدولة الحديثة .

وفي عام ١٩٠٦ بدأ حي " جاردن سيتي " في الظهور بعد أن بدأ تقسيم الأراضي وبيعها في منطقة قصر الدوبارة علي إثر إقامة القنصلية البريطانية التي تضم مجموعة من الدور المطلة علي النيل مباشرة ، حيث شيدت العديد من الدور الجميلة وسط الحدائق علي طول شوارع ذات تصميم مستدير علي النمط الإنجليزي .

ولم يبدأ حي " الزمالك " في الإعمار إلا نحو عام ١٩٠٥ عندما اشترت شركة بهلر المنطقة الشمالية من الجزيرة وحولتها الي حي راق ، فأحد الخرائط التي ترجع الي عام ١٩١٠ م مثبت عليها شبكة الطرق الموجودة الآن في الزمالك . وتم ربط الزمالك بجزيرة بولاق بواسطة كوبري أبي العلا عام ١٩١٢ م .

وفي الصحراء الشمالية الشرقية للقاهرة بدأت ضاحية " مصر الجديدة " في الظهور منذ عام ١٩٠٦ م في أعقاب امتياز منح في سنة ١٩٠٥ م الي شركة بلجيكية يرأسها رجل أعمال بلجيكي هو البارون امبان ، حيث باعت الحكومة المصرية للشركة خمسة آلاف و٩٥٢ فداناً صحروياً بسعر رمزي جنية واحد للفدان .

وفي عام ١٩١٠ ازدادت مساحة الامتياز بمقدار اثني عشر فداناً إضافية . وأنشئ خط ترام سريع أطلق عليه " المترو " ربط الضاحية الجديدة بوسط المدينة وكان تصميم المدينة نفسه مستوحي من " المدن ـ الحدائق " التي شيدت في أوربا في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . وفي اتجاه الجنوب نحو حلوان التي تبعد عن القاهرة ٢٧ كم منحت إحدي الشركات حق تقسيم الأراضي علي بعد ١١ كم جنوب القاهرة سنة ١٩٠٧ م حيث نشأت ضاحية " المعادي " .

وبالاضافة الي الكباري التي شيدت علي النيل .. وتزايد شبكات الغاز والكهرباء والمياه والترام والتليفونات .. إستمر إتساع المدينة وفتح عام ١٩٣٠ شارع الأزهر ـ أول طريق يربط شرق المدينة بغربها ، وتنامت الأحياء الواقعة علي الضفة الغربية للنيل ، وازيلت " ثكنات قصر النيل " عام ١٩٤٦ وشيد مكانها مقر جامعة الدول العربية وفندق هيلتون النيل ، كما شيد مجمع التحرير عام ١٩٥٠ ، وأنجزت الثورة مشروع كورنيش النيل ودمرت حدائق الأزبكية ... واستمرت القاهرة تضطلع بدورها العلمي والثقافي من خلال الأزهر ـ الجامع والجامعة ـ وجامعة القاهرة وجامعة عين شمس ... ومن خلال المجامع العلمية والمتاحف الأثرية والعلمية والفنية .

وسط

البلد

■■ حكـــاية الخـديو اسمـــاعيـل وقلـ

وسط البلد

من بستان ابن ثعلب الى عاصمة!!

كان الخديو اسماعيل باشا اول حاكم منذ تسعة قرون . يرتبط بمشروع شامل لتحديث المدينة، وكل الظروف كانت مهيأة له لاستكمال مشروع «مصر الحديثة» الذي بدأه جده محمد علي باشا. كان تحديث القاهرة بالنسبة لاسماعيل رمزا لارتقاء مصر حضاريا، فمهد لمشروعه الكبير بانشاء نظارة (وزارة) الأشغال العمومية سنة ١٨٦٥، واسندها الى واحد من اعظم شخصيات مصر الحديثة.. هو علي باشا مبارك، منسق السياسة الحضارية للخديو.. فأعد مشروع قانون باعادة تنظيم ادارة المدينة، ووضع تقسيما اداريا جديدا لها في ٨ يوليو ١٨٦٨، وقد اقر هذا التنظيم وحدة مدينة القاهرة حيث ضمت اليها كل من بولاق ومصر القديمة. هذا المشروع كان التهيئة الفعلية لتخطيط القاهرة، الذي قام بتنفيذه «جران بك» عام ١٨٧٤

والتخطيط الجديد المستوحى من «اوسمان» مصمم تخطيط باريس الحديثة، اشتمل على شبكة من الشوارع تربط بين اثني عشر ميدانا، وتوضح خريطة جران بك الشهيرة ظهور بعض الشوارع الرئيسية في منطقة القلب مثل: قصر النيل، سليمان باشا، القصر العالي (قصر العيني فيما بعد) منصور باشا، الاسماعيلية (التحرير)..

ويمثل «باب الميدان الصالحي» المعروف بـ «باب اللوق» الأصول التاريخية لمنطقة وسط القاهرة حاليا، فيقول شيخ المؤرخين «المقريزي»: انه كان «أولا بستانا يعرف ببستان ابن ثعلب، فاشتراه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، بثلاثة الاف دينار مصرية من الأمير حصن الدين ثعلب في رجب سنة ٦٤٣ هـ، وجعله ميدانا، وانشأ فيه مناظر جليلة تشرف على النيل الاعظم، وصار يركب اليه ويلعب فيه بالكرة، وكان عمل هذا الميدان سببا لبناء قنطرة الخرق، في موضع موردة سقاني القاهرة، وما برح هذا الميدان يلعب فيه الملوك بالكرة من بعد الملك الصالح، الى أن انحسر ماء النيل من تجاهه.. فانشأ الملك الظاهر بيبرس البندقداري (٦٥٨ ـ ٦٧٦ هـ) ميدانا بطرف أراضي اللوق يشرف على النيل الى أن كانت سنة ٧١٤ هـ فنزل السلطان الملك الناصر قلاوون وانشأ به بستانا، وارسل الى دمشق فحمل اليه منها سائر اصناف الشجر..

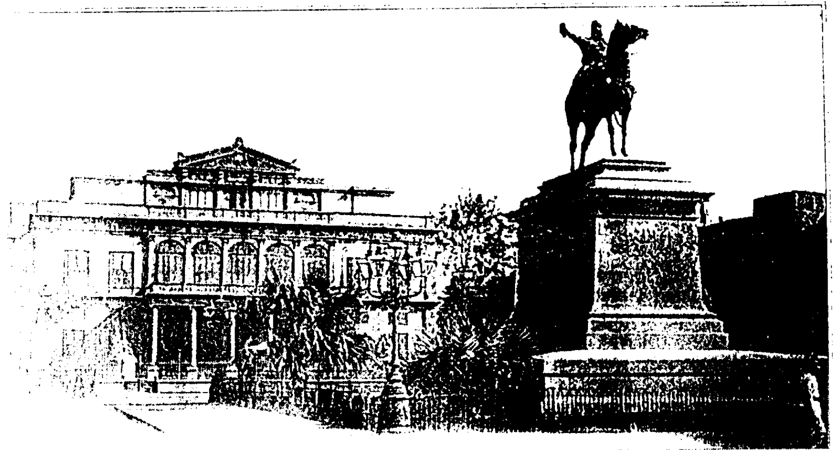
بساتين وقصور السلاطين

المنطقة اذن، كانت عامرة بالبساتين والقصور والدور في عصر سلاطين المماليك، ثم شملها التدهور في العصر العثماني لتتحول الى خرائب وكيمان وبرك..! وفي عهد الخديو اسماعيل، تم تنظيم منطقة الأزبكية وتأسيس حي الاسماعيلية نسبة الى الخديو اسماعيل . وقسمت الأراضي الواقعة اليوم بين شارع عماد الدين وامتداده المعروف بشارع محمد فريد، وشارع الملكة نازلي (رمسيس) وماريبت باشا وميدان الخديو اسماعيل (التحرير) وشارع قصر العيني، وهي التي تشمل وسط المدينة وباب اللوق والتوفيقية ومعروف والدواوين والانشا والمنيرة

و ميدان ابراهيم باشا (التياترو ـ الأوبرا الخديوية) هو مركز منطقة أو حي الأزبكية. كانت دار الأوبرا الخديوية تشغل الضلع الشمالي الشرقي منه وطول واجهتها المطلة علي الميدان ستين مترا وشغلت حديقة الازبكية الضلع الشمالي، وجنوبا كازينو الأوبرا (صفية حلمي) والضلع الغربي كان يشغله فندق الكونتننتال ويتوسط الميدان تمثال من البرونز للفاتح «ابراهيم باشا» ممتطيا حصانه، على قاعدة رائعة من الرخام. وكانت تحيط به نافورات واحواض للزهور في مشهد يأخذ بالألباب. والى الشرق من ميدان الأوبرا الخديوية، كان ما يعرف بـ «خط الافرنج» الذي يحده شرقا الخليج المصري، والمقس (باب الحديد) شمالا، وجنوبا شارع الموسكي وجامع أزبك الذي هدم عند الشروع في تنظيم المنطقة وشق شارع محمد علي (القلعة).. وكان هذا الحي هو محل اقامة التجار الفرنسيين والايطاليين والشوام والاتراك، وكانت اهم معالمه «حديقة روستي» الشهيرة، التي يخترق اراضيها من جهة العتبة الخضراء شارع الأمير فاروق (الجيش) واشتهرت هذه الحديقة باشجار السنط والجميز والزيتون والنخيل الملكي، وحولها كانت تتناثر قنصليات فرنسا، بريطانيا، ايطاليا، الولايات المتحدة، روسيا، بروسيا (المانيا)، اليونان، هولندا، السويد، بلجيكا، النمسا، البرازيل، البرتغال. واشهر الفنادق: شبرد، فيكتوريا، أورينت (الشرق)، الأمراء، السفراء، شارلر، أوربا، فرنسا، النيل، رويال..



صدق أو لا تصدق.. شارع الجمهورية زمان



رحم الله الاوبرا.. احترقت عام 1971

تحولات البنيان

وما بين ميدان الأوبرا الخديوية وشاطىء النيل، في الفترة من عام ١٨٧٤ حتى عام ١٨٩٠، بدأ تقسيم الأملاك الكبرى في هذه المنطقة، وشق شوارع لتوزيع قطع الأراضي الجديدة، وكانت الطرز المعمارية لقصور وفيلات تحيط بها حدائق رائعة. ومنذ عام ١٩١٠، بدأت هذه المنطقة تشهد تحولات ضخمة ومتباينة، تبعا لطلبات سوق العقارات ونوعية الطرز المعمارية، وبدأ انتشار العمارات الشاهقة.. فعلى سبيل المثال المربع الذي تحده شوارع قصر النيل وشريف وثروت وسليمان باشا، ومساحته نحو ٥ ٩ فدان، كان أكبر بلوكات حي الاسماعيلية، تم تقسيمه الى تسع قطع مختلفة المساحات، أكبرها نحو ١٢٠٠ متر مربع، مما ادى الى ظهور شوارع: الشواربي والبورصة والفضل.. وارتفعت العمارات على الأراضي المطلة على الشوارع الرئيسية، وتوارت الفيلات في الشوارع الجديدة، وتدريجيا مع ازدياد الكثافة، اختفت هذه الفيلات لتحل محلها عمارات متراصة شغلت كل الواجهات.

وسراي «يعقوب قطاوي» بك..

عرفة عبده على

الذي كان يحتل عام ١٨٧٤، جزيرة مثلثة تبلغ مساحتها نحو خمسة افدنة، رأسها بميدان سليمان باشا، والواجهة الشرقية تطل على شارع سليمان باشا، والواجهة الجنوبية على شارع الانتكخانة (محمود بسيوني) قسم هذا المثلث في أوائل هذا القرن الى خمسة بلوكات صغيرة، تفصلها شوارع متسعة، واحتل السراي الذي كان مازال قائما احدى هذه البلوكات، وسط حديقة تقلصت الى ممر دائرى!

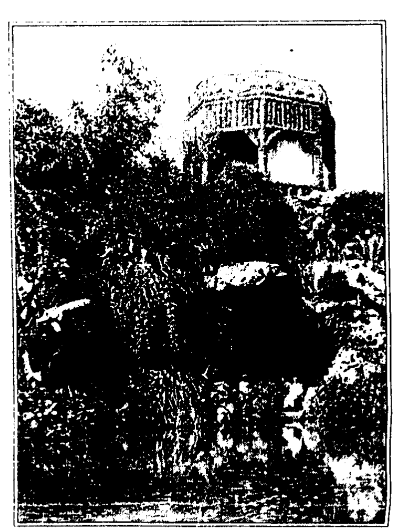
وكانت المفوضية (السفارة) الفرنسية تشغل فيللا وحديقة كبيرة، في ناصية شارعي شريف وقصر النيل، منذ بداية عهد اسماعيل باشا حتى انتقالها للجيزة عام ١٩٣٧، ولم تقسم الأرض التي كانت تشغلها مثل باقي البلوكات، وانما حلت محلها تماما «عمارة الايموبليا» الشهيرة.

وشارع بولاق (فؤاد الأول ـ ٢٦ يوليو) اساسه الطريق الذي قام بتمهيده الفرنسي «لوبير» كبير مهندسي حملة بونابرت. تسهيلا لمرور فرق الجيش الفرنسي وسرعة وصولها من ميناء بولاق الى الازبكية حيث مقر قيادة الحملة بقصر محمد بك الألفي وكان الطريق ما بين بولاق والازبكية يمر فوق قنطرة المغربي فوق خليج الطوابة (الناصري) مخترقا التلال التي حل محلها معهد «ليوناردو دافنشي» ومستشفى فاروق (الجلاء) للولادة، وقد أطلق اسم الألفي بك على الشارع الذي يصل شارع ابراهيم باشا (الجمهورية) بميدان التوفيقية ويتقاطع مع شارع عماد الدين

وشارع المناخ (الملكة فريدة ـ عبدالخالق ثروت) كان لابراهيم باشا مناخ كبير للجمال في هذا الموقع بالقرب من جامع (عثمان كتخدا) الشهير بالكخيا، ثم اشتراه الخديو اسماعيل من دائرة أخيه احمد باشا رفعت وادخله في تنظيم الأزبكية . ثم نسب الشارع الى السياسي المصري الشهير «عبدالخالق ثروت» عقب وفاته عام ١٩٣٢، وعندما اقترن الملك فاروق بالملكة فريدة، اطلق اسمها على هذا الشارع، كما اطلق اسمها على ميدان العتبة الخضراء، وعقب طلاقها عاد اسم عبدالخالق

دينـــة

راطورية



بحيرة حديقة الأزبكية.. طبعا زمان

ثروت الى هذا الشارع.

وشارع المغربى (عدلى باشا يكن) كان ينسب الى القاضى «صلاح الدين يوسف المغربى» وقد شيد لنفسه جامعا عامرا وقبة دفن بها، وكان رئيسا للأطباء فى زمن الناصر قلاوون، وتخرب الجامع بتخرب المنطقة عموما، ولم يبق سوى ضريح المغربى فى مدخل العقار رقم ٣٠ بشارع عدلى، ومن أبرز معالم هذا الشارع: معبد «شعارها شماميم» أو معبد الاسماعيلية الكبير ويمثل اهم المعابد اليهودية بالقاهرة ومقصدا لكبار الساسة الاسرائيليين!

وشارع الساحة (رشدى باشا) فقد كان فى هذا المكان، فى زمن على باشا مبارك، ساحة ينصب فيها سوق لبيع الحمير، ثم نسب الشارع الى «حسين رشدى باشا» رئيس وزراء مصر ١٩١٤ ـ ١٩١٩ تخليدا لذكراه.

أما شارع عماد الدين، فينسب الى الشيخ عماد الدين، وضريحه بالقرب من تقاطع محمد فريد مع شارع الشيخ ريحان، وامتداد شارع عماد الدين من شارع فؤاد حتى شارع الناصرية، اطلق عليه اسم المجاهد المصرى الكبير «محمد فريد» عقب وفاته فى ١١ نوفمبر ١٩١٩.

وتجدر الاشارة الى أن شارع عماد الدين كانت له شهرة فنية هائلة، حتى منتصف هذا القرن، وبلغ ذروة نشاطه خلال سنوات الحرب العالمية الثانية، حيث كانت تنتشر به الكباريهات ودور مسارح أشهر الفرق الفنية فى مصر.

قبل وبعد الثورة

ومن أشهر البنايات بشارع عماد الدين، ما عرف باسم «عمارات الخديو» التى قام بتصميمها وتنفيذها النمساوى «انطونيو لاشاك بك» مهندس بلاط الخديو عباس حلمى الثانى، وقد انتهى من تشييدها لحساب الخديو عام ١٩١١، وتوفى لاشاك بالقاهرة عام ١٩٤٦.

وشارع المدابغ (شريف باشا) كانت مدابغ الجلود بالقاهرة بمنطقة حوش الشرقاوى وسوق العصر جنوبى ميدان باب الخرق (باب الخلق) حتى أوائل القرن التاسع عشر، فتضرر منها الناس، فنقلت الى أرض اللوق، ثم نقلت مرة أخرى عام ١٨٦٥ الى موقعها الحالى خلف سور مجرى العيون. وهذا الشارع يمتد من شارع فؤاد، ويتقاطع مع شوارع عدلى وثروت وقصر النيل الى شارع رشدى باشا، عند مبنى الأهرام القديم وبار اللواء، ثم نسب الشارع الى «محمد شريف باشا ١٨٢٣ ـ ١٨٨٧» وزير الداخلية والخارجية، واول رئيس لمجلس شورى القوانين (١٨٧٥) وتولى رئاسة الوزارة ثلاث مرات اخرها عام ١٨٨٣، وهو جد الملكة نازلى زوجة الملك فؤاد.. وقد اطلق اسم الملكة نازلى على شارع عباس (عباس حلمى الثانى) الذى يعرف حاليا بشارع رمسيس..

أما شارع سليمان باشا (طلعت حرب) فينسب الى الكولونيل سيف، الذى اشتهر باسم «سليمان باشا الفرنساوى» أسس مدرسة الجهادية عام ١٨١٩ وكان له تمثال شهير بالزى العسكرى الشرقى، يتوسط الميدان، الى أن قامت ثورة يوليو، فاستبدل بتمثال للاقتصادى الوطنى «طلعت حرب» الذى اطلق اسمه أيضا على نفس الشارع والميدان، لكن ظل اسم شارع سليمان هو الأشهر والغالب على السنة الناس حتى يومنا هذا!

وشارع ابوالسباع (طلعت حرب باشا ـ جواد حسنى) وهو الذى يصل ما بين شارع ثروت وشارع صبرى ابو علم، وقد لا يعلم الكثيرون أن هذا الشارع قد أطلق عليه اسم طلعت حرب باشا عقب وفاته عام ١٩٤١، ثم أطلق عليه اسم الشهيد «جواد حسنى» وشارع الشيخ حمزة (هدى شعراوى) نسبة الى ضريح الشيخ حمزة بأول هذا الشارع الذى يصل شارع شريف بشارع سليمان باشا، ويتقاطع مع شوارع مظلوم باشا والفلكى ويوسف الجندى. والسيدة هدى شعراوى

وشارع البستان: هو الذى يطلق عليه حاليا اسم «عبدالسلام عارف» تخليدا لذكرى الرئيس العراقى الراحل ويمتد من تقاطع شارعى عبدالعزيز والجمهورية الى ميدان التحرير، مارا بميدان باب اللوق وميدان الفلكى، ويتقاطع مع شوارع مظلوم والفلكى وسليمان باشا..

وكان الطريق المؤدى الى كوبرى قصر النيل، يسمى شارع الخديو اسماعيل (التحرير حاليا).. والى يمين كوبرى قصر النيل الذى كان يسمى كوبرى (الخديو اسماعيل) وكوبرى (الجزيرة) كانت ثكنات قصر النيل، التى شيدها الخديو سعيد، وقد اقامها فى نفس موقع سراى «قصر النيل» التى شيدها محمد على لكريمته «نازلى هانم» واتخذت هذه الثكنات مقرا لنظارة الجهادية (وزارة الحربية) وفى موقع هذه الثكنات بعد هدمها عقب ثورة يوليو، شيد فندق «هيلتون النيل» ومقر جامعة الدول العربية، وفى عام ١٩٠٢، افتتح الخديو عباس حلمى الثانى «المتحف المصرى» فى موقعه الحالى بعد انتقاله من بولاق ثم سراى الجيزة

وقد شيد مجمع المصالح الحكومية على جزء من موقع سراى الاسماعيلية الصغرى، التى شيدت على جزء من الاراضى والأملاك التى وهبها اسماعيل باشا الى قرينته الثالثة «جشم آفت خانم افندى».. ويضم ميدان الاسماعيلية (التحرير) المبنى القديم لوزارة الخارجية (سراى الأمير كمال الدين حسين ابن السلطان حسين كامل) المواجه لجامعة الدول العربية، والى الغرب منه، كان سراى «قوت القلوب الدمرداشية» الذى هدم لتوسعة ميدان كوبرى قصر النيل، والذى كان يسمى ميدان الامير الهامى بن عباس حلمى الأول، وجامع عمر مكرم شيد فى نفس موقع جامع «الشيخ العبيط» الذى ذكر على مبارك أنه كان داخل السور العربى لسراى الاسماعيلية.

وحتى نهاية عصر اسماعيل باشا، ظل هناك جيب كبير من الأراضى المعدة للبناء ـ داخل نطاق وسط المدينة ـ عبارة عن مثلث، يحده جنوبا شارع بولاق (فؤاد) وشرقا شارع نوبار باشا، وفى الشمال الغربى ترعة الاسماعيلية، وهذه المنطقة كانت أسفل مجرى النيل، قبل أن يغير اندفاع الفيضان مساره نحو الغرب، فظلت أرضا منخفضة تتجمع بها المستنقعات ومياه الرشح.. الى أن أمر الخديو توفيق باشا بتصريف مياه تلك المستنقعات وتسويتها وردم الترع الفرعية التى كانت تتخلل هذه المنطقة، وبدأت حركة العمران تزحف اليها، ثم تكاثفت حتى ظهر الى الوجود الحى التجارى المعروف باسم «التوفيقية».

المراجع والمصادر :

١- إسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته، دار الكتب المصرية، ١٩٤٥

٢- اندريه ريمون : القاهرة - تاريخ حاضرة، ترجمة : لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر، ١٩٩٤

٣- أيمن فؤاد سيد : التطور العمرانى لمدينة القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٧

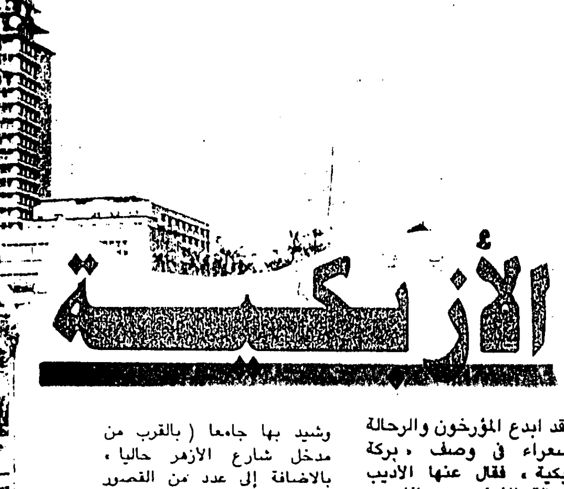
٤- عرفه عبده على : القاهرة فى عصر إسماعيل.

٥- على باشا مبارك : الخطط التوفيقية، الجزء الثالث.

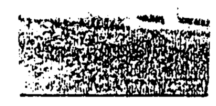
٦- قاهرة إسماعيل : مجلة العمارة، المجلد الخامس، ١٩٤٥

7- Marthelot, P. : Le Caire, Nouvelle Métropole, An. Isl. VIII, 1969

8- Theick, J.P. : Le Caire dans les Khitat al-Tawfiqiyya de Ali Pacha Mubarak, dans l'Egypte au XIXe siecle, GREPO, Paris, 1982







الأزبكية

لقد ابدع المؤرخون والرحالة والشعراء فى وصف « بركة الازبكية » فقال عنها الاديب والرحالة الفرنسى « سافارى - C. E. Savary وقد شهد بها احتفالات « كسر الخليج » ابان زيارته لمصر عام ١٧٧٦ واستقر بها ثلاث سنوات .

« كان اكثر الازدحام - بطبيعة الحال - عند الازبكية وهى اوسع مناطق المدينة . ويبلغ محيطها اكثر من نصف فرسخ ، وتكون بحيرة رحبة محاطة بقصور البكوات ، وهى أجمل بيوت المدينة ، وتضاء بانوار مختلفة الالوان ، وتسبح فوقها الاف من المراكب ذات سوار تتدلى منها المصابيح المضيئة ، مكونة هالة من اضواء متحركة ، تتغير مشاهدها كل لحظة ، وعند قدوم الليل ، نرى كثيرا من المراكب ذهبية اللون ، الخاصة بكبار الشخصيات ، يتنزهون بها مع زوجاتهم ، ولا يمضى يوم دون ان تطلق فيه الالعاب النارية ، او دون ان يسمع فيه عزف الموسيقى وتفتح المشربيات والستائر ، ويرى فى النوافذ كثير من سيدات الطبقة الراقية ، لم يكن يتاح لعين ان تلمح احداهن فى الأوقات العادية ، إن هذا فى الحقيقة ، واحد من اجمل المناظر التى يمكن لليل ان يهبه للعيون » .. "

وتنسب « الازبكية » إلى الامير : سيف الدين ازبك بن ططخ الاشرف الظاهرى ، الذى كان يقطن بالقرب من هذه المنطقة ، فاراد ان ينشىء مناخا لخيوله وجماله ، فمهد ما كان بها من كيمان ، وحفر بها البركة المنسوبة اليه واجرى اليها الماء من الخليج الناصرى ، وجدد عمارة قنطرة « خليج الذكر » وبلغ ما انفقه مائتى ألف دينار ، وشيد بها جامعا (بالقرب من مدخل شارع الازهر حاليا » بالاضافة إلى عدد من القصور والربوع والقياسر والحمامات والحوانيت ، حتى صارت « مدينة على انفرادها » كما قال المؤرخ العلامة ابن إياس.، وذكر على باشا مبارك أن مساحة البركة كانت ستين فدانا ..

وعن الأزبكية ، قال : الحسن بن محمد الوزان « ليون الافريقى » فى سفره الفريد « وصف إفريقيا » .. « ساحة كبيره يوجد بها قصر فسيح ومدرسة عجيبة بناها مملوك اسمه « يزبك » كان فيما مضى مستشارا لاحد السلاطين ، وسميت الساحة من اجل ذلك « الازبكية » يجتمع فيها عادة جميع سكان القاهرة ، كل يوم جمعه ، بعد الصلاة والخطبة ، لانهم يجدون فيها بعض المسليات القبيحة كالحانات والعاهرات ، ويجتمع ايضا فى هذه الساحة . عدد كبير من البهلوانيين وبالاخص من يرقصون الابل والحمير والكلاب وهو منظر ممتع حقا .. ويشاهد ايضا فى ساحة الازبكية ، ضاربون بالسيف والعصا ، ومصارعون واشخاص يتغنون بالوقائع بين العرب والمصريين اثناء فتح مصر ، فما يقال ويعمل هناك من حماقات وفكاهات وكلام بزىء ، كل ذلك لا يدخل تحت عد ، ويسلى الناس ، لكنه يتعذر كل ذلك فى مؤلف كهذا » ! وكان الحسن الوزان قد شهد فتح العثمانيين لمصر فى ابريل سنة ١٥١٧ ، ومكث بها عدة شهور ، ثم صعد النيل إلى السودان ، ثم ابحر إلى جده .

كما اشار الكاتب والرحالة « دى تيفينو » الذى زار القاهرة عام ١٦٥٦ ، وتحدث عن مشاهداته القاهرية فى كتابة

« رحلات فى أوروبا وآسيا وافريقيا » .. فبالقرب من الطريق المؤدية إلى بولاق ، استرعى انتباهه حى أسماه « لزبيكه » يقصد الأزبكية . وقال أن الماء يبقى فيه نحو اربعة أو خمسة أشهر كل عام ، وشيدت حول البركة ، قصور رائعة الجمال ، للبكوات وأمراء البلاد ، ليمكثوا بها بضعة أيام من حين إلى آخر ، طلبا للراحة والاستجمام .

وقد أشاد المؤرخ العظيم « الجبرتى » إلى شهرة الأزبكية كمركز للتنزه والملذات والمتع الليلية فى وقت الفيضان . كما انها كانت منطقة جذب للطبقة « البورجوازية » من الأمراء والبكوات وكبار التجار والأعيان ، ومن أشهر القصور والدور التى كانت تشرف على بركة الأزبكية : دار السيد إبراهيم بن سعودى ، وكانت دارا عظيمة عنى بتشييدها ، ثم آلت إلى الأمير محمد بك الألفى سنة ١٧٩٦ ، فهدمها وتغالى فى إعادة بنائها ، ولم يسكن بها سوى أيام ، حتى إغتصبها الفرنسيون وأقام بها نابوليون واتخذها مقرا لقيادة الحملة ، أيضا من الدور الشهيرة التى أوردها الجبرتى ، دار الشيخ عبدالله الشبراوى شيخ الأزهر ، والسيد الدمرداش ، والشيخ المرحومى ، والشيخ حسن المقدسى ، وحرم الشيخ محمد الجزايرلى ، والسيد احمد الحموى .. كذلك شيد على بك الكبير سنة ١٧٧٠ قصرا لزوجة الست نفيسة ، وقصر رضوان بك ، والدار العظيمة للست خاتون محظية على بك بلوط ثم زوجة مراد بك ، وكانت الست خاتون ذات ثراء وعز وسيادة وكلمة نافذة وهِ اكثر نساء الأمراء من جواريها » !

وعلى الحافة

كانت « دور الشربينى »

قال عنها الجبرتى « إحدى دور المجد » الحقت بها مكتبة قيمة حافلة ، وكان مسموحا فيها بالاطلاع والاستعارة خارجها ، ثم انتقلت ملكيتها إلى الأمير رضوان كتخدا الجلفى ، فأدخل عليها كثيرا من التعديلات ووسع حدائقها وأباحها للنزهة ، ثم آلت إلى طاهر باشا ناظر الجمارك ثم الخديو عباس الأول الذى هدمها وأعاد بناءها . أيضا كانت « مدرسة الألسن » تطل على البركة ، ومديرها « رفاعة الطهطاوى » ظل ناظرا لها طيلة خمسة عشر عاما ، وتخرج على يديه العشرات من رواد النهضة الحديثة بمصر ، إلى أن اغلقها عباس الأول سنة ١٨٥٠ ، الذى كان عصره - ردة قصيرة - عن سياسة التحديث التى بدأها جده محمد على ، فتحولت إلى فندق للقوات البريطانية القادمة من الهند ، عرف فيما بعد بفندق « شبرد » !

وكان يشرف على بركة الأزبكية ، حى الاقباط ، المعروف بحارة النصارى ، وكانت دوره حافلة بالمشربيات الرائعة ، وكان بهذا الحى عدد من الفنادق والكثير من الحوانيت والمقاهى .

وفى تقارير القناصل الاجانب ، التى كانت تكشف عن حقائق رائعة وجوانب هامة فى تاريخ مصر الحديث ، نجد تقريرا هاما بعث به « بيدسلى » قنصل الولايات المتحدة إلى وزارة الخارجية الامريكية ، بتاريخ ٩ نوفمبر عام ١٨٧٢ ، أورد فيه وصفا لمنطقة الأزبكية : قال فيه :

« كانت البقعة الشاسعة المعروفة باسم الأزبكية تقوم على

←

جوانبها مجموعات من الدور الاوربية ، يتألف منها الحى الافرنجى ، ولم تكن هذه البقعة - ايام الفيضان إلا بحيرة واسعة ، فإذا إنحسرت المياه ، اصبحت مأوى للكلاب ، ومسرحا للجنايات ومجتمعا للسوقة ، وقد إستحالت اليوم إلى حديقة عمومية رائعة الجمال ، ذات ممرات رملية ، وطرقات ظليلة ، ومروج خضراء ، ومما يأخذ فيها بالألباب : بحيرة صناعية ، آية فى الجمال ، وتحف بهذه الحديقة ، ابنية اخاذة المنظر ، منسقة على طراز واحد »

وعند الشروع فى عملية تنظيم ميدان العتبة وفتح شارع محمد على (القلعة) هدم جامع أزبك وكثير من البيوت والزوايا والحمامات والربوع والحوانيت ، وردمت البركة عام ١٨٦٤ ، بعد اكثر من اربعة قرون من حفرها ، وشيدت حديقة الازبكية ، واقيمت بها الجبلاية الصناعية ، وزرعت بها الأشجار النادرة ، واشرف على تصميم الحديقة وتنفيذها المهندس « باريل بك » وهو الذى نظم حدائق الاورمان ، وصمم سراى الجيزة ، وانشىء بالحديقة مسرح كوميدى ، فى سنة ١٨٦٩ ، انشئت دار الاوبرا الخديوية ، التى إحترقت سنة ١٩٧٢ . فى عام ١٨٧٣ نصب تمثال إبراهيم باشا ، وفى عام ١٨٩٩ شيد فندق الكونتننتال .

وكان يحيط بحديقة الازبكية سور ضخم تتخلله ابواب ، وكانت مساحة الحديقة نحو ٢١ فدانا ، وسميت الشوارع المواجهة للابواب بأسمائها - بعضها باق الآن - فشارع الباب الشرقى يواجه موقف الاتوبيسات العامة بنهاية شارع ٢٦ يوليو ، وشارع الباب البحرى يصل الى شارع نجيب الريحانى .

فى ٢٧ إبريل سنة ١٩٥٤ ، امتد شارع ٢٦ يوليو ليخترق الحديقة ويقسمها إلى شطرين ، وفتحت ابوابها لجماهير الشعب ، بعد ان ازيلت اسوارها ، واقيم بها مسرح للعراس ، ومسرح ٢٦ يوليو ، اما مسرح الازبكية (المسرح القومى) فقد كان موجودًا من قبل ، وكانت تديره شركة مصر للتمثيل والسينما - إحدى شركات بنك مصر - وكان بجوار المسرح ، داخل الحديقة ، مكان يستخدم سينما فى الهواء الطلق صيفا ، وللباتيناج شتاء .

واود أن الفت نظر القارىء والباحث ، إلى اهمية تامل تلك الصور التى يعرضها لنا « جسر الحنين » بحس تاريخى : يمكننا من التوصل إلى فهم اعمق وادق للاحوال الانسانية الدائمة التقلب والتغير .. واذا كانت صور مصر التى وصلت الينا تعتبر - وثائق من نوع خاص - وسجلا هاما لتاريخنا الاجتماعى ، الا ان هؤلاء المصورين والرحالة والسائحين وعلماء الآثار ، قد وثقوا لنا - مصرا اخرى - لم يعد لها وجود الآن .. ولم يبق منها الا هذه الصور .. !!

عرفة عبده على

المراجع والمصادر :

١- الحسن الوزان « ليون الافريقى » : وصف افريقيا ، تحقيق : عبد الرحمن حميده ، الرياض ، ١٩٧٩ م

٢- الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، الجزء الثالث .

٣- عبد الرحمن زكى : خطط القاهرة فى أيام الجبرتى (عبد الرحمن الجبرتى - دراسات وبحوث)

٤- على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ، الجزء الثالث .

٥- عرفه عبده على : القاهرة فى عصر إسماعيل .

6- Behrens-Abouseif, D. : Azbakiyya and its environs, IFAO, le Caire, Paris, 1985.

7- Savary, C. E. : Lettres Sur l'Egypte, 3 Vols, 1785-1786

8- Thevenot : Voyage de M. R. De Thevenot au Levant, Paris, 1872

حكاية باب الحديد .. والشيخ عنان

باب الحديد .. هو أحد أشهر معالم القاهرة ، والأصل التاريخى لهذا المكان ، قرية كانت تعرف قبل فتح العرب لمصر باسم : « أم دنين » .. ثم عرفت بقرية « المقس » . او المقسم ويشير المؤرخ العلامة « المقريزى » فى خططه ، ان الخليفة المعز لدين الله الفاطمى قد أنشأ بها دارا لصناعة السفن ، لوقوعها على ساحل النيل مباشرة ، كما شيد بها الخليفة الحاكم بأمر الله جامع المقس . وكانت المراكب تنتهى فى سيرها بساحل النيل عند هذا الجامع المطل على الخليج الناصرى .

وفى عهد السلطان صلاح الدين الأيوبى ، امتد سور القاهرة حتى المقس .

وكان بها أيضا « منظرة المقس » المطلة على النيل ، والتى أعدت لنزول الخليفة بها ، عند تجهيز الأسطول الى الغزو .

وتمضى السنون ، وتنزوى شهرة « ميناء المقس » مع انحسار ماء النيل عن الساحل ، وتقلصه عن سور القاهرة ، وتكونت رمال ومجموعة جزر ، صار النيل يطمى عليها ، حتى أصبحت أرضا صالحة للزراعة والسكن مع بداية القرن الثامن الهجرى ، وفى سنة ٧١٣ هـ صرح السلطان الناصرى محمد بن قلاوون بالبناء والتعمير فى هذه الأراضى ، وانتشرت البساتين والمزارع والمنازل ، ومع توالى انحسار مياه النيل ، تتصل بأرض باب اللوق وجزيرة بولاق .

وبوصول الأتراك الى مصر ، عاثت يد الاهمال بعنف ، فاندثرت كثير من معالم العز والبهاء والرخاء ، وأطل القبح والخراب وامتدت الأكام وتلال القاذورات والأنقاض .. من باب الحسنية الى الفجالة حتى باب الحسينية . ومن قنطرة

الليمون الى طريق السبتية وابو العلا ، مرورا بقصر العينى الى مصر القديمة .

وكان عصر محمد على فاتحة مرحلة جديدة فى تاريخ مصر ، والقاهرة على وجه التجديد ، والمجال لايتسع لسرد كل مافعله من أجل تحديث القاهرة ، بدءا من الاهتمام بالنظافة والصحة وتوفير الامن . مرورا بانشاء الشوارع المتسعة وتمهيدها وترقيم المنازل والاضاءة بمصابيح الغاز ، الى تشييد القصور العظيمة والحدائق والمتنزهات العامة .. بايجاز أخذ بكل ماهو جديد - مع الحفاظ على شواهد المجد القيم .

وقام ابراهيم باشا بتكليف مهندس التنظيم مسيو « بونفور » بازالة الاكام الواقعة بين النيل وبولاق حتى الفسطاط ، وطلب اليه انشاء متنزهات وحدائق مكانها ، وازالة مابين بابى الفتوح والنصر ، ومن الظاهر والفجالة الى باب الحديد ، ووضع تحت تصرفه ماشاء من الاموال والرجال .

وامتد شارع متسع ممهد ، من باب الحديد الى قصر محمد على بشبرا ، غرست على جانبيه أشجار الجميز واللبخ ، فكان من أجمل المتنزهات ، واستكمل طريق بولاق من باب الحديد وغرست به الأشجار ، وامتد شارع الفجالة من باب الحديد الى باب العدوى .

ومن المعالم الشهيرة بميدان باب الحديد التى اندثرت ، جامع « أولاد عنان » .

وكان امام جامع عنان - بستان كبير - حتى زمن الحملة الفرنسية ، حيث حددوا موضعه على خريطة القاهرة .

وقد شيدت المحطة الرئيسية للسكك الحديدية ، فى نفس موقع ميناء المقس ، وتجدر الاشارة الى أن نهاية السكة الحديدية ، بين القاهرة والاسكندرية ،كانت فى امبابة ، قبل انشاء كوبرى امبابة القديم سنة ١٨٩٠ ، حيث كانت معدية تسمى « البخارية » تنقل الركاب الى القاهرة ، وقد اخذت المحطة اسمها من احدى البوابات الشهيرة فى سور القاهرة ، التى عرفت باسم « باب البحر » ثم اشتهرت باسم « باب الحديد » الذى اصبح علما على هذه المنطقة ، وهذه البوابة ازيلت قبيل سنوات من نهاية عهد محمد على ، بعد أن كانت ابرز معالم المنطقة فى الماضى ، وكان اختيار هذا الموقع لانشاء المحطة الرئيسية - خارج حدود المدينة أنذاك - عاملا مؤثرا فى التطور البيئى للمنطقة المحيطة بها ، فلم يقتصر وجودها على تشجيع حركة العمران فحسب ، بل كانت ايضا مقصدا للكثير من المهاجرين الى المدينة - المصريون والاجانب على السواء - وكان بالميدان تمثال « نهضة مصر » الذى ابدعه الفنان العبقرى « محمود مختار » الذى عرض نموذجا مصغرا لهذا التمثال فى معرض الفن بباريس سنة ١٩٢٠ فنال عنه الميدالية الذهبية ، ولما زار الزعيم سعد زغلول اتيليه مختار بباريس ، فنال منه هذا التمثال كل الاعجاب وطلب منه أن ينفذه مكبرا ، ليقام بأحد ميادين القاهرة ، تذكارا خالدا لنهضة مصر ، وتولى « أمين بك الرافعى » مشروع اكتتاب شعبى لتنفيذ فكرة التمثال ، وبالفعل تم صنعه من الجرانيت الوردى ، واحتفل بازاحة الستار عنه سنة ١٩٢٨ ،

وفى عام ١٩٥٥ ، نقل تمثال نهضة مصر الى موقعه الحالى فى مواجهة كوبرى الجامعة ، ووضع مكانه بميدان باب الحديد ، تمثال رمسيس الثانى - بعد نقله من ميت رهينة - وهو ثالث فراعنة الأسرة ١٩ ، والذى نال حظه كاملا من عطاء التاريخ ،

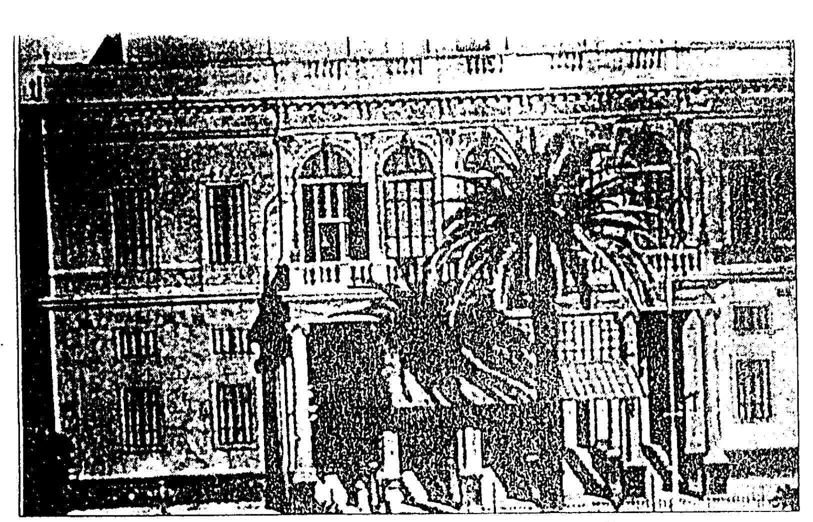
واطلق على ميدان باب الحديد ، ميدان رمسيس ، وسوف ينقل هذا التمثال الشهير الى مقره الجديد ، بأول طريق القاهرة الاسكندرية الصحراوى ، وفى انتظار الاسم الجديد للميدان ! ..

يجدر بالذكر ايضا ، انه كان بالقرب من محطة السكك الحديدية « موقف الحمير » الشهير ! .. حيث كانت الحمير هى وسيلة الانتقال المتيسرة والشائعة ، وكانت المدينة تحتشد باعداد غفيرة منها ، وقد وصف لنا بعض الرحالة ، جولاتهم بشوارع القاهرة وهم يمتطون ظهور الحمير وصيحات المكارية فى المارة ليلتزموا جانبى الطريق ، وسروج الحمير المصنوعة من الجلد الاحمر او المطرزة بالفضة والقصب تزينها أزرار نحاسية وشرائط ملونة ،

واهم الشوارع التى تتفرع من ميدان باب الحديد : شارع رمسيس (الملكة نازلى) وكان الاهتمام بالغا بنظافته ، وغرست على جانبيه اشجار النخيل ، فكان من اجمل شوارع القاهرة ، وشارع الجمهورية (ابراهيم باشا) وشارع باب البحر ، وكلوت بك ، والفجالة .

المصادر :

١- الخطط المقريزية : الجزء الثانى .
٢- الخطط التوفيقية : الجزء الثالث .
٣- اندريه ريمون : القاهرة - تاريخ حاضرة ، ترجمة : لطيف فرج ، دار الفكر للدراسات والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٤
٤- أيمن فؤاد سيد : التطور العمرانى لمدينة القاهرة منذ نشأتها وحتى
[illegible] ، ١٩٩٧



لقطة نادرة لدار الاوبرا الخديوية فى بداية هذا القرن .

دار الأوبرا الخديوية

عرفه عبده على

هذه الدار الشهيرة، التى كانت كالقصر المسحور، الذى لاتدب فيه الحياه الامع انتشار الظلام، فتزهو وتتالق بالاضواء، وهى تستقبل عليه القوم والسعداء، ممن ابتسم لهم الحظ لقضاء امسية لاتنسى بين مباهج الفن الراقى.

لم يضن إسماعيل باشا على دار الأوبرا بكل مايحيطها بالروعة، ويضفى عليها جمال الفن وجلاله، لتكون إحدى فقرات الاحتفاء بضيوف إفتتاح قناة السويس، فاسند الخديو الاشراف على أعمال البناء الى المهندس الايطالى «بيترو افوسكانى» الذى شيد قصر راس التين لمحمد على باشا، وكان احد مستشارية المقربين، كما كان صديقا لمعظم حكام اوروبا وفنانى عصره، كذلك اشرف على تنفيذ ديكورات قصور العباسية، الحلمية، الجزيرة، وشبرا، ومسرح سعيد باشا بقصر القبارى، ومسرح زيزينيا بالاسكندرية .. وتصميم البناء الرئيسى كان للمهندس الايطالى«سكالا».. والمبنى الخلفى من تصميم المهندس «جيوفانى سالومون» واكتمل البناء فى اربعة شهور..!

شيدت دار الأوبرا الخديوية على طراز اوبرا«لاسكالا» بميلانو، وتكلفت نحو خمسة عشر مليونا من الفرنكات، وكان أساسها من الاحجار، وباقى المبنى من الخشب المستورد من لبنان، المغطى بالجص، بفرض الانتهاء من نباتها فى الوقت المحدد.

افتتحت دار الأوبرا، فى اول نوفمبر سنة ١٨٦٩، باوبرا «ريجوليتو» وكان بالمقصورة الملكية. الخديو اسماعيل والامبراطورة اوجينى ونابليون الثالث وعاهل النمسا الامبراطور فرانسوا جوزيف، وولى عهد بروسيا، واحتشدت المقاصير وصالة الدار بكبار الشخصيات فى عالم السياسة والادب والفن فى اوربا .. ومن بين فواصل الستائر الفخمة المطرزة باللونين القرمزى والذهبى . وكنت تلمح أجمل العيون، وتيجان مرصعة بالجواهر، وصدور رائعة تزيد الدرّ واللآلى، تألقا..!

وكانت الدار تسع لـ ٨٥٠ مشاهدا، واعدت بها اكثر من استراحة، وقاعة خاصة للتدخين، حيث حرم التدخين اثناء مشاهدة العرض، صيانة لقداسة الفن.

امتد موسم الافتتاح الى ١٤ مارس سنة ١٨٧٠، وشمل ٧٠ حفلة !.. وهو عدد من الحفلات لم يكن متاحا فى موسم واحد وفى دار واحده، الا للنادر من المسارح العالمية، وقد شملت العروض ابداعات فنية خالدة، منها: «تروفاتورى»، «حلاق اشبيلية»، «فاوست»، «هيلين الجميلة» التى كانت موضع اعجاب الخديو، «اكسير الحب»، «سميراميس»، «غادة الكاميليا»، «عروس الأربعاء السمينة»!

كانت سعة القاعة ٣٠٦ مقاعد، وستين مقصورة موزعة على ثلاثة طوابق، بكل مقصورة خمسة مقاعد على الاقل، وقد خصصت المقصورات الثلاث الأولى بالطابق الثانى، على اليمين، لحريم السراى، وكانت تتصدر واجهة هذا الطابق : قاعة المأدب الرسمية الفاخرة، بجوارها قاعة الموسيقيين، ثم القاعة الفخمة التى كانت شرفتها تطل على الميدان، وعرفت بـ «قاعة اسماعيل» وهى على شكل مسرح صغير بمقصورتين تمتدان على الجانبين، مرتفعتين بمستوى يكفل حجب الحريم فيهما عن الرؤية، أثناء الحفلات ذات الطابع الخاص، سقفها محلى برسومات زيتية، تتوسطها اربع لوحات لمغنيات اوبرا شهيرات : باتى، فريتشى، جريمالدى، بيكولومينى ..

المقصورات الثلاث التى كانت مخصصة للحريم، كان يصعد اليها بدرج خاص ملحق بالحديقة. وقد غشيت بالنقوش المذهبة، وستائر حريرية غاية فى الفخامة، وقد وضع امامها حاجز معدنى مشغول باشكال نباتية جميلة، مطلى باللون الابيض، متناثرة عليه باقات من الزهور الذهبية.

ومبنى الملحق كان يتكون من ثلاثة طوابق، الاول خصص لتغيير الملابس، والطابق الثانى لتخزين المناظر، باسلوب روعى فيه الترتيب والتصنيف، بشكل يسهل معه استخراج المنظر المطلوب ثم اعادته الى مكانه، وكان يغلق ببوابة ضخمة حديدية، كأنها لاحد حصون او قلاع أوربا فى القرون الوسطى، وقد قبع فى هذا المخزن ولمدة نصف قرن تقريبا، نموذج لسفينة شراعية استخدمت فى اوبرا«الافريقية» للفنان «مايربير» توحى بمشهدها وما احاط بها من لوحات ومناظر : كاننا وسط ميناء يموج بالسفن ذات الشراع، بينما طويت لوحات الخلفية كاملة ورصت بعضها فوق بعض، وقد ظل مشهد هذه السفينة راسخا فى اذهان العاملين بالدار.. اما الطابق الثالث، فقد قسم الى عدة غرف، لحفظ الملابس والاثاثات، فكان وحده متحفا يحوى ثروة فنية هائلة، بما ضمه من ثائق كالخطابات والعقود الموقعة بين فيردى والخديو، واسكتشات رسمها ماريت لملابس اوبرا عايدة، ودروع وسيوف وحلى بلغ من روعتها ودقة صنعها حدا يضاهى صحيح الجوهر، وملابس واثاثات فخمة تناسب العصور التاريخية المختلفة، وكان يتولى صنعها فريق من امهر الحرفيين فى ورشة خاصة بنفس الطابق، الذى ضم ايضا مرسما للمصورين، وورشة لحياكة ملابس الروايات الجديدة، وترميم الملابس القديمة..

فى ٢٤ ديسمبر سنه ١٨٧١، عرضت اخيرا .. وبعد سلسلة من المفاوضات والعقبات «اوبرا عايدة» بحضور اسماعيل باشا وكبار ضيرفه، وكانت سعادته تفوق كل وصف، بالنجاح المذهل الذى حققته «عايدة» .. مما جعل «درانيت» Draneht اول مدير للدار يبرق عقب الفصل الثانى الى «فيردى» بالبرقية التالية:

«المايسترو فيردى - جنوه

لقد لاقت اوبرا عايدة نجاحا يفوق الخيال، وقد قوبلت الخاتمة الموسيقية الاولى والثانية واداء ثنائى السوبرانو والقطعة الموسيقية الكبرى والمشهد العام بحماس رائع، ولقد حيا الجمهور المايسترو الغائب - بعاصفة من التصفيق والاعجاب .. كل تهنئتى»

ويجدر بالذكر، ان درانيت كان صيدليا فى بلاط محمد على باشا، ومديرا للسكك الحديدية فى عهد سعيدا.. ثم مديرا للمسرح الكوميدى والمسرح الخاص بقصر النيل. وكان قد بعث الى فيردى برسالة من الخديو، نصها: «ان باختيارك ايها المايسترو العظيم، ان تكون مبدعا موسيقيا لاوبرا تدور وقائعها فى دولتى، أكون قد حققت امنيتى فى ان اخلق انتاجا وطنيا، ربما يصبح واحدا من امجد الذكريات لعصرى»! .. وتحققت نبوءة اسماعيل..!

وكان عالم المصريات الفرنسى الشهير «أوجست ماريت» قد كتب نص «عايدة» وابدع تصميم الملابس التاريخية وبعض المشاهد، وقد اهدى ابنه «الفريد» بعض وثائق هذا العمل الى المكتبة الوطنية بباريس، وتعرض حاليا بمتحف دار الاوبرا الفرنسية، ولقد كانت القاهرة من أجمل دور الاوبرا فى العالم، وسرعان مافاقت شهرتها أعرق دور الاوبرا فى اوربا: «لاسكالا» بميلانو، ودار اوبرا باريس و«الكوميدى فرانسيز» ودار اوبرا بروكسل، كذلك لم تشهد ايامنها من الفرق العالمية، ومن مشاهير الضيوف والزوار، مثلما شهدت تلك الدار التى شيدها اسماعيل !

واول مدير مصرى لدار الاوبرا، وكان «منصور غانم» لمدة عام ١٩٣٧ - ١٩٣٨، وقد تولى هذا المنصب من خلال السلم الوظيفى وليس «السلم الموسيقى» ! ثم خلفه اشهرهم الفنان «سليمان بك نجيب» سليل الباشوات الذى مزج الفن بالواقع فى بساطة وتلقائية، لمدة ١٦ عاما، حتى سنة ١٩٥٤، ثم الشاعر «عبد الرحمن صدقى» الذى قال «اذا كانت القاهرة هى عاصمة مصر، فدار الاوبرا هى عاصمة القاهرة!» وفى ١٩٥٦، تولى ادارتها المهندس محمود النحاس، ثم الفنان التشكيلى «صلاح طاهر» واعقبه الفنان «صالح عبدون» الذى كان اول مدير اوركسترا سيمفونى حكومى..

أخر عرض بالدار كان «كارمينا بورانا» لكارل اورف، وقاد الاوركسترا الفنان «بيلارد نيللى» وذلك قبل اربعة ايام من إتمامها العام الثانى بعد المائة.. وقبل شهرين من انقضاء مائة عام على مولد «عايدة» .. وكانت النهاية الحزينة المريبة!!

المصادر :

١- صالح عبدون : صفحات فى تاريخ أوبرا القاهره ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهره ، ١٩٧٣
٢- إسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته ، دار الكتب المصرية ، ١٩٤٥
٣- عرفه عبده على : القاهره فى عصر إسماعيل .

مصر الجديدة :

يعد إنشاء هذه الضاحية من أهم المشروعات العمرانية التي أنجزت في أوائل القرن العشرين ، وهي تقع علي ربوة ترتفع عن مستوي النيل ، بالقرب من أطلال مدينة عين شمس القديمة وقد سميت باسمها اليوناني القديم " هيليوبوليس ـ Héliopolis " وفي هذه الهضبة شبه الصحراوية والتي تعتبر إمتداداً للعباسية ، راودت رجل الأعمال البلجيكي " البارون امبان " فكرة تأسيس مدينة جديدة ، علي مسافة عشرة كيلو مترات شمال القاهرة ، في موقع يتسم ببعض المزايا المناخية .

نجحت مفاوضات البارون امبان مع الحكومة المصرية ، والتي بدأت في ٢٠ مايو سنة ١٩٠٥ ثم صدر مرسوم تأسيس " شركة واحات هليوبوليس " في ١٤ فبراير سنة ١٩٠٦ وباعت الحكومة المصرية للبارون وشريكة في المشروع " بوغوص نوبار باشا " ٥ آلاف و٩٥٢ فداناً صحراوياً بسعر زهيد : جنيه واحد للفدان ، ومع ذلك كانت شروط الامتياز قاسية الي حد ما ، حيث فرض شرط بعدم تخصيص اكثر من سدس المساحة المباعة لشق الشوارع وتشييد المباني وزرع الحدائق، ومباني الخدمات كالمساجد والكنائس والفنادق والمدارس ، وأن تترك باقي المساحة علي هيئتها الرملية ، ولا يجوز تحويلها لأغراض أخري إلا باذن كتابي من الحكومة ، ويستثني من ذلك المساحات التي تشغلها الشوارع الرئيسية وخطوط السكة الحديدية والترام وملحاقتها ، والمنشآت الحكومية كنقطة البوليس ومكتب البريد والتلغراف ، تزايدت هذه النسبة الي الربع سنة ١٩٠٧

وقد بدأ تنفيذ المشروع بتقسيم الأراضي ثم بيعها بعد تجهيزها ، ومنذ عام ١٩٠٨ بدأ تشغيل خطوط المترو والترام ، وتخطيط حوالي ثلاثين كيلومتراً من الشوارع ثم إقامة مرافق الصرف الصحي ، ومد شبكة المياه علي مساحة خمسين كيلو متراً .

وبالرغم من المصاعب التي لاقاها المشروع ، فقد توجهت الشركة الي تشييد المنازل علي الطراز العربي المميز بالبواكي المحمولة علي أعمدة من الجرانيت الفاخر ، ومنها ترتفع أبراج علي شكل مآذن ، وضع تصميمها المهندس البلجيكي " جاسبارد - " في عام ١٩١٠ ، لم يكن في مصر الجديدة سوي ألف نسمة ، وبدأت حركة التعمير في التسارع ، وحتي عام ١٩٢١ ، كان قد تم تنفيذ ألفين من الأبنية الجميلة ، ثم ألفين آخرين حتي عام ١٩٢٨ ، ثم ألفين وثلاثمائة مسكن حتي عام ١٩٣١ وفي هذا العام ، بلغ عدد سكان الضاحية ٢٩ ألف نسمة ، وصلوا الي خمسين ألف نسمة عام ١٩٤٧ وكانت الشركة تؤمن الانارة العامة والخاصة ، بالاضافة الي تخصيص نحو عشرين ألف متر مكعب من المياه يومياً ، مما سمح بري الحدائق ، كما تولت الشركة مهمة نظافة الضاحية ، وخصصت مجموعة من خمسة عمال لمقاومة الناموس ...
وشرعت في تشييد كاتدرائية وعدة مساجد ومجموعة من الفنادق للمساهمة في جعلها مكاناً للاستجمام والمتعة ، وفي عام ١٩١٠ افتتحت حلبة لسباق الخيل ونادي رياضي مزود بملاعب للجولف .

وقد بذلت الشركة جهوداً رائعة من أجل إضفاء الخضرة علي الضاحية ، بانشاء المزيد من الحدائق ، بعد نثر طمي النيل علي الرمال ، والذي نقل اليها في البداية علي ظهور الجمال .

كان تصميم مصر الجديدة مستوحي من " المدن - الحدائق " التي شيدت في أوروبا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وقد التصور عند بداية تشييدها باعتبارها مدينة للأوروبيين .. ثم كانت فكرة إنشاء واحتين تفصلهما منطقة صحراوية ، تضم الواحة الأولي فيلات ومساكن فاخرة مع تزويدها بكاتدرائية ، ويميز هذه الواحة شكلاً مستديراً ، في حين تضم الواحة الثانية مدينة عمالية ومنشآت صناعية وجامع ، ففي الواقع لم يتم تشييد سوي الواحة الأولي مع تزويدها بأحياء متوسطة ، وكان نظام المرور متمحور علي ميدان الكاتدرائية " كنيسة البازيليك"

وفي عام ١٩٢٥ لوحظ أن عدد السكان من بلاد الشام ومن الأتراك اكثر من الأوروبين ، وقد تلاقت الاختلافات الاجتماعية مع الاختلافات العرقية ـ الدينية ، وقد توجهت كل جالية نحو التجمع حول أحد دور العبادة ، أو حول مبان سكنية تتناسب مع مستواها الاجتماعي .

ويشير " روبرت البرت " مؤرخ مدينة هليوبوليس أو مصر الجديدة الي أن " شركة واحات هليوبوليس " وقد كانت شركة رأسمالية تماماً ، إلا أنها لم تكن شركة تجارة .. حيث لم يحدث نزوح للأموال الوطنية الي الخارج ، بالاضافة الي أن الاهتمام بأحوال المعيشة الاجتماعية يكشف عن إهتمامات إنسانية حقيقية ...

ويضيف البرت : " بالرغم من خليط الأنماط والشك في سلامة ذوق بعض المباني ، إلا أن هليوبوليس تمثل وحدة اكثر عمقاً من الوحدة الناتجة عن قواعد تنظيم المدن ، إن سيادة فنون العمارة الإسلامية تضفي علي المدينة سحراً خاصاً ... إننا نجد في هليوبوليس اسلوباً وابداعاً حقيقياً" .

ترام ومترو مصر الجديدة :

ما أن تم توقيع العقد ، حتي قام البارون امبان ونوبار باشا بتكوين شركة مساهمة باسم " شركة سكك حديد مصر الكهربائية وواحات عين شمس " وصدر مرسوم تأسيسها بالقاهرة في ١٤ فبراير عام ١٩٠٦ لمدة سبعين سنة ، وطرحت أسهم الشركة للاكتتاب ، وكان الاقبال علي الشراء هائلاً ووصفت الصحف إقبال المساهمين : " ولما جاء دور الاكتتاب تهافت عليه الصغار والكبار تهافتا لم يسمع بعد في تاريخ المضاربة بمصر وأوروبا وأمريكا ، ذلك أن الاسهم غطت ٨٣ مرة ، منها ٤٥ مرة في الاسكندرية وأربع مرات وكسور في انجلترا وبلجيكا والباقي في مصر القاهرة ، وبلغت قيمة الأموال التي قدمت للشركة اكثر من مليوني و ٥٠٠ ألف جنية " .

وقد نص العقد علي ضرورة أن يقوم المشتريان بانارة الشوارع التي يمر بها الترام ، إبتداء من شارع القبة حتي الواحات بلمبات ذات قوس قوة ١٠٠٠ شمعة ، بواقع واحدة كل مائتي متر ، وكان

" مجلس النظار " قد وافق علي قيام المشترين بمد " خط ترامواي " الي الضاحية ، تكون محطته الأولي في الأزبكية ، ولا يقف في الطريق ، ويجتاز المسافة من الازبكية الي هليوبوليس في مدة عشر دقائق ، وقد بدأت الشركة في تشغيل خط ترام العباسية سنة ١٩٠٨ ، ثم بدأت في الاعلان في الصحف عن تأجير المساكن في سبتمبر ١٩٠٩ : " للايجار بجانب الجامع الجديد والترامواي الذي سينشأ قريباً ، بيوت علي الطراز التركي ، مؤلف من ثلاث غرف أو أربع وفسحة وفرن ... الأجرة من ستين الي مئة وأربعين قرشاً "

في عام ١٩١٠ ، بدأت الشركة في تسيير الترام السريع الكهربائي " المترو " الذي يربط الضاحية الجديدة بوسط المدينة ، وعملت علي هذا الخط السريع ٢٧ قاطرة ثم استيرادها من بلجيكا... وتميزت باللون الأبيض ، وأطلق عليها الأجانب " " الطيور بالفرنسية ، واشتهرت علي السنة العامة بعد تحريفها كالعادة باسم " الوزيزي " .

في الثاني من يونيو عام ١٩١١ ، احتفلت الشركة بافتتاح مسجد مصر الجديدة ، وشرف الحفل " صاحب السمو الأمير حسين كامل " نائباً عن الخديو عباس حلمي الثاني ، وحضرة لفيف من الأمراء و العلماء والأعيان وعدد من الموظفين الأجانب ، والقي نوبار باشا خطبة أوضح فيها أنه خلال أربع سنوات من بداية العمل " ظهرت في عالم الحقائق مدينة عصرية ، تسطع في أرجائها شموس الكهرباء " .

وتطويراً لأساليب جذب الناس الي الضاحية الجديدة ، أقامت الشركة مدينة للملاهي أطلقت عليها اسم " لونا بارك " وأفاضت الصحف في وصف المدينة " مكللة بالأنوار الكهربائية تكليلاً جميلاً وفرنية بها زينة تأخذ بالأبصار " كما أفاضت في وصف الألعاب " الكهربائية " ونجحت الشركة في تحقيق أهدافها حيث جذبت " لونا بارك " جمهوراً كبيراً كان ينتقل اليها بالقطار الكهربائي .

وقد أدي المترو دوراً رئيسياً في امتداد العمران الي مصر الجديدة ، حيث قامت الشركة بمد ثلاثة خطوط : الأول خط ترام مصر الجديدة الذي يحدد الضاحية من الجنوب ـ خط الميرغني

حاليا- وينتهي في الماظة ، والخط الثاني يتفرع من الخط الشمالي الجنوبي بموازاة شارع إسماعيل عند كنيسة الروم الكاثوليك وينتهي أيضا في الماظة ، و الخط الثالث في اتجاه الشمال الشرقي ، من كنيسة الافرنج الكاثوليك مروراً بشارع عثمان بن عفان ، وقد حددت هذه الشبكة اتجاهات النمو الفعلية في مصر الجديدة ، وبالتحديد فقد امتر البناء والعمران في المستطيل الواقع بين شارع ميدان سباق الخيل " الحجاز حالياً غرباً وشارع هارون الرشيد شرقاً ، وشارع أبو بكر الصديق شمالاً ، وشارع ابراهيم رمزي جنوباً .

في عام ١٩٢٣ ، بلغت خطوط الترام والمترو التي نفذتها الشركة ٢٦٢١٢ متراً خطوطاً مزدوجة ، بالاضافة الي ٧٥ متراً خطوطاً مفرده ، وكانت تسير عليها ٨٩ عربة ، وقد مثلت هذه الخطوط اكثر من ٤٠ % من اجمالي خطوط الشركة البلجيكية صاحبة الامتياز في مدينة القاهرة عموماً ، وقد أولت الشركة إهتماماً خاصاً بالمترو من ناحية صيانته ونظافة عرباته وشكلها الجذاب وحسن إختيار العاملين به .

قصر البارون :

من أشهر معالم ضاحية مصر الجديدة ، وقد شيد علي ربوة مرتفعة مساحتها ١٢٥ ألف متر مربع ، ويطل علي شارع العروبة حالياً ، وقد استغرق تشييده الفترة من عام ١٩٠٥ حتي عام ١٩٠٨ ، وتصميمه يحمل أسراراً هندسية لم يفصح عنها حتي الآن ، وقد أبدع المهندس " الكسندرمارسيل " تصميم هذه الأسطورة المعمارية التي لا تغيب عنها الشمس علي مدار النهار وهو الذي أمضي عاماً كاملاً في الهند علي نفقة البارون ، لدراسة فن العمارة الهندسية ، ومن بالداخل يمكنه أن يري من بخارج القصر دون أن يراه أحد ، وواجهات القصر حافلة بالنقوش والزخارف الهندسية والنباتية والتماثيل الرخامية والحجرية ، ويأخذ التصميم شكل العابد الهندية العريقة في توافق وتناسق وقد استخدم في تشييده أفخر أنواع الرخام ويتكون من طابقين ،كل طابق يضم ست غرف وقاعتين كبيرتين ويزدان ببرج فريد مكون من أربعة طوابق بسلم حلزوني من

الخشب الفاخر ، وتحفل ردهات القصر بثروات فنية نادرة من لوحات وتماثيل وتحف جمعها البارون من شتي بقاع العالم .

وكان البارون امبان قد غادره لآخر مرة عام ١٩٣٩ لقضاء أجازه الصيف في أوروبا ، غير أن قيام الحرب العالمية الثانية حال دون عودته الي القاهرة حتي وفاته عام ١٩٤٦ ... وقصرالبارون إختارته جامعة " كاليفورنيا " كأجمل تحفة معمارية في الشرق الأوسط عام ١٩٨٥ ... هذه التحفة المعمارية تحولت الي وكر للاشباح والخفافيش وللخارجين علي القانون و " عبدة الشيطان " ... وأخيراً ، تنبهت الدولة الي القيمة الأثرية والتاريخية والفنية لهذا " القصر المهجور " عندما صدر قرار رئيس الوزراء رقم ١٢٩٧ لسنة ١٩٩٣ باعتباره أثراً إسلامياً .

ومن أشهر معالم مصر الجديدة أيضا : قصر السلطان حسين كامل الذى كان مغرماً بهذه الضاحية تاركا قصره الرائع بالجيزة .. وقصر الامير ابراهيم .. وفندق " هليوبوليس بالاس " والذى يضم خمسمائة غرفة ويتميز بقبته الفريدة التى ترتفع ٤٠ متراً فوق قاعة الاستقبال الرئيسية ،والذى أصبح حالياً مقراً لرئاسة الجمهورية ..

وبالضاحية أندية هليوبوليس وهليوليدو .. ونادى الجولف .. ومقهى " ميتشو " اليونانى الذى كان يطل على ميدان النزهة ، والذى كان ملتقى لأعلام الأدب والصحافة من ساكنى الضاحية ..

وأشهرهم : الأديب العملاق " عباس محمود العقاد " والأديب الكبير صاحب "الأرض " عبد الرحمن الشرقاوى ، والرومانسى الرقيق .. رجل الأدب والشعر والموسيقى والأوبرا والبالية " عبدالرحمن صدقى "والذى كان ثالث مدير لدار الأوبرا الملكية .

وفى الشمال منها: مطار القاهرة الدولى ، واحد من اكبر وأحدث مطارات الشرق .. ومن أشهر شوارعها : البارون امبان ، عثمان بن عفان ، أبو بكر الصديق ، هارون الرشيد ، الاهرام ، العروبة ، ابراهيم اللقانى ... ومن أشهر ميادينها : النزهة ، الحجاز ، روكسى ، تريومف وسانت فاتيما .

المصادر :

1- Ilbert, R. : Héliopolis, le Caire 1905-1922, Genèse d'une ville, Paris-Marseille, 1981

تاريخ العظمة ..!

سرايات ملكية

قصور الحرملك

****

ثلاثة قصور أمر محمد على باشا ببنائها عام ١٨٢٦ ، وخصصها للحريم ، وتشغل الضلع البحرى الغربى للقلعة ، وتشرف على جبل المقطم والحطابة ومدخل القلعة ، وقد بدأ تشييد هذه القصور الثلاثة بالقصر الأوسط ثم القصرين الشرقى والغربى .

يحيط بها جميعاً سور واحد ، وأكبرها القصر الشرقى ويعرف أيضاً بـ " قصر الأيتام " ويتوصل إليه من باب معقود بالواجهة القبلية ، مكسو بالرخام الأبيض المزخرف ، تعلوه لوحة تذكارية من الرخام ، منقوش عليها كتابات بالتركية ، جاء فيها : " قد انشأ ذلك الحاكم العالى الشأن قصر اً جديداً كتحفة . هو قصر كالجنة ، ياله من قصر بديع رائع " وأجمل القاعات هى قاعة محمد على أو قاعة الفسقية ، وبها أربعة إيوانات يتصدرها سلسبيل رخامي ، يضم أعمدة رخامية رشيقة بزخارف بارزة على هيئة طيور ، تخرج من أفواهها مياه تصب فى أحواض متدرجة تنساب فى قناة الفسقية بوسط القاعة ، وقد نقشت الجدران برسوم ملونه تمثل جواسق وخمائل ومناظر طبيعية ، والسلم المزدوج يؤدى إلى قاعة علوية كبيرة بها أربعة ايوانات ، تتفرع منها عدة حجرات وممرات إلى باقى أجزاء القصر ، وقد زينت هذه القاعة بحليات على هيئة عقود محمولة على أعمدة رخامية رشيقة ، والسقف يزدان بجدائل نباتية وزهور تنوعت أشكالها .

والقصر الأوسط ، الدور الأرضي منه عبارة عن قاعة كبيرة ، بكل ركن منها حجرتان ، احتفظت جميع أسقفها بالنقوش الرائعة المتنوعة بين مسدسات ومربعات وجدائل انتشرت بها الزهور ، وحمام عبارة عن طرقة مستطيلة مغطاة بسقف محلى بالزجاج الملون ، يليه باب يؤدى إلى حجرة مقسمة إلى إيوانين بينهما درقاعة ، وسلم مزدوج محمول على أعمدة رخامية ضخمة ، يؤدى إلى قاعة كبيرة بها أربعة أيوانات ذات أعمدة قواعدها مطعمة بالرخام الأحمر وتقاسيم زخرافية نباتية .

وفى وصفه لقصور الحرم يقول " د. عبد الرحمن زكى " عن القصر الأوسط :

" يتوصل إليه من حديقته الواسعة التى تبلغ مساحتها ٧٠×٥٧ مترا تقريباً . كانت تحاط بتكاعيب الكرم ، وتتوسطها نافورة يعلوها جوسق . وتطل على الحديقة واجهة القصر ، ويتوسطها باب كبير ركب عليه مصراعان عليت حشواتهما بنقوش بارزة ، ويرجح أن هذا الجناح كان المدخل الرئيسى للقصر . ويؤدى الباب إلى سلم مزدوج يوصل إلى الطابقين

العلويين ، والطابق الأرضي يحتوى على ردهة كبيرة ، بكل ركن من أركانها غرفتان . وجدرها محلاة بصور زيتية ، وكذلك الأسقف . ويوجد بهذا الطابق حمام يتألف من طرقة مستطيلة مغطاة بسقف جصى حلى بزجاج ملون ، ثم باب أول وهى غرفة مقسمة إلى ايوانين بينهما درقاعة ، ويغطى الجميع سقف جصى من الزجاج الملون ، وواجهة كل من الإيوانين محمولة على عمد رخامية قواعدها مربعة ، ومطعمة برخام احمر اللون " .

والقسم الداخلي (بيت الحرارة) يوصل إليه من باب الغرفة الأولى ، على جانبيه نافذتان لتوصيل الملابس منها ، وهو مقسم إلى أقسام أكبرها أوسطها ، ويغطى الجميع سقف جصى بتقاسيم زخرفيه ، والسقف محمول على عمد رخامية . وبالصدر حوض رخامي كبير من قطعة واحدة .

ونصل إلى القصر الغربي من باب فى السور القبلي ، يقودنا إلى فناء مكشوف تشرف عليه واجهة القصر ، ويتوسطها باب يؤدى إلى القاعة الكبرى ، وقد طرأت تغيرات جسيمة على هذا القصر أفقدته جميع نقوشه الجدارية ، وهذه القصور الثلاثة فى مجموعها هى ما يعرف الآن بـ "المتحف الحربي القومي" والذى يعد فى مقدمة المتاحف الحربية العالمية من حيث ثراء المجموعات وقيمة المباني التاريخية وموقعها بقلعة صلاح الدين .

قصر الجوهرة

****

يعد هذا القصر باكورة منشآت محمد على باشا بالقلعه ، شيده عام ١٨١٣ – ١٨١٤ ، فوق مجموعة من القلاع القديمة داخل أسوار القلعة ، فى الجهة القبلية من مسجده ، ويتميز بجمال موقعه ، إذا يشرف على القاهرة والمقطم وكان مجال الرؤية منه يمتد إلى الأهرامات.

أصبح هذا القصر مقراً للحكم فى عهد محمد على باشا ، يعقد فيه مجالسه ، وبه تتم مراسم استقبال السفراء ، وقد تم تجديده فى عهد الملك فاروق .

وقد أطلق عليه خطأ اسم الجوهرة ، وهى تسمية لم ترد فى التاريخ ولا فى الوثائق ، وكان أجدر بهذه التسمية قصر الحرم لأن تاريخ إنشائه منظوم ببيت مجوهر .

" والبيت المجوهر ، هو ما تحسب حروفه المعجمة لننتج تاريخ الإنشاء بحساب الجمل .

وكان موضعه مع ملحقاته ، أبنية للسلطان قايتباى والسلطان الغورى مازالت بقاياها موجودة تحت قاعة العدل المعروفة قديما هى وما يتصل بها من حجرات تسودها البساطة بديوان الكتخدا.

وهذا القصر مع ملحقاته يشغل الضلع القبلى للقلعة بعد امتدادها ، وينقسم إلى قسمين القسم البحرى الغربى ، والقبلى الغربى بما فيها المدخل الشرقى ، وهما اللذان يحويان الحجرات التى عنى بزخرفتها .

والباب الرئيسي للقصر فى الحد الشرقى ، ويشرف على الحوش السلطانى ومكتوب عليه " يا مفتح الأبواب افتح لنا خير الباب " ١٢٢٨ هـ.

ومنه يتصل إلى باب آخر كتب عليه " الله ولى التوفيق " ١٢٢٩ هـ . وهذا الباب يؤدى إلى صالة كبيرة تشرف عليها حجرة الفرمان ، وهى قاعة كبيرة سقفها بيضاوي وتشرف على ميدان صلاح الدين ،واحتفظت بنقوش سقفها ما بين آلات موسيقية وآلات حربية ، وهى الآن مفروشة ومعلق بها نجفة كبيرة وبها كرسي من كراسي محمد على وقد فرشت الصالة أمامها بعد أن جددت نقوشها .

وبحري تلك القاعة سلم يصعد منه إلى صالة كبيرة بالجدار الشرقي ، بها باب يؤدى إلى حمام جدرانه وحوضه الكبير من رخام الالبستر ، ونقشت صور الأسطول على أعتاب الأبواب

المحدقة بها ، ويتصل بالصالة ست حجرات ما بيـن كبيرة وصغيرة حليت جدرانهـا وسقوفها بنقوش تمثل أكشاكاً وساعات ومناظر طبعة وقطعا من الأسطول .

نستعرض تلك الحجرات بزخارفها كما يستعرضها الزائر الذي يقصدهـا مـن البـاب البحـري للقصر بعد أن فصلت منه الفسقية الرابضة حولها الأسود ، فترى زخارف وإن اتفقت موضوعا مع الكثير من زخارف قصوره بل وعصره ، إلا أنها نفذت عند التجديد بأيد ضعيفـة فهي دون مستوى نقوش قصر الحرم .

ويلاحظ أن الأراضي الخشبية جديدة اقتبست رسومها مـن رسـوم السقوف فوقهـا . كمـا أن الكثير من القاعات نقوشها مبتكرة ومقتبسه من فنون ذلك العصر ، وهى لا تعدو أشـجاراً علـى حافة غدير فى أطرافها حصن ، وأكشاك عثمانية وستائر بسجف منقوش الحوافى .

وقد فرش القصر بمفروشات وعرضت فيه مقتنيات القليل منها يمثل عصـر القصـر والكثير منها ، – هو وما عرضه فيه مـن تمـاثيل – لا يمـت إلـى القصـر بصلـة لا تاريخيـا ولا فنيـا . ونقشت الجدران من أعلاهما بنقوش مورقة بينها دوائر بيضاويـة حـوت أبنيـة وأشـجاراً باسـقة تمثل أعواد سرو وغيرها .

ومن الساحة بين المسجد والقصر ، نرى القاهرة القديمة بمناراتهـا وقبابهـا تطـاول السـماء ، والقاهرة الحديثة بعماراتها الجديدة ، ونـرى الأهـرام والنيـل ، إنـه منظـر مـن أروع المنـاظر . ويقول د. حسن عبد الوهاب : " ما أجمالها ساعة لمن يسعده الحظ فيرى غـروب الشـمس مـن هذا الموقع ، إنه يحظى بمشاهدة لوحة صورتها الطبيعة فأبدعت تصويرها " !.

مع د. عبد الرحمن زكى فى قصر الجوهرة :

****

وكان أجمل وأدق وصف لهذا القصر للعالم الراحل د. " عبد الرحمن زكـى " فـى كتابـه :" قلعه صلاح الدين الأيوبي وما حولها من الآثـار " .. وكـأني اسـتمع إليـه وهـو يطـوف بنـا فـى أرجاء القصر ، حيث يقول :–

يقع هذا القصر جنوبي جامع محمد على ، وكان موضعه أبنية قديمـة بناهـا الملـك الأشـراف قايتباى ، والسلطان الغورى . وقد نسب المؤرخ الجبرتى إلى محمد على هدمها ضمن حـوادث عام ١٨١٢ . فقد ذكر :–

" انه (محمد على) هدم سراية القلعة وما اشتملت عليـه مـن الأمـاكن فهدم المجـالس التـى كانت بها ، والدواوين ، وديوان قايتباى ، وهو المقعد المواجه للداخل إلى الحـوش علـو الكـلار الذى به الأعمدة ، وديوان الغورى الكبير وما اشتمل عليه من المجالس التـى كـانت تجلـس بهـا

الأفندية والقلفاوات أيام الدواوين ، وشرع فى بنائها على وضع آخر واصطلاح رومي ، واقاموا أكثر الأبنية من الأخشاب ." والمعروف أن بناء هذا القصر قد تم فيما بين ١٨١٣ و ١٨١٤ .

والمدخل الرئيسى للقصر فى الجهة الشرقية ، أمامه مظلة محمولة على عمد رخامية ، ومكتوب على أعلى الباب " يا مفتح الأبواب افتح لنا خير الباب " سنة ١٢٢٨ هـ . ويفضي هذا الباب إلى طرقة كبيرة بها عقود حجرية ، تنتهي إلى سلم فباب كبير مكتوب عليه بالخط الفارسي " الله ولى التوفيق " ١٢٢٩ هـ.

وعلى يسار هذا المدخل أبنية تسودها البساطة ، متصلة بديوان الكتخدا . وبنهايته الشرقية البحرية قاعة العدل ، وهى مستطيلة لها سلم مزدوج يوصل إلى الميدان الواقع أمام دار الضرب ، ومكتوب على أحد أبواب هذا الجناح " من أمن بالقدر آمن الكدر " ١٢٢٩ هـ وكان هذا الجناح مخصصا للموظفين .

وكان قصر الجوهرة مخصصا لاستقبال محمد على ، بوه قاعة كبيرة عرفت بصالة العرش يتوصل إليها من الباب الأوسط المكتوب عليه " الله ولى التوفيق " ، وحجرة العرش أو الفرمانات أكبر حجرة بالقصر ، بجدرانها بقايا نقوش ، وسقفها على شكل بيضاوي به نقوش مذهبة تمثل آلات حربية وموسيقية ، تتوسطها سره خشبية مذهبة بها مجموعة من الفواكه ، وهى تشرف على ميدان صلاح الدين .

ويحتوى القصر على عدة غرف كبيرة وصغيرة ، ولها أبواب تصل إلى القاعة الكبرى التى نقش على أعتابها صور لسفن الأسطول . وعلى أعتاب هذه الغرف نقشت صور سفن حربية ، وبالجهة الشرقية يوجد حمام فرشت جدرانه وأراضيه بالرخام المستورد من محاجر بنى سويف ، وبه حوض رخام من قطعة واحدة .

وقد زار محمد على فى هذا القصر كثير من الأعلام المشهورين منهم : الأديب الفرنسى "شاتوبريان " والكونت دى فوربان ، الذى وصف فى كتابه مدينة القاهرة ، كما أنه وصف حفلة استقباله (١٨١٧ - ١٨١٨) فى القصر . ولما زار مصر السلطان عبد العزيز عام ١٨٦٢ احتفل به الخديو إسماعيل احتفالا كبيرا ، وأقام بهذا القصر سبعة أيام .

متحف قصر الجوهرة

****

أهم مميزات قصر الجوهرة المعمارية أن طرازه عثمانى ، أدخل إلى مصر فى أوائل القرن ١٩ ، ويحتوى على نقوش ذات فروع نباتية وأستار ومناظر مقتبسه من الآستانة ، وهى خليط من الزخارف التى انتشرت فى القرن ١٨ - ١٩ والمعرفة بين رجال الفن بالروكوكو.

وقد أعادت مصلحة السياحة تأثيث قصر الجوهرة ليكون متحفا تزوره الجماهير ، وليعطى فكرة عما كان عليه أثاث قصور مصر فى القرن الثامن عشر ، والقرن التاسع عشر .

ومدخل القصر يتوسط الواجهة البحرية . فإذا ما اجتاز الزائر الباب ومر بدهليز صغير ، وجد إلى يمينه قاعة زينت حوائطها بمناظر تركية ، وصف فيها بعض المقاعد المطعمة بالصدف وغيره ، وفيها لوحة لمحمد على من عمل الفنان زنانيرى عام ١٨٧٠ وقدح أثثت ببعض المفروشات الشرقية والأوروبية . ثم تدخل القاعة الثانية وقد صف بالجهة الشمالية منها أثاث شرقى يقابله فى الجهة الجنوبية أثاث فرنسى من الطراز الذى استعمل فى القرن ١٩. وفى هذه القاعة زهرية من السيفر الثمين النادر . ويسترعى النظر صور منقوشة على عتبات أبواب هذه القاعة ، وهى تبين قطع الأسطول المصرى .

ندلف إلى قاعة الساعات (القاعة الثالثة) وقد سميت بهذا الاسم لاتخاذ الفنان من رسم الساعة وحدة زخرفيه تزين جدرانها . ومن أهم محتويات هذه القاعة سجادة من الجويلان ، وفى صدرها كرسى عثمانى الطراز .، ثم تلى القاعة استراحة مؤنثة بأثاث شرقى .

نمر بعد ذلك بصالة الألبستر (المرمر) ونرى فيها نموذجين من الصدف لقبة الصخرة والمسجد الأقصى ، من صناعة القدس ، وقد سميت بهذا الاسم لكسوة أرضيتها برخام من الألبستر المصرى ، وقد نظمت بلطافة فى أشكال رائعة ، وحليت أعتاب أبوابها بمناظر الأسطول المصرى ، وصفت فيها خزانات بداخلها زجاج وخزف نفيس من صناعة بوهيميا وكوتاهية .

ويلي ذلك الحمام ، ويعتبر تحفة نادرة ، إذ كسيت جدرانه وغطيت أرضيته بشرائح من المرمر المصرى ، ويزدان سقفه بقطع الزجاج الملون التى تسمح بدخول الضوء ، وهو نموذج للحمامات التركية التى كانت منتشرة فى ذلك العصر ، ويشتمل الحمام على حوض من الرخام " الألبستر " غائر فى الأرض ، وبه فجوة بيضاوية الشكل لمناولة المستحم ما يحتاجه.

ثم نصل إلى البهو الرئيسى بعد اجتياز ممر مكسو بوازرات من المرمر . وهذا البهو أكبر صالات القصر ، ويقع على يمين الزائر قاعة الفرمانات . وبالطرف الجنوبى من هذا

البهوايوان يشرف على منطقة أثرية جميلة مؤثث بأرائك شرقية ، وينتمى البهو من الجهة الشرقية الجنوبية بباب كبير كان المدخل الرئيسى للقصر ، وهو يؤدى إلى شرفة لها مظلة محمولة على عمد من الرخام ، وقد كتب على واجهة هذا الباب بالخط الفارسى الجميل " الله ولى التوفيق سنة ١٢٢٩ هـ " وهو تاريخ أنتها البناء (١٨١٤) .

وهناك قاعة الفرمانات التى تطل على القاهرة ، وفى صدرها كرسى العرش الذى كان يجلس عليه محمد على عند استقبال سفراء الدول ، أو عند قراءة الفرمانات التى ترد من الآستانة ، والكرسي ضخم ومذهب ، وله مسندان على هيئة أسدين رابضين !!.

سراي الازبكية (قصر الألفي بك)

******

هذه السراي الشهيرة التى كانت شاهداً على أحداث جسام فى تاريخ مصر الحديثة .. والتى تشهد أيضاً على أن للقدر تصاريف أخرى !..

كانت هذه السراي إلى الغرب من بركة الازبكية ، وكانت فى الأصل قصراً لأحد فقهاء الحنفية " إبراهيم بن السيد سعودي " الذى جعل فى أسفله قناطر وبوائك من ناحية البركة ، واصطفت به المقاهي وأماكن الغناء ومرافئ لمراكب النزهة .. حتى أصبحت مقصداً ومتنزهاً لعامة الناس .. ثم آلت هذه السراى إلى الأمير احمد أغا شويكار ..

وفى سنة ١٢١١ هـ / ١٧٩٧ ، اشتراها الأمير محمد بك الألفي ، ثم هدمها وهو الذى أطلق عليه " الجبرتى " شيخ المؤرخين " الأمير الكبير " والضرغام الشهير " وكان بالغ الثراء ومن أقوى المماليك عزة ومنعة ، وعندما بلغ محمد على باشا نبأ موته ، وتحقق من الخبر ، قال قولته الشهيرة :" الآن طابت لي مصر " !!..

وأترك لشيخنا " الجبرتى " يصف بلغه ذلك العصر ، سراي الألفي بك حيث يقول :-

" وأوقف فى شيادته على العمارة كتخدا ذا الفقار أرسله قبل مجيئه من ناحية الشرقية ورسم له صورة وضعه فى كاغد كبير فأقام جدارنه وحيطانه وحضر هو فى أثناء ذلك فوجده قد أخطأ الرسم فاغتاظ وهدم غالب ذلك وهندسة على مقتضى عقله واجتهد فى بنائه وأوقف أربعة من كبار أمرائه على تلك العمارة كل أمير فى جهة من جهاته الأربع يحثون الصناع ومعهم اكثر أتباعهم ومماليكهم وعملوا عدة قمن لحرق أحجار وعمل النورة وكذلك ركب طواحين الجبس لطحنه وكل ذلك بجانب العمارة وقطعوا الأحجار الكبار ونقلوها فى المراكب من طرا إلى جنب العمارة بالازبكية ثم نشروها بالمناشير ألواحا كبارا لتبليط الأرض وعمل الدرج والفسحات واحضروا لها الأخشاب المتنوعة من بولاق وإسكندرية ورشيد ودمياط واشترى بيت حسن كتخدا الشعراوى المطل على بركة الرطلى من عتقائه وهدمه ونقل أخشابه وأنقاضه إلى العمارة وكذا نقلوا إليه أنواع الرخام والأعمدة لم يزل الاجتهاد فى العمل حتى تم على المنوال الذى أراده ولم يجعل له خرجات ولا حرمدانات بارزة عن اصل البناء ولا رواشن بل جعله ساذجا حرصا على المتانة وطول البقاء ثم ركبوا على فرجاته المطلة على البركة والبستان والرحبة الشبابيك الخرط المصنعة وركبوا عليها شرائح الزجاج ووضع به النجف والأشياء والتحف العظيمة التى أهداها إليه الإفرنج وعملوا بقاعة الجلوس السفلي فسقيه عظيمة بسلسبيل

من الرخام قطعه واحدة ونوفرة كبيرة حولها نوفرات من الصفر يخرج الماء من افاوهها وجعل بها حمامين علويا وسفليا وبنوا بدائر حوشه عدة كبيرة من الطباق لسكنى المماليك وجعله دورا واحدا ولما تم البناء والبياض والدهان فرشه بأنواع الفرش والوسائد والمساند والستائر المقصبات وجعل خلفه بستانا عظيما وانشأ به جملونا مستطيلا متسعا به دكك وأعمدة وهو من الجهة البحرية ينتهي آخره إلى الدور المتصلة بقنطرة الدكة وأهدى إليه أيضا الإفرنج فسقيه رخام فى غاية العظم فيها صورة اسماك مصورة يخرج من أفواهها الماء جعلها بالبستان ونجز البناء والعمل وسكن بها هو وعياله وحريمه فى أخر شهر شعبان من سنة اثنتي عشرة واستهل شهر رمضان فأوقدوا فيها الموقدات والأحمال الممتلئة بالقناديل بدائرة الحوش والرحبة الخارجة وكذلك بقاعة الجلوس أحمال النجف والشموع والصحب والفنيارات الزجاج وهنئه الشعراء ونظم مولانا الأستاذ الفاضل الشيخ حسن العطار تاريخا لقاعة الجلوس فى بيتين نقشوهما بالازمير على أسكفة باب القاعة وموهوهما الذهب وهما :-

شموس التهانى قد أضاءت بقاعة
محاسنها للعين تزداد بالالف
على بابها قال السرور مؤرخا
سماء سعادتى تجدد بالالفى

ثم أصبح هذا القصر مقراً لقيادة الحملة الفرنسية فى مصر ، حيث أقام به الجنرال "نابوليون بونابرت " فى ١١ صفر ١٢١٣ هـ / ٢٥ يوليو ١٧٩٨ ، ويشير شيخنا الجبرتى إلى هذه الواقعة ، فيقول :-

" عدت الفرنساوية إلى بر مصر ، وسكن بونابرته ببيت محمد بك الألفي بالازبكية بخط الساكت الذى أنشاه الأمير المذكور فى السنة الماضية وزخرفه وصرف عليه أموالاً عظيمة وفرشه بالفرش الفاخر ، وعند تمامه وسكناه فيه حصلت هذه الحادثه فأخلوه وتركوه بما فيه - فكأنه كان يبنيه لأمير الفرنسيس " !!

وفيها كان يجتمع - سارى عسكر بونابرته - وقواد الحملة بالديوان المخصوص .. وبعد رحيل بونابرت ، تولى الجنرال " كليبر " قيادة الحملة .. وفى حديقة هذه السراى لقى مصرعه على يد " سليمان الحلبى " .. ثم أقام به الجنرال " مينو " الذى أجرى به بعض التجديدات وضم إليه مسجداً ....!.

وعقب خروج الحملة الفرنسية ، اتخذه محمد على باشا مقراً لإقامته ، وفيه قرئ فرمان الباب العالى بتولى محمد على باشا حكم مصر - بناء على رغبة الشعب - وفيه كان يعقد ديوان الحكم ، وقام الباشا ببعض التجديدات ، وامر بردم جزء من بركة الازبكية ، فاصبح أمام

السراى ميدان من أرحب ميادين القاهرة فى ذلك العصر ، ثم انتقل الباشا ومقر الحكم الى "قصر الجوهرة " بالقلعة ووهب الباشا هذه السراى الى ابنته " زينب هانم " .

وفى جزء من هذه السراى ، تأسست " مدرسة الألسن " التى كان رفاعه بك الطهطاوى أول مدير لها ، وأغلقت فى عهد عباس حلمى الأول ، ثم أصبحت هذه السراى أول مقر لفندق "شبرد " عام ١٨٤٥ ، والذى كانت اعلاناته تفخر بانه المكان المفضل للعلائلات الملكية والامبراطورية !. واصبحت الشجرة التى قتل تحتها الجنرال كليبر احد المعالم الشهيرة للفندق ومزاراً سياحياً ! .

وفى عام ١٨٩١ ، هدمت السراى او الفندق ، ليشيد فندق شبرد الجديد ، نفس الموقع - عند تقاطع شارعى (ابراهيم باشا) الجمهورية والالفى بك - والذى كان قلباً للمجتمع الاوروبى المترف فى القاهرة ، وكم شهدت قاعاته واروقته من ملوك وامراء وشخصيات عالمية ، ثم كانت النهاية الحزينة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ عندما احترق يوم السبت الاسود الشهير بـ" حريق القاهرة " !.

سراى الجيزة

*****

فيما بين عامى ١٨٦٣ ، ١٨٦٥ ، قامت شركة فرنسية بردم الجزء المتخلف من تحويل مجرى النيل شرقاً ، فأنشأ الخديو إسماعيل فى هذا الجزء " بساتين الأورمان " ..وكان لعمه " سعيد باشا " والى مصر فى هذا المكان ، قصر صغير وحمام ملكى ، فلما توفى اشتراهما إسماعيل باشا من أبنه الأمير طوسون بن سعيد باشا ، فهدمهما وشيد موقعهما " سراى الجيزة"... على مساحة ٤٠ فداناً .

وقد صمم هذه السراى مهندس تركى " استحضره الخديو من الآستانة " وشيد سلاملك السراى من الحجر المنحوت ، وزينت ممراتها بالزلط الملون فى أشكال نباتيه وهندسية رائعة .. وكانت بساتينها ممتدة إلى أرض الجامعة والى موقع كوبرى الجيزة (عباس) على النيل ..

وفى عام ١٨٩٠ ، أقيمت حديقة الحيوان على جزء من حدائق سراى الجيزة ، وبالتحديد الجزء الذى كان يضم قصر الحرملك وما يحيط به من بساتين ، وفى سلاملك سراى الجيزة ، مكثت مقتنيات متحف بولاق من كنوز مصر القديمة منذ عام ١٨٩١ حتى عام ١٩٠٢ عندما افتتح الخديو عباس حلمى الثانى المتحف المصرى بميدان الإسماعيلية (التحرير حالياً).

وهدمت سراى الجيزة عام ١٩٠٣ . ولنا أن نتخيل أن هذه السراى ومحلقاتها وبساتينها ، فى موقعها الآن : حدائق الأورمان ، حديقة الحيوان ، مقر جامعة القاهرة ، وكلية الهندسة (مدرسة الهندسة الملكية) ومبانى كلية الزراعة (مدرسة الزراعة العليا) وكلية الطب البيطري ومدينة الطلبة ، وموقع العمارات والمنازل حتى كوبرى الجيزة !.

وتجدر الإشارة إلى أن الملك فؤاد الأول قد ولد بهذه السراى فى ٢٦ مارس عام ١٨٦٨ .. ويقول محمد بك المويلحى فى " حديث عيسى بن هشام " عن هذه السراى :" ووصلنا إلى قصر الجيزة ومتحف الآثار ، وملتقى السيارة من سائر الأقطار ، فدخلنا روضه تجرى من بينها الأنهار ، كأنها الجنة بعينها ، تحسب أرضها مفروشة ، ببسط منقوشة .. ثم شاهدنا قصراً يكل عنه الطرف ، ويقصر دونه الوصف ، فسرنا نرتاد خلاله ، ونتفيأ ظلاله ، فإذا الأسود مقصورات فى المقاصير .. فقلت سبحان القادر العظيم !.. هذا بيت إسماعيل بن إبراهيم ، طالما كانت حجراته مطالع للأقمار ، ودرجاته منازل للأقدار .. كان إذا نادى صاحبه " ياغلام! ".. شقيت أقوام وسعدت أقوام .. هنا كان يفصل الأمر ويحكم ، وينقض الأمر ويبرم ، هنا كانت تنفرط فرائط القلائد ، من أجياد الخرائد ، فتختلط بمنثور أزهاره ، وترصع

لجين أنهاره .. هنا كانت تتناثر الحلى من قدود الحسان .. وهنا كانت تصدح القيان على المزاهر والأعواد فتجيبها ذوات الأطواق فوق الأفنان والأعواد !.

ومن طريف ما يروى .. أن الأمير " فردريك ويلهالم " ولى عهد بروسيا أحد ضيوف إسماعيل باشا فى الاحتفالات الأسطورية لافتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ، قد أبدى رغبته فى مشاهدة قصور الخديو .. فسأل الخديو أحد ندمائه الشيخ " على الليثى " قائلاً :-

- ياشيخ على .. إذا أمرتك بمصاحبة ولى عهد مملكة بروسيا ، فعلى أى القصور تفرجه .. ؟

- على قصر الجيزة .

- وبعدين ، تفرجه على أى قصر ..

- على قصر الجزيرة .

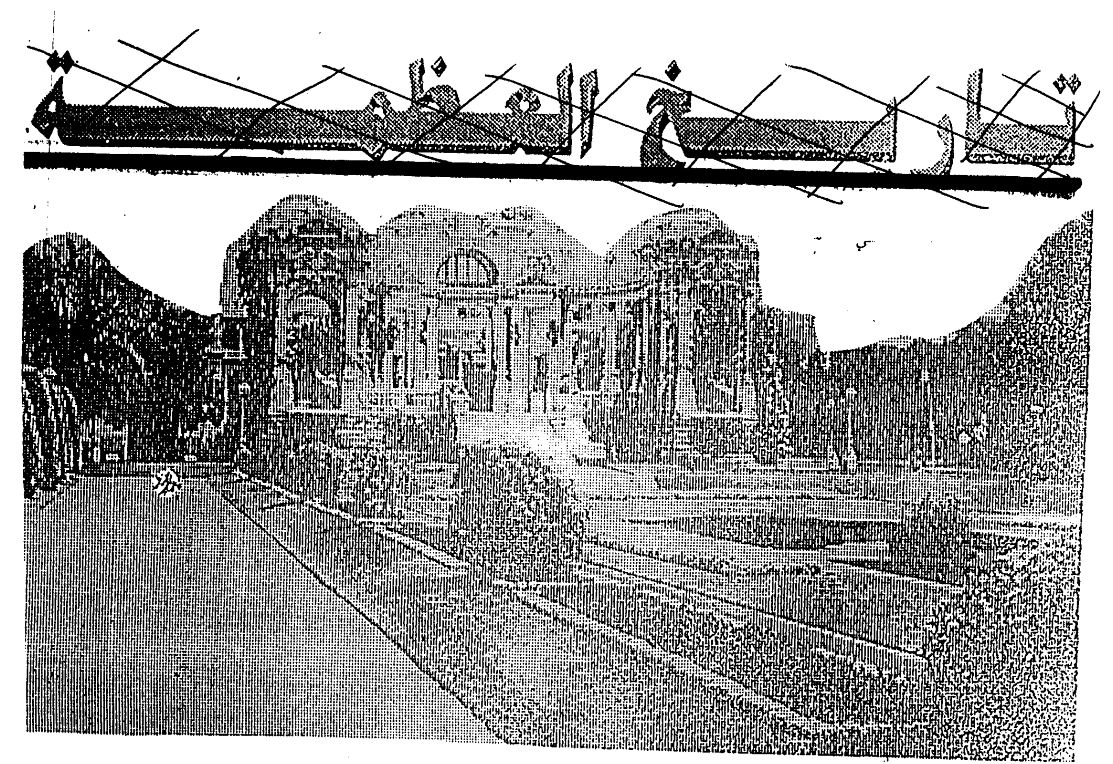
- وبعدين ؟!.

- وبعدين أودية على " السرايا الصفرا " مباشرة !.

- أنت اتجننت ياشيخ على ؟!.

- هو فيه حد يتفرج على السرايتين دول ولايتجننش ياافندينا فلم يتمالك إسماعيل باشا نفسه من الضحك .. وأمر له بجائزة !.

تاريخ العظمة



سراى عابدين

كانت عناية الخديو اسماعيل بتشييد القصور، تفوق ماشيده اسلافه من الولاه والسلاطين، واعظمها روعة وجلالا «سراى عابدين» التى شرع فى بنائها عام ١٨٦٩، واكتملت فى عام ١٨٧٤، وقام بتصميمها المهندس «ورسودى كورديل» مع مجموعة من الفنانينة الايطاليين والفرنسيين والاتراك والمصريين، وتكلفت المبانى ٣٨ الف جنيه انجليزى، وبلغت تكاليف الديكورات والاثاثات نحو ٧٠٠ الف جنيه. ومساحة السراى ٣٥ فدانا، وقد شيدت فى موقع منزل «عابدين بك» احد المماليك، وضمت اليها مساحات كانت تشغلها بعض القصور والدور والحارات التى هدمت بعد مشتراها. وانشئت ثكنات للحرس الخديوى على جانبى ميدان عابدين. وفتح شارعى عابدين والسلطان عبدالعزيز لتسهيل الوصول الى السراى، وتم تخطيط منطقة عابدين وردم ماكان بها من برك مثل: بركة الفراعين والفوالة والناصرية والسقايين، حتى اصبحت من اجمل خطط القاهرة.

ويتكون السراى من طابقين، الاول يشمل مكاتب التشريفات والامناء وضباط الحرس،

ومخازن الفضيات التى قدرت وحدها فى بداية ثورة يوليو باربعة ملايين من الجنيهات!.. ثم المتحف الحربى/. والطابق الثانى: يشمل الاجنحة الخاصة بالملك والملكه والاميرات والوصيفات، ومكتب الملك ومكتب الملكة، وجناحا لاستقبال الضيوف، وقاعة العرش افخم القاعات، وبجوار جناح الملك: مسرح السراى وقاعة المائدة الملكية الخاصة، ثم قاعة مادب المناسبات، وقاعة محمد على الكبير، وقاعة للتدخين تطل على «الحديقة الشتوية» الرائعة، يقابلها قاعة «الصالون الابيض» وكانت تضم عددا من اللوحات الزيتية لبعض الملوك والامراء، ثم «القاعة البيزنطية» الشهيرة، ونجد انها من المرمر المزدان بالنقوش الذهبية.

اما «الجناح البلجيكى» فهو افخم الاجنحة بالسرايات الملكية عامة، انشىء فى عهد الملك فؤاد، وسبب هذه التسمية ان ملك بلجيكا كان اول من نزل به ضيفا.. وتكلف نحو ٤٠ الف جنيه! ويتالف هذا الجناح من غرفة للنوم، ملحق بها حمام خاص، وقاعة استقبال، وغرفة مكتب وقاعة للتدخين، وعقب الثورة الحقت بهذا الجناح غرفة المكتب الخاصة بالملكة ناريمان، ونجد ان هذا الجناح من المرمر الفاخر، والارضية مفروشة بافخم السجاد الكاشان والشينواه، والاثاثات عى طراز استيل تزدان بتماثيل من المرمر المطعم بالذهب، وتتدلى من الاسقف ثريات من الكريستال النادر.

وقد قام الملك فؤاد بتجديد السراى، بما يتناسب مع عنايته الخاصة بها وابهة ملكه وتطورات العصر. وتجدر الاشارة الى ان الملك فاروق قد ولد بها فى ١١ فبراير سنة ١٩٢٠، كما شهد السراى العديد من الاحداث واللقاءات وبين جنباته صدرت قرارات مهمة جعلته موقعا مؤثرا فى تاريخنا الحديث.

عرفة عبده على

اوجينى فى سراي الجزيرة

*****

كلف إسماعيل باشا مهندس البلاط الخديوي " يوليوس فرانس – Julius Franz " عام ١٨٦٣ ، بتصميم قصر بجزيرة الزمالك ، فشيد له " سراي الجزيرة " على غرار " قصر الهمبرا " بغرناطة ، بأسلوب رومانسى جديد ، وانتهى منه عام ١٨٦٨ ، واستخدم كمقر لإقامة الإمبراطورة " أوجينى وحاشيتها خلال احتفالات افتتاح قناة السويس ، وقد عهد إلى فرانس باشا رئاسة مراسم هذه الاحتفالات ، كما كان فى الوقت ذاته ، يشغل منصب مدير إدارة الإنشاءات بديوان الأشغال العمومية .

وقد وصف على باشا مبارك هذا القصر بأنه " سراي للحريم ، وأخرى برسم سلاملك كبير ، خلاف سلاملك صغير فى الغرب منه ، والاثنان من رسم فرانس باشا النمساوى ، اجتهد فى تشبيهها بالمباني العربية القديمة ، فى شكلها وزينتها ومفروشاتها ، وجعل فى خارج السلاملك الكبير برسم الزينة بلكونات وبواكى من الحديد ، جلبت من البلاد الإفرنجية ، وأحاط البستان بسور ، ، وجعل فيه محلات للحيوانات المتنوعة كالفيلة والسباع والنمور والقردة والنسانيس ، وأنواع الطيور المجلوبة من بقاع الأرض ، وفرش مما شيه بالرمل والزلط الملون ، فيه فوانيس الغاز .. " .

وأشار عبد الحميد بك إلى أن هذه السراي قد شيدت فى نفس موقع قصر إبراهيم باشا " أمام المطبعة الكبرى بجزيرة إبراهيم " وقال إنها كانت من أعظم المباني التى لم يشيد مثلها ، بما اشتملت عليه بساتينها من الأشجار والنباتات والأنهار والبرك والقناطر والجبلايات ، وعلى مساحة قدرت بـ ٦٠ فداناً .

ومع ذلك نادراً ما كانت الأميرات يتنزهن ويستمتعن بتلك المشاهد الطبيعية الساحرة ، مفضلين الاعتناء بنضارة أجسادهن والجلوس بقاعات الإقامة أو الاستقبال مع ضيفاتهن ، لتدخين السجائر والنرجيلة .

وبحيرة رخامية رائعة تتوسط حدائق ، السراي ، يحف بها سلالم من الرخام النادر وتماثيل لأسود تصب الماء من أفواهها ، قوارب صغيرة فاخرة تسبح على صفحة الماء ، بين مجموعات البجع والبط والأوز ، بينما تتناثر تماثيل آلهة وآلهات اليونان بين أشجار البرتقال والمانجو ، وتمثال بالحجم الطبيعي للآلهة " سيرا " تحيط به تماثيل لأربعة ملائكة يصبون الماء

، وأسوار من أشجار الفل والحناء والياسمين ، وبنهاية البحيرة ، جوسق من الرخام الأبيض الثمين ، يضم أرائك على شكل ديوان ، يميزها اللونان الأصفر والقرمزي .

ترتيبات إسماعيل باشا لزيارة الإمبراطورة " أوجيني " كانت غير عادية ، وسخر كل الإمكانات ليجعل من سراي الجزيرة شيئاً أشبه بقصور الأساطير ، وعندما اشتاقت إلى زهور الكرز التى أحبتها فى أسبانيا ، أمر بغرس شجيرات منها تحت نافذة غرفة نومها بالسراي ، ومن القصص الطريفة التى ذاعت فى القاهرة آنذاك ، أن هدية وداع الخديو لأوجيني ، كانت " مبولة غرفة نوم " من الذهب الخالص ، تتصدرها ياقوته حمراء نقشت حولها بالفرنسية عبارة "عيني " ، على الأقل .. ستظل معجبة بك إلى الأبد " ! .. مثل هذه القصص عن عصر إسماعيل ، الذى وصفه البعض بالعظمة البيزنطية ، كانت تردد أصداؤها فى صالونات القاهرة وبين أشجار الليلك بنادى الجزيرة ، ويذهب البعض إلى أن البروتوكول الخاص بزيارة أوجيني لم يسمح بأن يصطحبها " الأمير الشرقي " إلى فراشه ! .بالإضافة إلى عيون الأميرات و" القلفاوات " والمحظيات فى حريم الخديو اللاتي كن يترصدن تحركاتها ، جعلت حاشية الإمبراطورة من الخدم الإنجليز والألمان ، يتبعون إجراءات مشددة للتأكد من أن طعامها الخاص لم يسمم بيد أميرة أو محظية غيور !.

وفى عام ١٨٧٩ ، اشترت شركة بهلر للفنادق العالمية : السلاملك الكبير ، وأطلقت عليه "فندق الجزيرة " .. ثم آل إلى أسرة " لطف الله " اللبنانية حتى عام ١٩٦١ ، حيث حولته الحكومة إلى فندق " عمر الخيام " .. وفى عام ١٩٧٥ كان البدء فى إنشاء فندق " ماريوت الجزيرة " حيث تم تجديد ما تبقى من السراي وإضافة مبان جديدة على حدائق السراي ، بعيدة كل البعد عن الذوق والفن !.

" إفندينا " يستقبل فارمان فى سراي الجزيرة

* *

" **البرت فارمان** " .. كان قنصل عام الولايات المتحدة الأمريكية فى مصر أبان عهد الخديو إسماعيل ، وبداية حكم ابنه توفيق باشا ، وقد وصل إلى مصر فى ٢٨ إبريل سنة ١٨٧٦ ، وخلال خمس سنوات ، توطدت علاقته بـ " أفندينا " .. وقد رصد فى مذكراته " مصر وكيف غدر بها " أدق تفاصيل الحياة السياسية والاجتماعية فى " عاصمة الخديو " على حد تعبيره .. **فى ذلك العصر المفعم بالأحداث والتطورات الهائلة ، ووصف لنا فى براعة وموضوعية استقبال سمو الخديو وزياراته المتعددة له ، ومراسم القصور الملكية وتقاليد الأسرة الخديوية فيقول :-**

" **كان أول واجب أقوم به فى القاهرة هو زيارة الخديو إسماعيل باشا ، ولقد تم ذلك فى** قصر الجزيرة الواقع على الشاطئ الغربي للنيل فى مواجهة المدينة ، ولقد أحاط شريف باشا – وزير الخارجية – سموه علما بوصولي ، وتحدد ميعاد ومكان هذه المقابلة غير الرسمية .

ولقد عبرت النيل على ذلك الجسر الفخم إلى تلك الجزيرة الطويلة البيضاوية الشكل حيث اتجهت إلى اليمين مخترقا شارعا عريضا تفصل بينه وبين شاطئ النيل أشجار نخل باسقة . وعلى الجانب الآخر ، أي الجانب الأيسر ، تقع حدائق النباتات والحيوانات ، وتشتمل الأخيرة على مختلف أنواع الحيوانات الواردة من أفريقية وآسيا من بينها قطيع صغير من الفيلة يقوم على خدمتها حراسها الهنود ، وقد أرسلت هذه الفيلة فيما بعد ، بناء على نصيحة الجنرال ستون إلى مناطق أعالي النيل لكي تقوم بمهمة النقل . وفى آخر هذا الطريق المتسع يقع قصر الجزيرة ، وهو قصر صغير نسبيان ، ولكنه مسكن رائع منيف ، بدئ فى بنائه أثناء حرب الاستقلال التى اشتعلت فى بلادنا بينما كانت مصر منتشية بسبب ثروتها المفاجئة الناشئة عن ارتفاع ثمن القطن ولقد أنشأ إسماعيل باشا هذا القصر خصيصاً لملذاته لمدة محدودة من كل عام . وكان يتصل به حدائق غناء ، كما أقيم به كشك قد زين على الطراز المراكشى . وعلى مسافة قصيرة من القصر أقيم بناء خاص بالحريم .

ولقد أقام فى هذا القصر أيام الاحتفال بفتح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ، الإمبراطورة يوجينى أولا ثم فنرسيس جوزيف إمبراطور النمسا بعد ذلك ، كما أقام فيه بعض الشخصيات البارزة أمثال " البرنس أوف ويلز " .

ولقد بيع القصر واستبدل بفندق يشرف على إدارته بعض الضباط الإنجليز ، هذه الجزيرة تكون على هذا الحال فى وقت فيضان النيل فقط ، وذلك ان الفرع الغربى للنيل يجف فى الأوقات الأخرى .

دخلت القصر فتقدمني كبير التشريفات على سلم كبير صنع من الرخام (الكارارا) حيث لقيني الخديو فى غرفة استقبال فاخرة ، ولقد استقبلني سموه عند الباب استقبالا حاراً . وبعد التقديم والتحية المعتادة اتخذت مقعدي عند طرق إحدى الأرائك الكبيرة وأخذ الخديو مقعده فى الطرف الآخر وقد امتدت قدماه أمامي على الطراز التركي .

وكان حديثنا يدور حول موضوعات عامة ورحب بي الخديو فى بلاده وسألني ما إذا كنت مسرورا بزيارتي ، كما سأل عن صحة رئيس الولايات المتحدة وحالة البلاد العامة ثم تمنى لي أن استمتع بإقامة طيبة فى بلاطة ، كما أبدى استعداده لعمل كل ما بوسعه لجعل زيارتي مريحة، ولما كان لا يتكلم الإنجليزية فقد كانت محادثتنا باللغة الفرنسية التى كان يتكلمها بطلاقه .

لم يكن إسماعيل باشا جذاباً من الناحية الجسمانية ، فقد كان يبلغ من العمر حوالى السابعة والأربعين ، قصير القامة ، عريض المنكبين ، ضخم الجثة ، ولون بشرته أكثر سمرة من لون بشرة الأوروبيين : أما جفناه فكانتا مرتخيتين ، وجفنه اليسرى أكثر ارتخاء من اليمنى . وعندما تكون ملامحه ساكنة تبدو عيناه وكأنهما نصف مغلقتين . وكان حاجباه فاحمتا اللون ، خشنتان ، كثة الشعر ، بارزتان إلى الأمام . أما لحيته البنية الداكنة فكانت قصيرة وكانت إذناه كبيرتين وليست من الحسن بمكان وكان يرتدى حلة إفرنجية سوداء ، غير أن معطفه كان من الطراز " الاستامبولى " أي أنه معطف " بصف واحد " ذو ياقة منتصبة ن كما كان يرتدى على رأسه الطربوش الأحمر ...

وكان للخديو عادة التحدث وإحدى عينية مغلقة ، بينما يمعن النظر بعينه الأخرى فى أدق تفاصيل ، وحركات ، وطريقة الحديث ، وحتى أفكار هؤلاء الذين يتحدث معهم .

ورغم كل نقائصه ومساوئه الجسمانية ، كان محدثاً ممتعاً ، يبتسم فى كثير من الأحيان ، بشوشاً دائماً ، ومثيراً للاهتمام ، كان صوته هادئاً يبعث على السرور وألفاظه منتقاة ومعبرة . وكان فائق الذكاء ، ولديه معلومات دقيقة حتى عن التفاصيل التى تخص حكومته وشئونه الخاصة الشاسعة ، وتبرهن نظراته الحادة الثاقبة (حينما تكون عيناه مفتوحتين من أثر حديث شائق) وإجاباته السريعة الدقيقة ، ومعلوماته الخاصة بموضوعات ليس من المفروض أصلاً أن يكون ملماً بها ، تبرهن لكل هؤلاء الذين استمتعوا بالحديث معه ، أنه رجل يمتاز بقدرة غير عادية .

وحسب العرف الجاري فى البلاد لم يكن فى مقدور أي أمريكي أن يتقدم إلى الخديو إلا عن طريق ممثله الدبلوماسي . وقد أتيحت لي الفرصة فى أن أقوم بهذا الواجب مراراً أثناء السنوات الخمس التى أقمتها فى القاهرة ، كثيراً ما كان يدهش الزائر لما كان يلمسه من ذكاء الخديو النادر . فعندما قدم له قائد إحدى البوارج الأمريكية ، أخذ . الخديو يوجه إليه سلسلة من الأسئلة التى تخص سفينته ، ولم يستطع القائدة أن يجيب على بعضها ، ثم تطرق إلى وصف سفنه الخاصة وصفاً تفصيلياً .

وقد عبر القبطان وغيره من الضباط الذين كانوا برفقته عن بالغ دهشتهم بعد أن انصرفوا من حضرة سموه ، نظراً لما لمسوه منه من معلومات حربية كان القول نفسه ينطبق على غير ذلك من الشئون . ولذا كان العسكريون والمدنيون على السواء يدهشون من معلوماته المفضلة أضف إلى ذلك أنه كان يملك القدرة النادرة على أن يكتسب ثقة زائره بأن يزيح عن كاهلة كل حرج ممكن ويجعله على طبيعته تماماً .

وقد تأجلت مقابلتي الرمية مدة طويلة نظراً لعدم وصول أوراقي الضرورية من – القسطنطينية ، ذلك أنه من الوجهة الاسمية يعتبر الخديو من رعايا السلطان ، ولذلك قبل أن يعترف رسميا بممثل حكومة أجنبية فى مصر ، لابد من الحصول على موافقة أو أذن السلطان، ويتم هذا عن طريق الحكومة التى ترسل ممثلها ، ومن ثم تتصل حكومة السلطان بحكومة الخديو لكى تؤكد ما إذا كان المرشح مقبولاً ، أى ما إذا كان " شخصا مرغوبا فيه "

كما أن أعمال الدواوين فى القسطنطينية غاية فى البطء ، وربما تكون أبطأ من أعمال أية دواوين لأية حكومة فى العالم ، أضف إلى ذلك أن مقتل السلطان عبد العزيز الذى حدث عقب وصولي بأسبوعين ، قد أدى إلى زيادة تعطيل وصول الوثائق الرسمية المطلوبة ، وحال كذلك دون وصول الأوراق عاجلاً ، كما أدى إلى زيادة التعطيل موت طوسون باشا ، وزير البحرية وزوج الأميرة فاطمة هانم ، ابنة الخديو الثانية التى كان يؤثرها على غيرها !"

تكريم ضباط الاحتلال الإنجليزي فى سراي الجزيرة !

****

عقب الاحتلال الإنجليزي ، وإخماد الثورة العرابية ، عاد الخديو توفيق من الإسكندرية فى حمـــاية بريطانية !. .. ففي صباح ٢٥ سبتمبر ١٨٨٢ ، استقل الخديو مركبته من سراي رأس التين وبجانبه قنصل جنرال إنجلترا ، فى موكب حافل تحف به قوة من خيالة الهنود برماحهم وسوارى من الإنجليز !... والحرس الخديوى ، إلي أن وصل إلى محطة السكك

الحديدية بالإسكندرية ، وأطلقت المدافع وتحرك القطار الخديوى ، حتى وصل إلى القاهرة ، حيث كان فى استقباله الجنرال " ولسلى " والدوق أوف كونوت نجل ملكة إنجلترا !.. ثم سار فى موكبه إلى سراي الجزيرة حيث أقام بها ، بينما نزلت أسرته فى سراي الإسماعيلية .. فى حين – وفى إشارة لها دلالتها – أقام الجنرال ولسلى قائد القوات الإنجليزية فى سراي عابدين !!.

وعن حفل التكريم هذا ، قال شفيق باشا رئيس الديوان الخديوى – فى مذكراته:–

" أقام الخديو فى ٢ أكتوبر ١٨٨٢ مأدبة كبيرة في سراي الجزيرة للضابط الإنجليزي ، وكانت أنيقة بالغة منتهى الإتقان والفخامة لم أشاهد لها نظيراً فى مصر ، فقد ازدان شاطئا النيل أمام القصر بالأنوار التى تبهر الأبصار .

وقد أقيمت فى السلاملك الكبير الذى أنشأه إسماعيل باشا خصيصاً لاستقبال الإمبراطورة "أوجينى ، على طراز قصر الحمراء فى الأندلس ، وزينه بالنقوش العربية البديعة المموهة بالذهب على أشكال متنوعة ، وأنشأ فى بهوه الكبير حوضا فخما فى وسطه تماثيل من الرخام تمثل أسودا قائمة على قاعدة عالية والماء يتدفق من أفواهها .

فكانت الأنوار الملونه الساطعة المنبعثة من جوانبه وقاعاته تتألق كالشموس المنيرة ، وتنعكس أشعتها على تلك النقوش الذهبية البديعة ، وتسطع فى ضوئها الأوسمة والنياشين والمتلألئة على صدور الضباط وأركان الحرب الإنجليز فتزيد الحفلة بهجة والمنظر روعة وجلالا . وقد شاهدة ولسلى وسيمور وعليهما الوشاح العثماني الأول ، والجنرال دروى لو يحمل العثماني من الدرجة الثانية . وكان أنعم بها عليهم الخديو.

وقد تجلى الكرم العربي والأبهة الشرقية فى هذه الوليمة الفاخرة النادرة بأجمل مظاهرها حيث مدت موائد عديدة مزينة بالأزهار الجميلة فبلغ إعجاب الضباط الإنجليز اعظم مبلغ ، وأخذتهم الدهشة لهذا البهاء المتقن . هذا ما كان بداخل القصر أما حديقته على اتساعها ، والتى كانت مضاءة بآلاف المصابيح ، فقد اكتظت بالمغنين والمغنيات والموسيقات الأميرية والطبل والمزمار البلدي وكثير من الملاهي . وكانت الألعاب النارية تطلق من الضفة الشرقية للنيل . وفى الجملة فقد كانت هذه الحفلة من الروعة والأبهة بمكان حتى يعجز الإنسان عن إيفائها حقها من الوصف !.

وقد – شارك أهالي العاصمة الخديو فى الاحتفاء بالضباط الإنجليز ! – حيث " أنابوا " عنهم محمد سلطان باشا واحمد السيوفى بك فى مقابلة رياض باشا ناظر الداخلية للسماح لهم فى تقديم هدية من الأسلحة الفاخرة إلى الأميرال سيمور والجنرالين ولسلى ودورى لو فسمح لهم

بذلك وقدمت الهدية لهم حيث قوبلت بالشكر ، وهى عبارة عن ثلاث سيوف مرصعة مقابضها بالحجارة الكريمة لكل منهم سيفه ".

وفى ١٤ أكتوبر أقام الجنرال ولسلى بسراي عابدين مأدبه للضابط الإنجليزي والنظار المصريين وكبار الأعيان !.

★ لمزيد من التفاصيل عن السرايات الملكية راجع :

١- ألبرت فارمان : مصر وكيف غدر بها ، ترجمة : عبد الفتاح عنايت ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤

٢- عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢

٣- عبد الرحمن زكى : قاهرة إسماعيل العظيم ، مجلة العمارة ، المجلد الخامس ، ١٩٤٥

٤- " " : قلعة صلاح الدين الأيوبى وما حولها من الآثار ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧١

٥- عبد المنصف سالم : قصور الأمراء والباشوات فى مدينة القاهرة فى القرن التاسع عشر ، مكتبة زهراء الشرق ، ٢٠٠٢

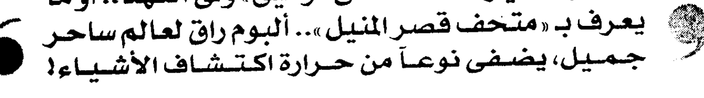
٦- على باشا مبارك : الخطط التوفيقية .

٧- على شافعى : أعمال المنافع الكبرى فى عهد محمد على ، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٥٠

٨- محمد حسام إسماعيل : القاهرة من ولاية محمد على إلى إسماعيل ١٨٠٥-١٨٧٩ ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ١٩٩٧

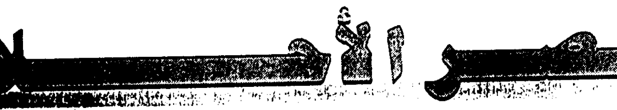
٩- مصطفى فهمى : عصر إسماعيل - القصور والمنشآت العامة والمتنزهات ، مجلة العمارة ، المجلد الخامس ، ١٩٤٥







قصر الأمير «محمد على توفيق» ولى العهد.. أو ما يعرف بـ «متحف قصر المنيل».. ألبوم راق لعالم ساحر جميل، يضفى نوعاً من حرارة اكتشاف الأشياء!



قصر الأحلام

صورة رائعة، صادقة، لعصر مضى، وشاهد من التاريخ على دنيا.. لم تعد من دنيانا!.. لحظات، بعد اجتياز البوابة الضخمة للقصر، تبادر الى الذهن تساؤل: هل كان الامير يطمح الى تشكيل عالمه الخاص، المحتشد بالصيغ الشرقية والمشاهد المثيرة والألوان الرائعة الفائقة الجمال، بديلا عن عالم الواقع الرمادى، الذى نأى به عن عرش مصر؟!

وُلِدَ الأمير محمد على عام ١٨٧٥، وتوفى فى لوزان بسويسرا فى ٣ ابريل عام ١٩٥٤، وهو نجل صاحب الدولة محمد توفيق باشا، الذى ولى «الأريكة الخديوية» فى ٢٦ يونيو عام ١٨٧٩، خلفا لوالده الخديو إسماعيل بن إبراهيم باشا بن محمد على باشا الكبير، والدته «أمينة خانم» وشقيقه الأكبر الخديو عباس حلمى الثانى.

وقد وصف المؤرخ «احمد شفيق» فى مذكراته، اول رحلة سياحية قام بها نجلا الخديو توفيق: عباس حلمى ومحمد على، إلى سويسرا، فى ١٥ يونيو عام ١٨٨٤، يصحبهما «د. عيسى بك حمدى ويوسف بك ضيا الضابط بالمدرسة العلية وناظرها مسيو مونتان ومحمود أفندى شكرى بقلم تركى المعية».. ثم عادا فى ١٠ سبتمبر ١٨٨٤، واستقبلهما فى ميناء بورسعيد محافظ المدينة، ثم استقلا قطارا خاصا الى القاهرة، حيث كان بانتظارهما «جمع غفير من ذوات العاصمة ومستخدمى المعية السنية وفريق من تلامذة المدرسة العلية»، وقد حظى احمد شفيق بـ «لقياهما ولثم ايديهما»، وعند وصولهما الى سراى عابدين «نحرت جاموسنان تحت اقدامهما» ووزع لحمهما على الفقراء!

من المنيل إلى التحرير!

بدا الامير فى تشييد قصره عام ١٩٠١، واتمه عام ١٩٢٩، بجزيرة «الروضة» التى شهدت مناظر الخلفاء ومتنزهاتهم، وقصور المماليك البحرية، والمساحة الكلية للقصر ١٥ فدانا، تشغل المبانى نحو خمسة آلاف متر، وقد بنى على جزء من قصر إبراهيم باشا، الذى امتدت سراياته وبساتينه حتى موقع مجمع التحرير حاليا!

والقصر مكون من ستة مبان، مشيدة على الطراز الإسلامى الحديث، المستوحى من مدارس فنية إسلامية مختلفة: المصرية، المغربية، السورية، الفارسية، والعثمانية.

الى اليمين من المدخل الرئيسى «سراى الاستقبال»، وتضم فى الطابق الارضى: «قاعة التشريفة» عبارة عن صالون لاستقبال الرجال، على الطراز السورى، يتوسطه مائدة ضخمة من الخشب المطَعَّم بالعاج عليها طبقان كبيران من البورسلين الملون، يوضع بهما الرسائل والطلبات الخاصة، وتنتظم على الحائط بعض لوحات الفن الاستشراقى، وتفتح القاعة على قاعة استقبال الحريم، على الطراز التركى، بورتريه للسيدة قرينته «أليس إيمون» الفرنسية، ثم نصعد على سلم بدرابزين من الارابيسك دقيق الصنع، فيطالعنا «ماكيت» لجامع السلطان قايتباى، من الخشب الفاخر المرصَّع بالصَدَف والعاج، الى اليسار «القاعة المغربية».. وفى الوسط «قاعة الحريم» تميزها مشربية رائعة تطل على حديقة القصر، واسرح الطرف فى هذا المكان، واتخيل البرنسيسات بملابسهن الفاخرة، بألوانها الزاهية المزركشة بالجواهر والأذيال الطويلة، يتضوعن طيبا وعطرا فواحا، تتقدم منهن جوار مدربات يتسلمن منهن «اليشمق والفراجية» ومع كل أميرة الوصيفة الخاصة بها.

ثم ندلف إلى «الصالون الشرقى» او قاعة الاجتماعات، تتصدرها «الشمس» شعار الدولة العثمانية، والذى لا تكاد قاعة بالقصر تخلو منه، ويقال أن الأخشاب الفاخرة التى تغطى جدران وسقف هذه القاعة، قد انتزعت من قصر «العظم» وبعض قصور دمشق القديمة!.. ثريات بللورية، مشكاوات، مبخرة نحاسية ضخمة، ١٢ نافذة من الارابيسك والزجاج المعشق الملون، وديكور من الرخام لدفاية على شكل محراب، وباب يؤدى إلى شرفة تطل على الحديقة، فترى ما يشبه الأدغال الصغيرة من الأشجار

عرفه عبده على

والنباتات النادرة تحيط بممرات القصر. سور الشرفة من الخشب المخروط، عندما دققت النظر، لاحظت بعضا من «نجمة داود» منقوشاً على الخشب هل هو مأخوذ من قصر لأحد بارونات اليهود.. أم أن من قام بعمل سور الشرفة كان يهوديا..!

وما بين سراى الاستقبال والمسجد، يرتفع «برج الساعة» وهو فى الأساس منارة ملحقة بالمسجد، مربعة الشكل تحيط بها كتابات بالخط الكوفى، فتوحى تماما بطراز الابراج كالسورية فى عصر ما قبل الإسلام!

أما المسجد والذى شُيِّد عام ١٩٣٣، فالباب من الخشب الأسود المحَلَّى بالنحاس، الى اليمين لوحة تذكارية بإنشاء المسجد، والى اليسار، لوحة تذكارية أخرى تشمل اسماء العاملين والفنانين الذين أبدعوا هذا البناء، سقف الإيوان الشرقى هو تحفة رائعة، فتحات مستديرة أعلى الجدران، على شكل مقرنصات ينفذ منها الضوء، تحتها لوحات دائرية منقوش عليها اسماء الله الحسنى بالمينا البيضاء، المحراب شديد التجويف، مُبَطَّن بالقيشانى الازرق ومن الخارج بالخشب المخروط المذهب، تعلوه الآية: «يا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُم وَافْعَلُوا الخيرَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُون».. تكتمل عناصر الفخامة بمحراب فى الركن الايمن، قطعة من الفن الرفيع، مصنوع من الخشب الفاخر المذهب، تعلوه الآية «وَاعْتَصِمُوا باللهِ هُوَ مَوْلاكُم» ثم قرص الشمس على شكل نصف دائرى، وتغطى القاعدة والدرجات قطيفة باللون النبيتى المزركش بالذهب، ويفصل الإيوان الشرقى عن الإيوان الغربى، عمودان من الرخام الابيض، يتوسطهما «دكة التبليغ» وبالإيوان الغربى، باب يفتح على الشارع..

نافورة الحمراء

اكبر السرايات هى «سراى الضيافة»، وتتضمن «بهو النافورة» وهى من المرمر المصرى، على طراز نافورات قصر الحمراء بغرناطة، وتعلو السلم الخشبى لوحة ضخمة لمحمد على باشا وقرص الشمس فوقها، الجدران مكسوة بالفسيفساء المستوردة من «كوتاهيه» ثلاثة عقود ترتفع على اربعة أعمدة رخامية فى المنتصف، العقد الأوسط مكتوب عليه سورة الفاتحة، نتيجة من الارابيسك المطَعَّم بالصدف، يتوسطها صورة لمسجد محمد على بالقلعة، بتاريخ ١٦ سبتمبر سنة ١٩٥٢، يوم مغادرة الأمير للقصر، لآخر مرة، الى سويسرا، ساعة حائط من طراز القرن الثامن عشر صنعت بانجلترا، دفاية من النحاس، وأخرى من الفسيفساء الازرق منقوش عليها اسم الجلالة واسماء الخلفاء الأربعة، أما «بهو المرايا» فتميزه مرآة بلجيكية ضخمة إلى اليمين، وأخرى إلى اليسار، ثلاثون لوحة بالألوان لسلاطين الدولة العثمانية، تمثال نصفى من الرخام للخديو إسماعيل، ثم «الصالون الازرق» ومكتب ملحق به صالون، يضم مجموعة لوحات استشراقية، ولوحة بالألوان لـ «الست الملا».. السقف عبارة عن براطيم خشبية مُذهبة، ثم قاعة صغيرة كان ينفرد فيها بنفسه، بها أريكة من الارابيسك المطعم، ودولابان يضمان الأوسمة والنياشين التى أهديت اليه من الملوك والامراء، ثم «قاعة الطعام» يتوسطها مائدة ضخمة، عليها طبق فاكهة من الفضة.

نجوم السقف الذهبية

و «نيش» إلى اليمين، يضم مجموعة ادوات المائدة الخاصة بالخديو توفيق، بجواره باب يفتح على اسانسير يصعد بالطعام من المطبخ مباشرة، صدر القاعة عبارة عن اربعة نوافذ ضخمة من الارابيسك والزجاج الملون، وإلى اليسار، دولاب لأطقم الشاى والقهوة من الفضة الخالصة، من بينها مجموعة مهداة من لويس فيليب ملك فرنسا، ثم «الصالون الصدفى».. السقف باشكال نجمية من الخشب المذهب، والصالون كله من الخشب الفاخر المطعم بالصدف، ملحق به حجرة صغيرة، بها ديكور دفاية خشبية على شكل محراب، وطقطوقة رائعة بها تجويف سرى، كان يخفى به أشياءه الخاصة جدا!!

أما سراى العرش، فهى قاعة ضخمة مستطيلة تسمى «قاعة العرش» منقولة من قصر الجوهرة، تتصدرها لوحة كبيرة لمحمد على باشا، أبدعها الفنان هدايت زكى، أمامها كرسى العرش المذهب، تكسوه قطيفة حمراء، مكتوب عليها اسم محمد على بالخط التاجى المزدوج، فازتان من الخشب المذهب، وشمعدانان كبيران بثمانية فنيارات، على قاعدة من الرخام، قرص ذهبى للشمس المشعة، شعار الدولة العثمانية، يشغل معظم السقف، وتصطف على الجانبين مقاعد فوتيل بنفس طراز كرسى العرش، تغطى النوافذ ستائر حمراء يتوسطها علم الدولة العثمانية، وإلى اليمين، لوحات للنيل والاهرام ومسجد القلعة، وإلى اليسار، لوحات ملونة ضخمة لحكام مصر، بدءاً بإبراهيم باشا وتنتهى بالخديو عباس حلمى الثانى فقط!..



إحدى مقتنيات قصر الامير محمد على بالمنيل

وتضم سراى «متحف الصيد» مجموعات محنطة لحيوانات الصيد، وطيور نادرة، وزواحف، وفراشات بألوانها الطبيعية. ومجموعة الملك فاروق، التى كانت محفوظة بقصر انشاص، وهذا المتحف انشئ عام ١٩٦٣.

والمتحف الخاص بسراى الإقامة، والتى تضم القاعة الذهبية، فيشمل مجموعات من المصاحف والمخطوطات النادرة، وأدوات الكتابة، وسجاجيد إيرانية نادرة، واطقم مائدة من الفضة والصينى، وشمعدانات من الكريستال، وينبوع أو نافورة على شكل أسُود رخامية، كان يتدفق منها الماء بألوان متعددة!

فهارس



● صورة نادرة لفندق شبرد الثانى بشارع الجمهورية والذى دمر فى حريق القاهرة يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ .

فندق شبرد ..

عرفه عبده على

« شبرد ! .. هو واحد من المعالم التى اكتسبت مع الزمن : طابعا اسطوريا ، ومابين الاروقة والحدائق والشرفات وغرف النوم ، ندخل فى الحلم مباشرة .. يوم كان السحر يقود الخطى والطريق فى مدن الغموض وبهجة الالوان وصخب الزحام وعبق التوابل .. !

أول مقر لفندق شبرد ، كان فى قصر « محمد بك الالفى » الذى اتخذه الجنرال كليبر مقرا لقيادة الحملة الفرنسية ، ثم تحول الى « مدرسة الألسن » واغلقت فى عهد عباس الاول ! .. وموقعه كان على حافة بركة الازبكية ، عند تقاطع شارعى الالفى والجمهورية حاليا .

أسس هذا الفندق الشهير عام ١٨٤١ مستر « صامويل شيرد » تحت اسم « فندق بريطانيا » وشارك فى ادارته مستر « هيل » الذى كان يدير بعض الاستراحات على الطريق الصحراوى وفندقا بمدينة السويس ..

مستر شبرد ، البريطانى الجنسية ، كان ابنا لفلاح ، هرب من حياته البائسة الى البحر وفى جيبه « شلن » انجليزى ! .. لم يكن يدرك شيئا عن الفنادق ، سوى تواضع امكانياتها فى ذلك العصر ، لكنه كان ينتمى الى ذلك الطراز من العباقرة ، ومع تطور التجارة وحركة السفر النشطة بين اوروبا والشرق ، بلغت شهرته الآفاق ، وخلال عام ١٨٤٥ ظهرت لافتة « فندق شبرد » ! ..

كانت اعلانات الفندق ، تفخر بانه المكان المفضل للعائلات الملكية والامبراطورية والارستقراطية ، وتشير الى وجود « دهبيات » للايجار واقامة اسواق خيرية ومسابقات رياضية وحفلات تنكرية راقصة ، واصبح الفندق ، محور ارتكاز للحياة القاهرية ، والزوار ينحون جانبا « دليل المسافر » حين يدلفون اليه ، فيجدوا به كل تفاعلات الحياة ، ومن لم يكن محظوظا ، ينزل بحجرة تطل على الاسطبل خلف الفندق ، أما المحظوظون وعلى علاقة وثيقة بمستر « شارلز بهلر » مدير الفندق ، فيفوزون بجناح أو غرفة تطل على الحدائق الرائعة المشمسة ، ومجموعات البجع الجميلة التى تمرح بين اشجار النخيل السامقة ، وكان وقوف بعض النبلاء والامراء وقريناتهم بالشرفة الشهيرة ذات المظلة ، يجسد كل خيالات ورؤى مجتمع « رينوار » فى قمة الحياة الباريسية !

ومن المعالم الشهيرة للفندق « شجرة كليبر » التى لقى تحتها الجنرال كليبر مصرعه على يد « سليمان الحلبى » !

وفى عام ١٨٩١ ، هدم المبنى القديم للفندق ، وشيد مبنى اخر يشرف على حدائق الازبكية وشارع كامل ، ولاكثر من نصف القرن ، كان الفندق قلبا للمجتمع الاوروبى المترف فى القاهرة ، وضم اكثر من ثمانين غرفة نوم بحمام مستقل ، وقاعة للقراءة واخرى للموسيقى ، وقاعة للرسم ثم قاعة ضخمة للطعام ، تتسع لخمسمائة مدعو ، ذات طابع ينتمى لطراز عصر النهضة ، وكان مستر « فيليب زيش » اول مدير للفندق الجديد .

فى يناير ١٩٠١ ، نشرت جريدة « voybct » اللندنية تحقيقا ، جاء فيه :

« ان المشهد من اعلى فندق شبرد ، منعم بالحركة والحياة . ففى ذروة الموسم السياحى ، ترى جموع زوار الفندق وهم جالسون فى استرخاء ، يستمتعون بتناول القهوة التركية ، فى الشرفات وتحت ظلال النخيل ، وتتنوع الازياء فى مشهد فريد للسياح الاوروبيين والامريكان ، والقادمين من اليابان والهند واستراليا وجنوب افريقيا .. وجوه باسمة تدل على الثراء والتحضر » ! .

وقد قضى « تيودور هرتزل » مؤسس الصهيونية العالمية ، فترة زيارته للقاهرة عام ١٩٠٣ بفندق شبرد ، ليطرح قضيته فى « اقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين » على اللورد « كرومر » والحكومة المصرية برئاسة « بطرس غالى » ! .

واقام به السياسى البريطانى الاشهر سير « ونستون تشرشل » ابان مؤتمر القاهرة عام ١٩٢١ ، وخلال الحرب العالمية الثانية ، اصبح شبرد مركزا للشئون السياسية ، ومكانا مفضلا للقاءات الجواسيس والجنرالات ، وفى عام ١٩٤٢ ، وبينما « روميل » يتقدم الفليق الافريقى شرقا الى الاسكندرية ، انتشرت الشائعات بانه قرر ان يتخذ من فندق شبرد الشهير : مقرا للقيادة الالمانية ! .. وقيل انه سيكتفى بحجز جناح له ! ... وفى رواية ساخرة ، ان أحد ضباط الحلفاء سأل موظف الاستقبال عما اذا كان السيد « روميل » قد وصل واقام بالفندق ؟ .. فما كان من الموظف المندهش الا ان راجع - كشف الحجز - بالفندق ، ثم اجابه بهدوء : لا ياسيدى لم يصل بعد ... قد يكون فى الطريق ! ..

والكتاب الذهبى للفندق ، كان فكرة مديره فى العشرينات والثلاثينات « فريدى الورت » الذى خصص لنفسه ايضا كتابا ذهبيا اخر ، فكان كبار الشخصيات يوقعون فى الكتابين معا ، وكانت اشهر التوقيعات لامير ويلز ، فيصل ملك العراق ، الاغاخان ، الملك البرت ، فرديناد ملك بلغاريا ، اليزابيث ملكة بلجيكا ، مارى ملكة رومانيا ، اريك امير الدانمارك ، دومرج ولى عهد السويد ، والملك الفونسو الذى شغل توقيعه صفحة كاملة بخط عريض جميل ، برنارد شو ، ملك وملكة ايطاليا ، ليوبولد ملك بلجيكا ، الملك امبرتو ، دوق لوكسمبورج ، بيتر ملك يوغوسلافيا ، بارادو ملك سيام ، أسقف لندن ، الامبراطور هيلاسلاسى .. وحشد من الامراء والاميرات والجنرالات وادباء وفنانين ، وكان كثير من نزلاء الفندق ، يستدعون الى قصر عابدين ، للتوقيع فى سجل الزوار .

وعندما قرر الملك فؤاد ، زيارة الملك فرديناد ، فى شبرد ، استقبل من باب جانبى ، عقب وقوف سيارته الليموزين ، على حافة بساط احمر فاخر ، فرش خصيصا لصاحب الجلالة ، الوحيد من بين الاسرة الملكية ، الذى رفض التوقيع فى الكتاب الذهبى ، معتذرا بانه « لايوقع الا فى كتاب جديد .. وفى الصفحة الاولى » ! ! ..

فى يوم « السبت الاسود » ٢٦ يناير ١٩٥٢ الشهير ب « حريق القاهرة » احترق الفندق ودمر ضمن مانال منشآت العاصمة من خراب شامل ، وعبرت الكاتبة البريطانية « ايفلين وو » عن مشاعرها قائلة :

« القاهرة ، لن تكون القاهرة بدون فندق شبرد .. ولابد ان ينهض ثانية ، كطائر العنقاء فى الاسطورة المصرية القديمة ، الذى ما ان يحترق ، حتى يخلق ثانية فى مكان اخر ، اكثر بهاء وجمالا » ! .

واستمر التخطيط والاعداد للبناء الجديد نحو عامين ، فى موقعه الحالى على النيل بجوار فندق سميراميس ، وروعى ان يحتوى كل ثراء ماضيه العريق ، وارتفع الى تسعة طوابق ، كل طابق يحتوى على ثلاثين غرفة ، لكل منها حمام خاص ، ومزودة باحدث وسائل الاتصال والخدمة ، ومدخل رئيسى فخم يفضى الى ردهة جميلة ، وممرات مكيفة الهواء ، وقاعات استقبال ، ومطعم شرقى فاخر يطل على النيل ، وبار ونادى ليلى بالطابق الارضى ، وروف جاردن ... وتكلف المبنى الجديد اكثر من مليون جنيه ، وافتتح فى يوليو عام ١٩٥٧ ، واصدرت هيئة البريد طابعا تذكاريا لتخليد المناسبة .

المصادر :
1- عرفه عبده على : القاهرة فى عصر اسماعيل
2- Gauthier, T.: L'Orient, Paris, 1875
3- Nerval, G.: Voyage en Orient, Paris, 1950



شارع الاهرام وقد امتد على جا... خط للترا...

فنـــدق ميناهاوس

عرفه عبده على

حتى منتصف هذا القرن ، كان لكل فندق من فنادق الشرق - ومصر خاصة - سحره الخاص به . فهو المكان الذى ينطلق منه السائح فى رحيله اليومى المغامر ، إلى معالم وازقة واسواق الشرق وصحاريه ووديانه ودنياه الساحرة الغامضة ! .. وهو المكان الذى يخلد فيه للراحة والنوم ويحلم بما فعل اليوم .. وما سيفعله ويشاهده غدا ، وفيه يدون مذكراته اليومية ، ويلتقى بزواره ومواطنيه ويدور الحديث عن عجائب وغرائب حياة الشرق ، و الحنين إلى الوطن .. او الحبيب .. وذكريات تتحول إلى صور وحروف والوان !

اليوم نقلب صفحات من تاريخ فندق عريق هو « ميناهاوس » والذى كان بالاساس ، إستراحة للخديو إسماعيل وضيوفه ، شيدت إبان الاحتفالات الاسطورية بإفتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ، ثم خصصت لزوار مصر من كبار الشخصيات ، الراغبين فى زيارة منطقة الاهرامات والقيام برحلات الصيد ، وهذا الفندق مازال قابعا فى موقعه الفريد ، عند سفح الاهرامات ، فى الثمانينات من القرن الماضى ، إشتراه مستر « فردريك هيد » وقرينته ، واطلقا عليه اسم مينا ، موحد مصر الفرعونية واول اسم فى قائمة الملوك الستة والسبعين فى لوحة ابيدوس ، واضافا عدة حجرات الحقت بالاستراحة ،وتم تعديل موقع المكتبة ، واصبح مكانها مدخلا رئيسيا ، وقاعة الطعام تحولت إلى غرفة لتناول الافطار .

عقب وفاة مستر « هيد » .. بيع الفندق إلى مستر «لوك كينج » وقرينته ، وكان من عادتهما قضاء فصل الشتاء بمصر ، كل عام فيقيما باحد الفنادق الصغيرة بالقرب من الاهرام ، وقد اعتبرا هذه المنطقة منتجعا صحيا لهما ، وقاما بإعادة بناء الفندق فى صورته الحالية ، وكان من رايهما ان المبنى القديم يشبه كثيرا بيتا قديما فى الريف الانجليزى .. ! واطلقا على الفندق الجديد إسم « ميناهاوس » .. واستجلبا إليه اثاثا اوربيا بالاضافة إلى الاثاثات الارابيسك التى كانت به من قبل ، واضيفت مساحات جديدة زرعت بالاشجار والزهور والنباتات النادرة ، ومما اضفى على الفندق طابعا مميزا ، الشرفات ذات المشربيات الرائعة والتى مازالت تغطى واجهات الفندق ..

وقد شهدت قاعات ميناهاوس ، العديد من المؤتمرات الدولية ، سياسية واقتصادية وسياحية ، والكثير من الشخصيات العالمية البارزة من ملوك ورؤساء وادباء وفنانين ..

ويصف الأديب البريطانى « دى جيرفيل » إنطباعاته عن إقامته بميناهاوس عام ١٩٠٧ فيقول : « عند سفح الأهرام وعلى حدود الصحراء المترامية ، يقع واحد من اجمل فنادق مصر - مينا هاوس فى ساعة الشاى ، تمتلىء شرفاته بمجموعات مرحة مشرقة ، صالوناته كبيرة ومريحة ، قاعة الطعام على طراز الارابيسك الفاخر ، الطعام متنوع ، شرقى واوربى ، حمام سباحة مفتوح فى الهواء الطلق ، تحيط به حديقة رائعة تفوق الوصف ، بالاضافة إلى ملاعب التنس والجولف والكروكيه .. كل هذه المعطيات الجميلة تجعل الاقامة فى ميناهاوس والرحلة إلى مصر اكثر بهجة واستمتاعا .. إسطبلات الخيل تضم انواعا نادرة جميلة وقوية ، ويمكننا فى جولاتنا ، إستخدام الكارتات والحمير ذات السروج المطرزة ، الجمال ، عربات الرمل ذات العجلات التى تمكنها من إجتياز الصحراء فى يسر ، تجعل النزهة بها تجربة ممتعة ! .

وتقوم إدارة ميناهاوس دائما ، بتنظيم دورات وسباقات رياضية تحظى بإقبال كبير ، سباق الجمال مسليا بصفة خاصة ، هذه الحيوانات تتميز بالذكاء وتكاد تدرك تماما ما يجرى حولها ! .. فهى تحرص بشدة على الفوز بالسباق ، مثل من يقودونها .. فى الشتاء الماضى ، غضب جمل لان آخر سبقه ، وهاجت ثورته فقبض باسنانه على رجل الفارس الذى كان يمتطى الجمل الفائز ! وفى الليل ، يتوهج القمر بلونه الفضى ، فيحرك فينا الانبهار ، ويضىء عالما بعد من عالمنا ، بعيد تماما عن كل ما وقعت عليه عيوننا من قبل ! .. وتصبح النزهة فى هذه الصحراء اكثر سحرا .. الاهرامات يحيطها غموض ابدى ، وسط زرقة الفراغ المحشود بالنجوم .. وبعد عشاء جيد فى مينا هاوس ، يسير العشاق إثنين .. إثنين ، متشابكى الايدى ، وما بين الهمسات والضحكات ، يبحثون عن مكان هادىء يحجبهم عن اعين الرقباء .. فى ظلال تلك الكتل الحجرية العملاقة ، التى ظلت عبر آلاف السنين مأوى لأمثالهم ! .. الف خسارة انها لا تستطيع الكلام .. لكن ربما هذا افضل !!

المصادر :

1- Carré, J.M. : Voyageurs et Ecrivains Francais en Egypte, le Caire, 1932

2- Chateaubriand, F. : Oeuvres Romanesques et Voyages, Paris, 1969

مازال النقاش دائرا حول مصير كوبرى ابو العلا ، احد اقدم جسور القاهرة على النيل ، وكبارى القاهرة ثروة فنية ، معمارية ، يتوقف عندها الباحث المتخصص فى تاريخ القاهرة عرفة عبده على ليكشف جوانب عديدة ربما تضيع فى زحام تفاصيل الحياة اليومية .

كبارى القاهرة جسور الحنين

كوبرى قصر النيل القديم عام ١٨٧٦

صورة نادرة للمدخل الشرقى لكوبرى الجلاء (الانجلين) عام ١٩٤٢

إذا كان محمد على باشا هو مؤسس « الدولة الحديثة فى مصر ، فللخديو إسماعيل فضل بناء « المجتمع » الحديث .. وكان عهده فاتحة عصر جديد فى تاريخ القاهرة ، وذاكرة التاريخ لا يمكنها أن تنسى ما قام به من جهود رائعة فى التخطيط والعمران والتحديث ،

كانت القاهرة فى بداية عصر إسماعيل ، مجرد مدينة صغيرة ، تمتد من سفح المقطم والقلعة وتنحدر غربا لتنتهى عند اطلال ومقابر الأزبكية .. ثم سلسلة من الكيمان والمستنقعات حتى شاطىء النيل .. ولم يكن النيل فى موضعه الحالى ، بل كان فرعه الرئيسى يمر بقرية الجيزة القديمة ، ويسير محاذيا لشارع الدقى ومارا ببولاق الدكرور والعجوزة حتى امبابة .

وكان اول كوبرى يشيد بمصر هو كوبرى « بنها » الاقدم ، الذى بدأ العمل فيه بالاتفاق مع « چورچ ستيفنسون » مخترع القاطرة البخارية ، وافتتح رسميا عام ١٨٥٦ فى عهد الخديو سعيد باشا ، ثم اعيد إنشاؤه عام ١٨٩٤ ،

كوبرى قصر النيل :

اوكوبرى « الجزيرة » .. اول كوبرى يشيد على نيل القاهرة ، فعندما كان العمل جاريا على قدم وساق فى سراى الجزيرة « عمر الخيام ـ ماريوت » لم يعد من اللائق إبقاء العبور من شاطىء إلى شاطىء : على صف من المراكب المربوطة إلى بعضها ، ممدود عليها الواح من الخشب ، وبات من المحتم تشييد كوبرى يتناسب مع فخامة الاحياء التى سيربط بينها ..

فى عام ١٨٦٩ ، عهد إلى شركة « Fives Lillr » الفرنسية بتنفيذ هذه الفكرة ، ففى ٢٧ محرم ١٢٨٦ هـ ، اصدر إسماعيل باشا ـ امرا كريما ـ إلى نظارة الاشغال ، هذا نصه :

« القونطراتو المعقود مع مسيو ـ جانجيه ـ بالتوكيل عن قومبانية فيف ليل ، وممضى منه ومنكم بالتوكيل عن الحكومة ، بشأن إعمال كوبرى على بحر النيل للتعدية للبر الغربى ، من جهة قصر النيل ، بمبلغ وقدره مليونان وسبعمائة وخمسون ألف فرنك ، والحسبة المرسولة مع القونطراتو بيان مواعيد التادية والفايض ستة فى المائة سنوى ، صار منظورى ووافق إرادتى قبول واعتماد ذلك ، من بعد مراجعة الحسبة وتطبيقها على منطوق القونطراتو والتصديق على صحتها بديوان المالية »

وفى جريدة « الوقائع المصرية » بتاريخ ١٨ مايو سنة ١٨٧١ ، نشر الخبر التالى :

« اجتمع لتركيب الكوبرى المعدنى الموصل من قصر النيل إلى الجزيرة ، المتعهد به قومبانية ـ فيف ليل ـ كل من حضرة سعادة ناظر الاشغال العمومية ـ وبعض حضرات المهندسين والذوات المعتبرين والمدعوين من مسيوجانجيه ، مامور اشغال ذلك الكوبرى ، فركب أمامهم واستحسنوا عمليته ، وذلك ان الجزء الاول من ظهر الكوبرى البالغ طوله ٥٠٠ قدم ، كان موضوعا على سطح تراب بطول سور قصر النيل ، مرتفعا قليلا عن الارض بعجلات صغيرة معدنية ، فحركه جماعة قليلون بآلة اداروها يقال لها (الونش) فاخذ فى السير الهوينا على عجلاته بلا مشقة ، جهة المكان اللازم لتركيبه فيه على النيل ، ومهندس ذلك العمل ، قد استعمل الطرق الهندسية اللازمة فى احكام الكوبرى ومتانته ، والذى يراه ذلك المهندس ـ بمقتضى سرعة العمل الحاصلة فيه ـ انه بتحقق تمام تركيب اجزائه فى اخر فصل الصيف .. ويمر عليه العالم » !

وافتتح « جسر الجزيرة » او كوبرى قصر النيل ، رسميا فى ١٠ فبراير سنة ١٨٧٢ ، وبلغ طوله ٤٠٦ امتار ، وعرضه عشرة امتار ونصف المتر ، منها ثلاثة امتار للافريزين ، وله فتحتان ملاحيتان ، ويدار الجزء المتحرك منه باليد ، وبلغت نفقاته ما يساوى ١٠٨ آلاف من الجنيهات المصرية .

وكان « امر كريم » صدر إلى نظارة المالية ، فى ٢٩ شعبان سنة ١٢٩٢هـ ، نصه : « قد علمنا ان الاربعة تماثيل سباع ، السابق توصية الخواجة ـ جاكمار ـ عنهم برسم وضعهم على راس كوبرى قصر النيل ، صار حضورهم وموجودين والحالة هذه بالبحرية ، وأن اثمانهم ومصاريفهم بلغت الفا وستمائة وخمسة وثمانين كيسة وكسور ، وحيث اقتضت إرادتنا خصم المبلغ ـ المحكى

عرفة عبده على

عنه ـ بالابعادية على طرف الديوان ، مع إجراء اللازم لمكانية البحرية من طرفكم بارسال التماثيل ـ المحكى عنها ـ فى هذا الوقت الذى هو زمن النيل ، إلى قصر النيل ، ووضعها به بحالة الحفظ والصيانة حتى ينظر فى تركيبها !

صنعت هذه التماثيل البرونزية فى إيطاليا ، وبلغ ثمنها وتكاليف شحنها إلى الاسكندرية ما يعادل : ٨٤٢٥ جنيها مصريا .

فى عام ١٩١٢ ، لوحظ نحر حول دعائم الكوبرى ، فاتخذت بعض وسائل الحماية الفنية ، وفى عام ١٩٢٠ ، تمت عملية ترميم شامل لجسم الكوبرى ، وفى أول إبريل عام ١٩٣١ ، توقف المرور على هذا الكوبرى ، واقتضت الضرورة وضع مشروع الكوبرى الجديد فى إطار التنفيذ السريع .. وكان صاحب الجلالة الملك فؤاد قد تفضل « ايد الله ملكه » بارساء حجر الأساس بيده الكريمة فى ٤ فبراير عام ١٩٣١ وعهد بتنفيذه إلى شركة « دورمان لونج » .. وبلغت نفقاته ٢٩١,٩٥٥ جنيه مصرى ، ويبلغ طوله ٣٨٢ متراً ، وعرضه ٢٠ متراً منها متران ونصف المتر لكل افريز ، واقيمت عند مدخليه : منارتان من الجرانيت ، فى رأس كل منارة مصباح ، امامها واحد من الاسود الاربعة التى كانت قائمة على مدخل الكوبرى القديم ، ولكن على قاعدة اقل ارتفاعاً ، واعدت له فتحة ملاحية طولها ٦٨ متراً ، تعمل بالكهرباء وباليد إذا لزم الامر ، وزود بشرفتين رائعتين بسلم من الرخام البديع .

وعقب ثورة يوليو ١٩٥٢ ، اعيد تخطيط جدران كوبرى قصر النيل، وانشىء نفق تحت هذا الميدان ، ونفق اخر تحت الكوبرى بمحاذاة كورنيش النيل ، واطلق عليه « كوبرى التحرير » ! .. ثم كوبرى « جمال عبد الناصر » تخليدا لذكراه ! .. غير أن اسم « قصرالنيل » ظل علما عليه !

كوبرى امبابة :

انشىء كوبرى إمبابة القديم عام ١٨٩٠ ، واشرف على تنفيذه شركة : « la maison day » بخط مفرد ولحمل القطارات التى تزن ٧٢ طنا ، وقبيل تشييد هذا الكوبرى ، كان خط السكة الحديدية ينتهى عند إمبابة ، فكان نقل المسافرين والبضائع الاتية من الوجه البحرى ، يتم بالمراكب الشراعية ، إلى البر الغربى امام إمبابة ، حيث قطارات الركاب وقطارات البضاعة فى إنتظار الجميع للتوجه إلى الوجه القبلى ، والعكس للقادم من صعيد مصر إلى الدلتا ، إلى ان صدر « امر كريم » إلى مدير السكة الحديدة « على باشا مبارك » فى ٥ المحرم لسنة ١٢٨٦ بتشغيل « المعدية البخارية » لنقل الركاب من وإلى البر الشرقى للنيل .

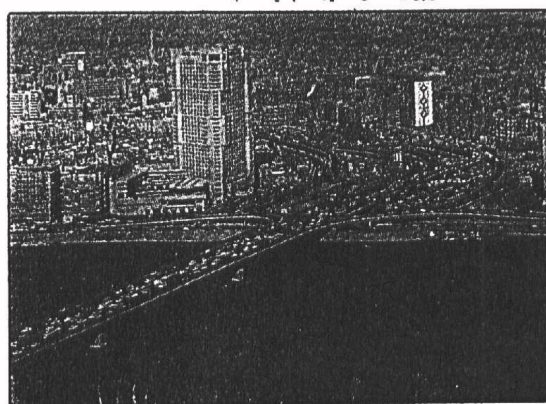
وكان طول الكوبرى القديم ٤٩٥ متراً ، وله ست فتحات ثابتة وواحدة متحركة ذات ممرين ملاحيين ، عرض كل منها ٢١ متراً ونصف المتر ، وكان له ممران جانبيان لمرور العربات والمشاة عرض كل منها ٣٨٠ سم .

وقد بدأت مصلحة السكة الحديد فى تشييد كوبرى إمبابة الحالى ، شمالى الكوبرى القديم بمسافة ٣٥ متراً ، عام ١٩١٢ ، وبسبب اندلاع الحرب العالمية الاولى ، لم تتحكم شركة « el societe Anonyme Aqrepent » من إنجازه الا عام ١٩٢٥ ، وقد وصف فى ذلك العصر بانه « اكبر كوبرى فى القارة الافريقية » ! ويبلغ طوله ٤٩٠ متراً ، بخط مزدوج ، وست فتحات وفتحة واحدة متحركة ذات ممرين ملاحيين ، وممران جانبيان لمرور السيارات والعربات ، فوقهما ممران لمرور المشاه فقط ، عرض كل منها ٤٢٠ سم . وبلغت تكاليفه ٦٠٠ الف جنيه مصرى

جسر الحنين

كوبرى قصر النيل الجديد عام ١٩٣٨

مرور المراكب من الفتحة الملاحية لكوبرى قصر النيل القديم عام ١٨٧٦



كوبرى ٦ اكتوبر وامتداداته

كوبرى الجلاء :

أنشىء الكوبرى القديم الذى كان معروفا بـ « كوبرى البحر الاعمى » عام ١٨٧٢ وهو يقابل كوبرى قصر النيل على الفرع الغربى للنيل ، ويصل الجزيرة بالجيزة ، وفى عام ١٩١٤ ، افتتح الكوبرى الحالى ، ويبلغ طوله ١٤٥ متراً وعرضه ١٩ متراً ، منها ثلاثة أمتار ونصف المتر لكل إفريز .

وعن انباء الكوبرى القديم جاء فى « الوقائع المصرية » بتاريخ ١٣ فبراير ١٨٧٢ ما نصه : « قبل ختام الشهر الثالث ، بلغنا أن القنطرة الحديد المشتغل بعمليتها منذ مدة بين جانبى النيل ، تجاه قصر النيل ، بمعرفة مسيو (غازه)مهندس القومبانية الفرنساوية المعروفة بـ (فيفليل)ستفتح بعد أيام قليلة ، وهى من المحاسن الخديوية الجليلة .. »

وقد عرف الكوبرى الحالى عند إنشائه بـ « كوبرى الإنجليز » .. ثم اشتهر بكوبرى « بديعة » حيث كان كازينو الفنانة الشهيرة « بديعة مصابنى » فى الموقع الذى يحتله فندق شيراتون القاهرة ، وبعد ثورة يوليو أطلق عليه « كوبرى الجلاء » .

كوبرى الجيزة :

انشىء الكوبرى القديم فى عهد الخديو عباس حلمى الثانى ، وافتتح فى ٦ فبراير عام ١٩٠٨ ، واشتهر بـ كوبرى عباس » .. وكان طوله ٥٣٥ متراً ، وعرضه ٢٠ متراً ، منها ٥ أمتار للافريزين ، و١٢ فتحة ثابتة ، وواحدة ملاحية طولها ٦٥,٦٤ متر، وكان به خطان للترام ، وقواعده عبارة عن خمس كمرات رئيسية شبكية من طراز الكوابيل المحملة . وقدتم ترميمه عدة مرات ، إلى ان توقف المرور عليه فى ١ فبراير عام ١٩٦٧ ، ثم توقف العمل فى تنفيذ الكوبرى الجديد ، بسبب ظروف العدوان الاسرائيلى فى يونيو من نفس العام ، فلم يتم انجازه الا فى عام ١٩٧١ ، وقام بافتتاحه د . محمود فوزى رئيس الوزراء فى تلك الفترة .

كوبرى الملك الصالح :

انشىء الكوبرى القديم ليصل جزيرة الروضة بالقاهرة ، عند مصر القديمة ، وليقابل كوبرى عباس ، وافتتح ايضا فى ٦ فبراير عام ١٩٠٨ ،وكان طوله ٨٣ متراً منها ثلاثة امتار للافريزين ، واشرف على تشييده سير « وليم أويل » وكان له ثلاث فتحات وقواعده اسطوانات خرسانية عملت بطريقة الضغط الجوى ، وبلغت تكاليفه الف جنيه مصرى ... وقد ازيل هذا الكوبرى ، ليقام فى نفس موقعه الكوبرى الحالى ، الذى افتتح للمرور فى ٢٤ يوليو عام ١٩٦٦ .

كوبرى محمد على :

شيد هذا الكوبرى ليصل القاهرة بجزيرة الروضة ، عام ١٩٠٨ ، على الفرع الشرقى للنيل ، فى مواجهة كلية الطب ومستشفى قصر العينى ، وانشىء على ثلاث فتحات ، وطوله ٦٧ متراً ، وعرضه ١٥ متراً منها ثلاثة امتار للافريزين ، وقد بلغت تكاليفه ١٦٥٠٠ جنيه مصرى .

كوبرى الزمالك :

شيد هذاالكوبرى على البحر الاعمى ، على مسافة ١,٥ ك . م جنوب إمبابة ، بطول ١٢٥ متراً ، وعرضه ١٦,٥ متر ، منها متران وربع المتر لكل من الافريزين ، وكان عليه خطان للترام ، وكانت له فتحتان ثابتتان طول كل منها ٣٠ متراً ، وفتحتان للملاحة عرض كل منها ٢٠ متراً ، والجهاز المتحرك يعمل بالكهرباء ويدويا ، وكان بدء العمل فيه عام ١٩٠٨ ، وكان افتتح رسميا عام ١٩٦٢ مع كوبرى بولاق (أبو العلا) وبلغت تكاليفه ٧٥ الف جنيه مصرى ، وقد ازيل هذا الكوبرى مع بدء تنفيذ كوبرى ١٥ مايو .

كوبرى بولاق (ابو العلا)

بدأت شركة " ves lille " تنفيذ مشروع هذا الكوبرى عام ١٩٠٨ ، وافتتح رسميا عام ١٩١٢ ، وبلغت تكاليفه ٢٠٠ الف جنيه مصرى ، وطوله ٢٧٤,٥ متر ، وعرضه ٢٠ متراً منها ستة امتار للافريزين ، وشيد من الطراز الذى تعلو كمراته الطريق ـ throughBridge وهو تصميم المهندس « جوستاف إيفل » الذى شيد برج ايفل أشهر ابراج العالم . ويتكون الكوبرى من ٤ فتحات ثابتة ، طول كل منها ٥٠ متراً ، وفتحة ملاحية بوسط النهر ، تفتح راسيا Bascule ridje ويتكون الجزء العلوى من كمرتين رئيسيتين ، إرتفاع كل منها ٨ امتار ، ستة منها فوق الطريق ومتران تحت الطريق ، أما الارضية فمصنوعة من كمرات عرضية واخرى طولية ، تعلوها الواح صاج مقعرة تعلوها خرسانة وارضية من طوب الاسفلت ، عدا الفتحة الملاحية فارضيتها من الخشب . وكان عليه خطان للترام ، ففى يوليو عام ١٩١٢ ـ فور افتتاحه ـ تم تسيير خط للترام من بولاق ، يمر بالكوبرى إلى الجزيرة ، ولم يفتح الكوبرى للملاحة : لان البغال مشطورة وغير موازية لاتجاه تيار النهر .

عقب ثورة يوليو ، اطلق عليه كوبرى « يوليو » .. وفى عام ١٩٨٦ ، وافقت لجنة الاثار الاسلامية والقبطية على تسجيله كاثر ، والاحتفاظ به فى نفس موقعه ، وفى العام التالى ، قررت محافظة القاهرة إزالته لاستحالة بقائه فى موقعه من الناحية الفنية والهندسية !

وقد اتجهت الدراسات الهندسية إلى ضرورة نقل الكوبرى : حتى يتيح الفرصة لامتدادات كوبرى ١٥ مايو .. وفى آخر اجتماع للسيد الرئيس مع رئيس الوزراء ووزراء الادارة المحلية والثقافة والتعمير ومحافظ القاهرة ، وكان راى السيد الرئيس حاسما للموضوع بأن الاساس هو الابقاء على الكوبرى ، سواء فى مكانه او فى اى مكان آخر ..

كوبرى المنيل (سيالة الروضة) :

فى الفترة من عام ١٩٥٥ إلى عام ١٩٥٨، انجزت حكومة ثورة يوليو ثلاثة كبارى جديدة ، بجزيرة الروضة ، اولها كوبرى المنيل او سيالة الروضة ، بجوار سراى الأمير محمد على توفيق (متحف قصر النيل) .. وليقابل كوبرى الجامعة على الفرع الغربى للنيل ، كما انشىء طريق « السياله » الجديد ليصل مابين قصر محمد على وقصر المانسترلى .

كوبرى فم الخليج :

شيد ايضاً على الفرع الشرقى للنيل ، شمال ميدان فم الخليج ، وجنوب كوبرى السياله .

كوبرى الجامعة :

اكبر كوبرى شيدته ثورة يوليو ، وافتتح فى مايو سنة ١٩٥٨ ، على الفرع الغربى للنيل ، ويصل ما بين شارع قصر العينى بالقاهرة ، وشارع نهضة مصر المؤدى إلى جامعة القاهرة ، فاصلا بين حديقة الاورمان وحديقة الحيوان ، فالمدخل الشرقى للكوبرى يقع على امتداد شارع السراى ، مارا فوق طريق كورنيش المنيل ، جنوب مستشفى قصر العينى ، والمدخل الغربى للكوبرى يمر فوق شارع النيل ، متصلا بالميدان الذى نقل اليه تمثال نهضة مصر من مكانه السابق بميدان باب الحديد .

ويبلغ طول الكوبرى ٤٨٤ متراً وعرضه ٣٠ متراً ، وبلغت تكاليفه : ١,٤٠٠,٠٠٠ جنيه مصرى ، وقد أسهم هذا الكوبرى فى تخفيف الضغط عن باقى كبارى العاصمة ، وتنظيم حركة المرور ، وإعادة تخطيط حى المنيل ، وتيسير وصول طلاب الجامعة من قلب المدينة إلى جامعتهم ، وتوفير للوقت والجهد الذى ينفقونة فى الدوران حول منيل الروضه والجزيرة والجيزة .

كوبرى ٦ اكتوبر والطريق الدائرى :

كان كوبرى ٦ اكتوبر إنجازا حضاريا هائلا فى ربط احياء المدينة ، وتيسير حركة النقل والمرور بها ، كذلك كوبرى ١٥ مايو بامتداده من ميدان سفنكس حتى بولاق ابو العلا ..

اما الطريق الدائرى حول القاهرة الكبرى ، والذى بدأ العمل فيه فى فبراير عام ١٩٨٣ ، فكان الهدف منه : إعادة توجيه التنمية الحضارية فى إتجاه المناطق الصحراوية ، مما يخفف من كثافة المرور ، وحدة معاناة مدينة القاهرة من الضغط السكانى ، وتحقيق تنظيم المرور داخل القاهرة الكبرى والحد من الزحف العمرانى على المناطق الزراعية التى تستنزف بواسطة التوسع العمرانى العشوائى .. ويمتد هذا الطريق العملاق حول القاهرة بطول ١٠٥ ك . م ، وعرض ٤٢ متراً ، ويتضمن تشييد إثنين من الكبارى العملاقة على النيل هما : كوبرى المنيب عند جزيرة الذهب ، امام مستشفى القوات المسلحة بالمعادى ، بطول ٣,٥ ك . م ، وتكلفة ٣٣٠ مليون جنيه ، والثانى : كوبرى الوراق عند جزيرة الوراق ، بطول ١,٥ ك.م وتكلفة ١٥٠ مليون جنيه .

المراجع والمصادر :

١- أمين سامي : ملحق كتاب « تقويم النيل » دار الكتب المصرية ١٩٢٦-١٩٣٦

٢- إسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته ، دار الكتب المصرية ١٩٤٥

الزمن

يمضي على قضبان

حكاية القطار

عرفه عبده على

تغير شكل القطار فى مصر فبعد ان كانت القاطرة البخارية هى السمة العامة للقطارات، ونظام الدواوين المعبر عن الألفة والصفاء بين الناس ابتكرت قطارات الاكسبريس، وزاد عدد العربات،ألغيت الدواوين، واصبحت العربات المكيفة تضم العشرات من الركاب ، فقد القطار احدى خصوصياته..!

وأثر القطار فى وجدان المبدع المصرى، فكتب عنه الشعراء والادباء وخلدت السينما كثيرا من الروايات العالمية والمحلية منها على سبيل المثال: «القطار الملعون» للنجمة العالمية «صوفيا لورين» و«القطار الفاخر» لجون وكارول لومبارد ١٩٣٤و «قطار الحب» دوريس داى وجاك ليمون ١٩٥٩ و«القطار» برت لانكستر وجين مورو ١٩٦٤ وبنفس العنوان عن قصة لجورج سيمنون، بطولة رومى شنيدر وجان لوى ترينتينان ١٩٧٢ و«سرقة القطار الذهبى» قطار لندن الشهير و«القطار سيصفر ثلاث مرات» فى قالب كوميدى لجارى كوبر ، جريس كيلى توماس ميشل لى فان كيف ١٩٥٢ ورائعة يوسف شاهين «باب الحديد» و«سيدة القطار» و«لوعة الحب»..

كما اثر القطار فى سلوكيات المجتمع، حيث اسهم فى سرعة وصول المطبوعات من صحف يومية ومجلات اسبوعية وكتب الى انحاء البلاد وتفتحت الأذهان على افاق جديدة، واصبح الناس فى مقدورهم الالمام بأخبار العاصمة والعالم وأهم موضوعات الساعة، وازدهرت الحركة العلمية، فتوافد على القاهرة، الآلاف من شباب الأقاليم والقرى، والتحقوا بجامعة الأزهر، والجامعة المصرية عقب انشائها ويقول المؤرخ «أمين سامى باشا» عن نشأة السكك الحديدية بمصر، وهو يؤرخ لعصر عباس حلمى الأول «.. وكان فى مقدمة ماتجدد من المنافع ـ السكة الحديدية ـ التى أنفق على مدها بين الاسكندرية والقاهرة، بواسطة شركة انجليزية بناء على فرمان الباب العالى، وكان قد طلب فى عهد ساكن الجنان محمد على باشا فى سنة ١٨٣٧ انشاء سكة حديدية بين القاهرة والسويس، وجلب بالفعل نصف القضبان والآلات. الا انه فى اثناء ذلك، طرات موانع فاستعمل ما استحضر فى انشاء سكة حديدية فى ناحية طره، بين الجبل ونهر النيل، لنقل الحجارة والدبش اللازم لبناء القناطر الخيرية، وتنفيذا للفرمان، عقد اتفاق مع المهندس ـ ستيفنسون ـ على مد السكة الحديدية من الاسكندرية للقاهرة، ومن القاهرة للسويس، وعلى تعيين مهندسين من طرفه لعمل الجسر وتركيب القضبان فى نظير خمسين الف جنيه، يأخذونها من الحكومة فحضروا وانضم اليهم جملة من مهندسى الحكومة، وشرع فى العمل، والذى تم منه فى سنة ١٨٥٤ قبل وفاة عباس باشا الأول هو ٧٠ ميلا ابتداء من القبارى الى دمنهور، ومن دمنهور الى كفر الزيات خطا مفردا..»

وكان عباس باشا الأول قد اصدر ادارة لكتخدا باشا، فى ٢٠ ذى القعدة سنة ١٢٦٧هـ، نصه ..

حيث انه تقرر بعون الله تعالى انشاء سكة حديدية بين مصر والاسكندرية، ومباشرة العمل فيها من ابتداء هذه السنة، فقد اقتضى فتح وانشاء ثلاثة مكاتب : أحدها بالاسكندرية والثانى بمصر، والثالث فى وسط الطريق لترتيب اللوازم الخاصة بهذا الخط، وتعيين مدير ذى همة وكفاءة لتسهيل مطالب المهندسين الذين حضروا من انجلترا والمراقبة على أعمالهم واجراءاتهم كما هو مدون فى العقد المعقود معهم، حيث ان رفعة عبدالله بك (الانجليزية) ذوفهم ودراية وجدير بهذه الخدمة المهمة فقد قررنا تعيينه وانتخابه مديرا عاما للمكاتب الثلاثة..»

وكان اول بناء لمحطتى السكك الحديدية بالقاهرة والقبارى عام ١٨٥٦، حيث اصدر عباس الاول ادارة لرئيس مجلس الأحكام فى ١٨ جمادى الاولى سنة ١٢٧٠ : «بناء على التقرير الذى قدمه الينا مهندس السكة الحديدية المسيو «ستيوتسون» وبسط فيه لزوم سرعة



موظفى محطة الاسكندرية فى القرن ١٩

بناء المحطة الجارى بناؤها فى الاسكندرية، والمباشرة بانشاء المحطة المقصود انشاؤها فى القاهرة ومبايعة وامتلاك الأراضى الكائنة بجوارهما من الآن لتوسيعهما فى المستقبل كما هو معين فى التصميم الموضوع لهذا العمل..»

الخواجة نيكولاكى

فى الخامس من ربيع الأول ١٢٧٤ هـ أصدر الخديو سعيد باشا امرا بتعيين «الخواجه نيكولاكى» ناظرا لمحطتى السكة الحديدية بالقبارى ومريوط، وتكليفه بتنظيم تشغيل الوابورات الأربعة : «وابور السعيدية، وابور النيل ، وابور امريقا، وأربعة عربيان ركوبه، اثنتين من النمرة الاولى، واثنين من النمرة الثانية، وعربتين اسبنسه..»

وكان انبهار السلطان عبدالعزيز عظيما، عندما شاهد القطار للمرة الأولى، فى ١٩ ابريل سنة ١٨٦٣ ، خلال زيارته لمصر، فعقب انتهاء زيارته للاسكندرية توجه الى محطة السكة الحديدية، حيث كان «القطار الخديوى» فى انتظاره، وكانت حاشيته تضم ابنه الأمير يوسف عزالدين، فؤاد باشا وزير الحربية ومحمد باشا وزير البحرية وعدد من الامراء والخاصة السلطانية.. وعندما أخذ يستفسر عن هذه «الاعجوبة»!.. تقدم اليه ناظر المحطة ومهندس القاطرة وشرحاله ماسأل عنه.. «حتى اذا اتت الساعة الحادية عشرة، صعد الى صالونه الخاص، وجلس الخديو اسماعيل وفؤاد باشا فى مقعد مجاور، وركب الامراء العثمانيون والعلويون فى عربات القطار الأخرى.. وقص عليه اسماعيل باشا كيف مد خط للسكة الحديدية فى عهد عباس باشا، بين الاسكندرية وعاصمة الديار، على يد شركة انجليزية بعد ان أنجزت مد خط للسكه الحديدية بين لندن وليفربول..».

القطار الملكى :

العربة الأولى : مخصصة لضباط الحراسة، فرشها وجدرانها من الصلب واربطه من الخشب، وهيكلها من الخشب المغطى بألواح من الصاج المنقوش العربة الثانية : وكانت مخصصة للاميرات، فرشها من الحديد وهيكلها من الخشب الوردى، والمقاعد مغطاة بالحرير القرمزى الفاخر، وقد استخدمت فيما بعد فى نقل السيارات..

العربة الثالثة : صالون الخديو ثم الملك ، صنعت بالولايات المتحدة الامريكية عام ١٨٥٨، الفرش من الصلب، هيكلها من خشب الأبنوس المغطى بألواح من الورق المقوى الفاخر المنقوش، والأثاث من جلد القر، وتتكون من ديوانين بفصلها الشرفة الملكية، ولكل ديوان ستة مصابيح فضية، الابواب والنوافذ تزدان بستائر من الحرير الوردى، والشيش من الخشب الموجنى الثمين

العربة الرابعة : صالون خشب الابنوس، والاثاث من الحرير القرمزى والاخضر

والعربة الخامسة : مخصصة للعاذلة ايضا، هيكلها من الخشب المغطى بالورق المقوى الفاخر، وتضم وتسريحه وصالون.

العربة السادسة : صالون الوزراء، صنعت بورش السكك الحديدية سنة ١٨٧٣ ، فرشها من الصلب وروابط من الخشب، الاثاث من جلد البقر، الهيكل من خشب الابنوس، وتزين الابواب والنوافذ ستائر من الحرير الوردى..

متحف

اول متحف للسكك الحديدية فى الشرق افتتح فى ١٥ يناير سنة ١٩٣٣ بمبنى المحطة الرئيسية بميدان رمسيس يعرض اكثر من سبعمائة نموذج موزعة على طابقين ، منها مايعرض وسائل النقل فى مصر القديمة كالنموذج المجسم الذى يوضح كيف كان الفراعنة ينقلون تمثالا ضخما يزن ستين طنا على زحافة بنظام هندسى رائع، ونماذج تعرض وسائل النقل والمواصلات فى العصر اليونانى ـ الرومانى..

وفى أقسام السكك الحديدية، تعرض مجموعة هائلة من النماذج التى تمثل تطور القاطرات الاولى فى العالم وفى مصر. نموذج لأول قاطرة بمصر عام ١٨٥٤ ، نموذج قاطرة اكسبريس ذات عجلة ادارة واحدة سنة ١٨٦٤ ، وهى من أشهر القاطرات التى وردت الى مصر، وكانت سرعتها ٨٠ك/م فى الساعة، نموذج للقاطرة البخارية التى صنعت للخديو توفيق عام ١٨٩٢ نموذج لأول قاطرة بالدلتا سنة ١٨ نماذج لعربات ركاب من الخشب ١٨٧٠، قاطرة بالفحم استخدمت فى قاطرات البضاعة ١٩٩٨ ، قاطرة صمم لها جهاز لتسخين المياه من أعلى عام ١٨٩٤ انفجر وفشلت التجربة والغيت فى العام التالى مباشرة واول عربة بولمان استخدمت مابين مدينتى الاقصر واسوان سنة ١٩٢٩ وعربة اكسبريس صممها ماركونى سنة ١٩٣٢ استخدمت على خط ليفربول ـ مانشستر.. نموذج لعربة أكل بولمان عام ١٩٣٢ اول قاطرة بالمادوت عام ١٩٣٨، ونوذج لآخر قطرة بالمازوت استخدمت فى مصر عام ١٩٧٩، اول ديزل صناعة انجليزية سنة ١٩٣٥ ، واول جرار ديزل كهربائى سنة ١٩٥٧، قاطرة بالحجم الطبيعى مشطورة توضح الأجزاء الداخلية للقاطرة وكيفية تشغيلها نماذج كثيرة لقاطرات وعربات وصالونات..

ثم قسم يضم نماذج مجسمة لمجموعة من المحطات الشهيرة قديمة وحديثة كالمبنى القديم لمحطة القاهرة ومحطة سراى القبة ومحطة الاسكندرية، محطة سيدى جابر ، محطة طنطا الأقصر.. اسوان ، بورسعيد والاسماعيلية، مع عرض صور نادرة رائعة لهذه المحطات، وللقاطرات البخارية.. ونماذج صور لبعض كبارى السكك الحديدية ، الثابتة والمتحركة وتطورها التاريخى.. منها كوبرى امبابة الشهير كوبرى كفر الزيات بنها، نجع حمادى، زفتى، دسوق، المنصورة..

ويضم ايضا، اول الة طبع تذاكر يومية تعمل باليد، سنة ١٨٩٠، اول الة طبع اكليشيهات سنة ١٨٧٠ . ا

المحطة الرئيسية :

بدأ تشييد هذه المحطة الشهيرة عام ١٨٥٥، عقب مد خط الاسكندرية ـ القاهرة وبأمر من عباس باشا الاول تحت اشراف المهندس «ستيوتسون» وافتتحت عام ١٨٥٦ ، وقد أصيبت بحريق مدمر عام ١٨٨٢ فأعيد بنائها فيما بين عامى ١٨٩١ ـ ١٨٩٣ ، شيدت على الطراز العربى ، صممها واشرف على تنفيذها المهندس البريطانى «ادوين بانس» الذى اختاره دوبرت ستيفنسون،

المصادر : ١- أمين سامى، تقويم النيل. ٢- دليل متحف السكك الحديدية بالقاهرة، ١٩٣٣

* أخبار الأدب : العدد ١٨ - ١٤ نوفمبر ١٩٩٣

حكاية ترام القاهرة*

كانت مصر من أوائل الدول التى استفادت من الثورة الصناعية . والتطورات الهائلة فى مجالات النقل والمواصلات ، وقبل تسيير خطوط الترام فى القاهرة ، كانت وسائل الانتقال هى الحمير وعربات الحنطور وسوارس . .

وصاحب فكرة الترام الكهربائي هو «چون ف . ترام - J . F . Tram» الذى مد أول خط حديدى داخل مدينة نيويورك عام ١٨٥٨ ، أعقبه بثلاث سنوات مد أول خط حديدى بمدينة لندن ، وفى البداية استخدم فى سير العربات الدواب ، خاصة الخيول ثم تطور الأمر باستخدام القاطرة البخارية بدلاً من الخيول ، وقد استخدمت الخيل فى نطاق محدود ، على خط ترام الرمل بالاسكندرية فى الفترة من ٨ يناير إلى ٢٢ أغسطس عام ١٨٦٣ .

فى عام ١٨٩١ ، تقدمت شركة الترامواى البلجيكية إلى نظارة الأشغال بطلب الحصول على امتياز تسيير خطوط ترامواى بالقاهرة ، وكان الطلب مدعمًا برسومات الخطوط ، التى وضعها مهندس الشركة «چون فيل» على أن تمتد إلى ضواحى العاصمة .

فى نوفمبر ١٨٩٤ ، صدق مجلس النظار على منح الامتياز المطلوب للشركة ، على أن ينتهى بعد ٥٠ عامًا ، ومنحها الحق فى مد ثمانية خطوط بتفرع معظمها من أمام سراى العتبة الخضراء ، كان أهمها الخط الممتد إلى الخليج المصرى فمصر القديمة إلى جزيرة الروضة .

فى أغسطس عام ١٨٩٦ ، احتفل بتسيير أول مركبة كهربائية فى شوارع القاهرة حيث استقل ناظر الأشغال العمومية وكبار موظفى النظارة وبعض الأمراء والأعيان ، عربات الترام من بولاق إى ميدان العتبة الخضراء ، وكان فى انتظارهم محافظ العاصمة ومدير الشركة البلجيكية وقناصل الدول وجمع من المدعوين ، ثم سارت بهم المركبات بين حشد من الجماهير ، تصلصل بأجراسها المميزة الشهيرة إلى ميدان محمد على (القلعة) وعن هذا الاحتفال ، قال مندوب جريدة الأهرام :-

«احتفل عصر اليوم بافتتاح خط الترامواى من ميدان العتبة الخضراء إلى شارع محمد على من جهة وشارع بولاق من الجهة الأخرى ، وكان فى العربة الأولى سعادة فخرى باشا ناظر الأشغال وبعض كبار الموظفين ، وفى سائر العربات جميع الكبراء والأعيان المدعوين ، وكانت المحطة مزدانة بزينة شائقة . فسارت العربات تجريها الكهرباء ذهابًا وإيابًا ، ونجحت تجربتها نجاحًا تامًا ، وسيوالى افتتاح الخطوط فى الأيام التالية تباعًا ، جعل الله هذا المشروع جزيل الفوائد ، خلوًا من المضرات » !

بعد أن افتتح فخرى باشا هذا المشروع الحضارى ، سمح للركاب باستخدام الترامواى الكهربائى من الساعة السابعة من مساء نفس اليوم ، على خطين ، الأول من بولاق إلى كوبرى قصر النيل والثانى من العتبة إى باب الخلق .

فى أول ابريل عام ١٩٠٠ ، أصدرت الشركة لائحتها التنظيمية بموافقة الحكومة ، ونشرت بجريدة «الوقائع المصرية» - عدد ٢١ ابريل لسنة ١٩٠٠ - وكان أهم بنودها : «أن كل محدث غوغاء أو سكران أو مصاب بعاهة تشمئز منها النفس : يمنع من ركوب الترامواى ، أو تعليق شئ عليها ، أو السير أمام العربات السائرة أو مرافقتها أو السير خلفها أو التعلق بها »!

المصادر:
١- أيمن سامى ، نهر النيل .
٢- جريدة الأهرام ، القاهرة ، أغسطس ١٨٩٦
٣- جريدة الوقائع المصرية ، القاهرة ، أبريل ١٩٠٠
٤- عرفه عبده على ، رحلة فى زمان القاهرة ، مكتبة مدبولى ، ١٩٩٠ .

وبتعاقب السنين ، امتدت شبكة من خطوط الترام تربط أهم أحياء وميادين القاهرة : باب الحديد والعتبة وشبرا وروض الفرج وبولاق والسبتية وعابدين والسيدة زينب والسكاكيني والعباسية ومصر القديمة والإمام الشافعي ، وحتى عام ١٩٢٢ ، كانت الشركة البلجيكية قد أتمت كثيراً من خطوطها ، مما لاشك فيه ، أن هذه الشركة قد أفادت القاهرة كثيراً ، وكان أثرها في تزايد العمران بالغاً ، فقد ربطت المدينة وأطرافها والمناطق العمرانية الجديدة بشبكات منتظمة من خطوط الترام ، وبأجور بستة مليمات ، وأربعة مليمات للدرجة الثانية ، وكان النظام والنظافة والتفتيش اليومي والحرص على راحة الركاب : إبرز الخدمات التى تقدمها الشركة .

فى السنوات الأولى ، كان يوضع جهاز راديو لتسلية الركاب ، وفى بعض الأحيان بالورود والرياحين ولافتات لادعاية لإفتتاح محل جديد أو مدرسة أو مطعم أو ملهى تطوف بالشوارع التى تمتد بها خطوط الترام !

وكان حديث الترام مادة ثابتة فى المجلات التى كانت تصدر بالقاهرة فى أوائل هذا القرن ، والتى تولت متابعة أخبار «الدهس اليومى» لبعض المواطنين ، من عربات الترام التى تمضى فى طريقها لاتلوى على شئ وكأنها «تسابق الريح» !! .. ولعل البعض ما زال يذكر حكاية «شد السنجة» التى كانت ظاهرة يومية . دأب بعض الصبية على القيام بها لمشاغبة سائقى الترام وإجبارهم على التوقف !

وتجدر الإشارة إلى أن كوبرى الجيزة القديم «عباس» ، وكذلك كوبرى الملك الصالح عندما افتتحا فى ٦ فبراير سنة ١٩٠٨ ، تقرر مد خط مزدوج فى مارس من نفس السنة ، يربط الجيزة بمصر القديمة ، وخط آخر يربط الجيزة بالعتبة الخضراء ، كذلك امتدت خطوط الترام فوق كوبرى بولاق (أبو العلا) وكوبرى الزمالك عقب افتتاحهما فى يوليو سنة ١٩١٢ ، وعن طريق هذه الكبارى ، تكونت شبة خطوط أخرى تربط قلب القاهرة بأحياء الزمالك والجزيرة وامبابة والجيزة والأهرام ، على الضفة الغربية للنيل .

ومع بداية الثمانينات من هذا القرن ، انتهى بالفعل «العصر الذهبى» للترام ، فمع تزايد حركة الحياة وضغط المرور بشوارع القاهرة ، كان كل تعديل لتحقيق سيولة المرور ، على حساب إلغاء عدد من خطوط الترام ، حتى اختفى تماماً من مناطق بأكملها ، مثل شارع الأهرام والجيزة والروضة ومصر القديمة وشارع قصر العينى ووسط القاهرة والجزيرة والزمالك وبولاق ، ويكاد يتوارى على استحياء فيما بين أول شارع الجيش وميدان العباسية !



منهما جسر مبنى بالحجارة ، وعلى يمين الطريق ، توجد سلسلة طويلة من الانقاض وتلال القاذورات ، ومن اعلى هذه الانقاض ـ على مسافة نحو ربع ميل من الازبكية ـ نستطيع ان نحصل على مشهد عام لمدينة القاهرة .

ومن أهم المعالم الاسلامية ، الباقية حتى يومنا هذا بحى بولاق جامع سنان باشا ، الذى كان

كوبرى ابو العلا فوق النهر الى الجزيرة ، وفى فبراير سنة ١٩١٢ ، افتتح خط فرعى قصير ، يصل نادى الجزيرة الرياضى ، بالخط القادم من بولاق .

عقب وفاة الملك فؤاد فى ٢٨ ابريل سنة ١٩٣٦ ، استبدل إسم شارع بولاق بشارع « فؤاد الاول » وبعد ثورة يوليو ١٩٥٢ اطلق عليه شارع « ٢٦ يوليو »

شارع بولاق

عرفة عبده على

عبر « جسر الحنين » نلتقى فى واحد من اهم واشهر شوارع القاهرة . شارع بولاق (شارع فؤاد الاول ثم ٢٦ يوليو) ..

الاصل فى كلمة « بولاق » كما اشار « الزبيدى » ان اسمها : « بلاق » بكسر اولها ، وهى كلمة مصرية قديمة تعنى : المرساة او الموردة ثم صرفت إلى بولاق .

وترجع بداية ظهور ضاحية بولاق ، إلى عصر الملك الناصر محمد بن قلاوون ، الذى كان شغوفا بالبناء والتعمير ، فقد تقلص ماء النيل عن سور القاهرة الفاطمى ، فسمح لقطعة من الارض بالظهور ، وسميت ارض الجزيرة الجديدة « بولاق » .. ونشأت ميناء جديدة عرفت ايضا باسم بولاق ، فى عام ١٣١٢ م ، ولبى الأمراء والجند والكتاب وكبار التجار والاعيان ، رغبة السلطان الناصر ، وكثرت بأرض الجزيرة الجديدة « بولاق » القصور والدور والأسواق والحمامات والجوامع والرباع .. و« صارت بولاق يزرع فيها القصب والقلقاس على ساقية تنقل الماء من النيل .. وتفاخر الاهالى فى إنشاء القصور والمناظر وغرسوا حولها البساتين العظيمة » خطط المقريزى جـ١ ص ٥٢٤ ، وامتد عمرانها حتى إتصلت بشاطىء النيل ، وبمرور الزمان ، إتصلت بأحياء القاهرة المتاخمة لها بواسطة طريقين ، احدهما يربطها بمنطقة المقس (باب الحديد وما يجاوره حاليا) وكانت تظلله الاشجار ، والطريق الآخر يربطها بالازبكية ، والذى اشتهر فيما بعد بشارع بولاق ، وكان المسيو « لوبير » احد مهندسى الطرق فى حملة بونابرت ، هو الذى اشرف على إصلاح وتمهيد هذا الطريق وغرس الاشجار على جانبيه ، وفى وصف هذا الطريق ، يقول المستشرق إدوارد لين :

« .. هناك طريقان رئيسيان يتماثلان فى الطول تقريبا ، يؤديان من بولاق إلى القاهرة ، أما الطريق الشمالى ، فيعتبر الطريق الرئيسى للتجارة ، إذ لم تكن هناك سكك حديدية ، فى ذلك الوقت ، تؤدى إلى باب الحديد ، والطريق الجنوبى ، بعد أن يعبر قناتين ، يدخل الجانب الغربى من الأزبكية ، وعند سلوك هذا الطريق ، نمر بمسجد ابى العلاء ، على الجانب الأيمن ، وقد عمل الفرنسيون إبان احتلالهم لمصر ، على تعلية هذا الطريق ، بهدف ان يمتد ـ خلال المدينة ـ حتى ينتهى إلى القلعة ، وهو طريق مستقيم ومتسع ، إلا انه غير مستو ، وقد اتموا تعلية هذا الطريق بضعة اقدام ، ليكون بمنأى عن تأثير الفيضان ، وتجد اشجارا متفرقة من النخيل والجميز والسنط ، ويعبر الطريق قناتين ، فوق كل منهما جسر مبنى بالحجارة ، وعلى يمين الطريق ، توجد سلسلة طويلة من الانقاض وتلال القاذورات ، ومن اعلى هذه الانقاض ـ على مسافة نحو ربع ميل من الازبكية ـ نستطيع ان نحصل على مشهد عام لمدينة القاهرة » .

ومن أهم المعالم الاسلامية ، الباقية حتى يومنا هذا بحى بولاق جامع سنان باشا ، الذى كان واليا على حلب ، قبل توليته القاهرة ، ومسجد السلطان أبى العلا ، المنسوب الى الشيخ الصالح حسين ابى على المكنى بابى العلاء ، الولى صاحب الكرامات والمكاشفات ، على ما يصفه به الصوفيون ، وقد شيد هذا المسجد (التاجر الكبير الخواجا نور الدين على بن محمد بن القنيش البرلسى) سنة ٨٩٠ هـ./ ١٤٨٥ م .

وكان فى مواجهة مسجد ابو العلا « جامع الخطيرى » الذى تهدم فى الخمسينيات من هذا القرن ، شيده الأمير ، عز الدين ايدمر بن عبدالله الخطيرى ، أحد كبار الأمراء فى عهد الناصر محمد بن قلاوون ، وقد ذكر المقريزى هذا الجامع فى خططه .

كذلك شيد الوالى العثمانى : حافظ أحمد باشا ، وكالتين وعددا من القيساريات والمنازل فى بولاق ، فى نهاية القرن السادس عشر ، كما انشأ ، على بك الكبير ، قيساريه كبيرة وخانا ومسجدا ببولاق ، عام ١٧٧١ .

وقد وصف لنا ، الرحالة الفرنسى « بيير بيلون » انطباعاته عن بولاق فى عام ١٥٤٧ ، فقال : « ترسو القوارب والسفن بأنواعها المختلفة عند ـ قرية بولاق ـ لتفريغ ما تجلبه إلى القاهرة ..

وقد إضطلعت بولاق فى ـ عصرها الذهبى ـ بدور هام فيما كانت تشهده القاهرة ، من إحتفالات رسمية كبيرة فى أهم المناسبات ، ففى يوم الاحتفال بوفاء النيل ، كان الوالى العثمانى ينزل من القلعة مقر الحكم ـ الى ثغر بولاق .

كذلك كانت بولاق ، تشهد الاحتفالات الرسمية لاستقبال الولاه العثمانيين ، عند قدومهم إلى القاهرة لتولى مقاليد الحكم .

وكانت بولاق ، اهم مراكز المقاومة والثورة ضد الاحتلال الفرنسى ، فى زمن الحملة الفرنسية على مصر ، ولذا عانت كثيرا من هجماتهم ، وتدميرهم

اما فى عصر محمد على ، فقد شمل حى بولاق ، تطوير كبير ، فاصبح منطقة صناعية هامة .

وتجدر الاشارة ، إلى أن حى بولاق قد حظى بنقله حضارية ـ منذ اليوم الاول ـ لبدء تسيير خطوط ترام القاهرة ، فى ١ اغسطس سنة ١٨٩٦ ، حيث امتد خط من العتبة الخضراء ، مارا بشارع بولاق ، ينتهى بالقرب من موقع كوبرى ابو العلا قبل إنشائه فى عام ١٩١٢ . وفى ديسمبر سنة ١٨٩٦ ، افتتح خط من العتبة الى بولاق ثم قصر العينى ، وفى يوليو سنة ١٩١٢ ، إمتد خط جديد من بولاق ، عبر كوبرى ابو العلا فور انشائه الى الجزيرة ، وفى فبراير سنة ١٩١٣ ، افتتح خط فرعى قصير ، يصل نادى الجزيرة الرياضى ، بالخط القادم من بولاق .

عقب وفاة الملك فؤاد فى ٢٨ ابريل سنة ١٩٣٦ ، استبدل إسم شارع بولاق بشارع « فؤاد الاول » وبعد ثورة يوليو ١٩٥٢ اطلق عليه شارع « ٢٦ يوليو »

المراجع والمصادر :

١- على باشا مبارك : الخطط التوفيقية .

٢- عبد الرحمن زكى : خطط القاهرة فى أيام الجبرتى (كتاب الجبرتى - دراسات وبحوث) القاهرة ١٩٧٦ .

٣- ادوارد لين : عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم ، ترجمة : سهير دسوم ، مكتبة مدبولى ، ١٩٩١

شارع شبرا

شارع

عرفة عبده على

● فى ذاكرة كل منا مكان يألفه .. يبعث إليه بأجمل الرؤى ويثير فيه أروع الاحلام .. وفى البدء كانت شبرا .. بها ولدت .. وفيها ملاعب الصبا ومراتع الهوى وخفقات المشاعر .. أعود إلى الزمان الجميل ، إلى صفو الأيام وحلو الأمانى .. واتأمل مشاهد تنبض بدفء الحياة ، متباينة الألوان والظلال ، تداعب خيالى .. فتخلف فى القلب حنينا لذكريات سيظل شذى عطرها خالدا .. !

ولنقلب معا صفحات من تاريخ شبرا ، فيحدثنا المؤرخ العلامة « المقريزى » فى خططه عن « جزيرة الفيل » التى كانت تقع بوسط النيل ، تجاه منية السيرج خارج باب البحر (ميدان رمسيس) من القاهرة ، وكان موضعها غامرا بالماء فى عصر الدولة الفاطمية ، وفى أواخر أيام تلك الدولة ، انكسر مركب كبير كان يعرف بـ « الفيل » وترك فى مكانه ، فربا عليه الرمل وانحسر عنه الماء ، فصارت جزيرة يحيط بها الماء من جميع الجهات ، ثم علا أراضيها الطمى وما برحت تتسع مساحتها حتى تكونت نحو عام ٥٧٠ هـ ، فزرعت فى عهد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وفى عام ٦٨٠ هـ ، طرح البحر بجوارها فاتصلت أراضيها بمنية السيرج وباب البحر ، وفى زمن الملك المنصور قلاوون ، شيد بها الأمراء والأعيان ، القصور والدور والبساتين حتى صارت بلدا كبيرا بها جامع وسوق كبير وعدة بساتين جليلة ، ثم أخذت مبانيها فى الخراب تدريجيا ، ولم يبق بها إلا الحدائق والأراضى الزراعية .

ويشير العلامة « محمد رمزى » إلى أن جزيرة الفيل ، هى التى تعرف اليوم باسم : شبرا ـ احد اقسام مدينة القاهرة ، والجزء الجنوبى منها يعرف بجزيرة بدران ، وكانت جزيرة الفيل تشغل المنطقة التى يتوسطها اليوم شارع شبرا من الجنوب إلى الشمال ، ويحدها من الغرب النيل وشارع ابو الفرج ، وجنوبا شارع جزيرة بدران وموقف أحمد حلمى ، والشرابية ومنية السيرج شرقا .

وبالاطلاع على خريطة القاهرة ، التى وضعها علماء الحملة الفرنسية سنة ١٨٠٠ م ، يتبين لنا ان ارض قسم شبرا ، كانت ارضا زراعية بها كثير من البساتين وبعض المساكن المتناثرة بجزيرة بدران ، ولم تنشط فيها حركة العمران إلا فى عهد الخديو إسماعيل ، حيث شيد بها قصر النزهة (المدرسة التوفيقية) ثم تبعه الامراء وكبار التجار فأنشأوا بها القصور والبساتين على جانبى شارع شبرا ، ثم امتدت المبانى إلى شاطىء النيل وجسر السكة الحديدية وترعة الاسماعيلية .

لقد كانت شبرا فيما مضى هى « فردوس القاهرة » .. هكذا وصف الأديب الرحالة البريطانى « دوجلاس سلادين » شبرا ، فى منتصف القرن التاسع عشر ، واشاد بالقصور المشيدة على الطراز الإيطالى ، محاطة بحدائق تزخر بأندر النباتات وأشجار النخيل ، والبرتقال والموز والتين .. واشار سلادين إلى ان شبرا ، كانت المقر المفضل والمحبب إلى محمد على ، ووصف النافورة التى شيدها حليم باشا بانها « إحدى عجائب مصر » ! .. كما فتن بمشهد النيل فى الليالى القمرية ، وأرق النسيم يأتيه من الشمال .. والزوارق التى تتهادى على صفحة النهر ، والدهبيات الراسيات على شاطىء الجزيرة .

وتحت عنوان « ذكرى من شبرا » يصف الأديب الرحالة الفرنسى الشهير « جيرار دى نرفال » انطباعاته التى سجلها عن رحلته إلى الشرق ، فيقول : « منذ سنين زرت فى

←

شبرا ..

القاهرة ، مقر والى مصر ، وهو مقر جميل فى شبرا جعل منه محمد على : جنة الشرق ! .. وكان مرشدى فنانا أرمينيا يعرف القاهرة كما لو كان هو بانيها ، ووصلنا إلى شبرا عن طريق الممر الكبير ، الذى لا مثيل له فى العالم ! .. وفى تلك المتنزهات الظليلة ، يقضى أثرياء القاهرة أوقات فراغهم ، فنرى مجموعات من الضباط ، ومسلمين يتبعهم حاملو غلايينهم ، ونساء وجاريات ذوات خمر طويلة ، وحسناوات انيقات من الحى الافرنجى .. ولنتصور مكانا تحف به اشجار الجميز والابنوس الشاهقة ، مكونة قبابا لا تنفذ منها الشمس إليها .. والنيل إلى يسارنا يروى الحدائق الشاسعة ويضىء هذا المنتزه بالانعكاسات الحمراء لامواجه .. وينقلنا الكشك القائم بمدخل القصر ، بأروقته الباهرة وألوانها الذهبية ، إلى عالم الف ليلة وليلة ، واقفاص كبيرة تغص بالطيور النادرة رائعة الالوان ، وحمامات ينساب إليها الماء دائما ، وقاعات استقبال تركية تفوق الوصف من فخامتها وبهائها .. ونافورات يونانية متدفقة ، واحواض رقراقة وقنوات تنساب على صفحاتها فى رشاقة ، قوارب ذهبية ، واغصان اشجار البرتقال والليمون وعبير زهورها الفواح ، والستائر الذهبية والحريرية التى ترفرف بين اكاليل الخضرة والزهور .. ولنتخيل ذات مساء جميل ، حريم الوالى المنعمات ، يعبرن هذه الممرات تحت أشجار الليمون والموز ، فى طريقهن إلى الحمام المرمرى الابيض الساحر .. وجاريات يرتدين برانسهن الحريرية يلقين بأنفسهن ، كأنهن أسراب من الطيور البيضاء تغوص بين الأمواج ! .. وعلى صفحة الماء - الذى يتضوع عطرا - يتهادى القارب الذهبى للباشا ، يقوده عشرون من الجوارى الحسان بمجاديف رائعة النقوش والالوان ، كأنها اجنحة الملائكة » !

ويصف الفنان الرحالة الفرنسى « مونتبار » حدائق شبرا بأنها : شانزليزيه Champs-Élysées الشرق ، ترتادها الطبقة الراقية من القاهريين ، فترى العربات الفخمة تجرها الجياد المجرية المطهمة ، تحمل افراد الاسرة الخديوية ، والامراء وكبار الاعيان ، يتقدمها قمشجية (سواس) بستراتهم المزركشة يفسحون لهم الطريق ، وإتماما لمظاهر الابهة ، ومجموعات من الاوربيين القادمين بالمراكب او بالعربات ، او امتطوا ظهور الخيل والحمير والبغال ، ويجدر بالذكر أن محمد على باشا قد أمر بتمهيد طريق يمتد من باب الحديد إلى قصر النزهة ، والذى اشتهر فيما بعد بشارع شبرا ، زرعت على جانبيه أشجار الجميز ، وفى عام ١٨٨١ ، تم تمهيده بالحجر الجيرى ، وفى عام ١٨٨٢ تمت إنارته بمصابيح الغاز ، وفى عام ١٩٠٠ ، اعيد تبليطه بحجر البازلت ، وكانت الشركة البلجيكية لترام القاهرة ، قد حصلت على امتياز بمد خط من باب الحديد يمر بكوبرى شبرا ، إلى نهاية شارع شبرا ، يتفرع منه خط إلى ساحل روض الفرج ، واحتفل بافتتاحه فى ١٩ مايو سنة ١٩٠٣ .. ومن اشهر قصور الاسرة الخديوية الاخرى : قصر زينب هانم ابنة محمد على باشا ، وقصر حليم باشا نجله أيضا ، وقصر إنجو هانم افندى قرينة سعيد باشا والى مصر ، وقصر شيكولانى الحافل بالتماثيل المرمرية النادرة والمظال الرخامية التى تناسقت على شكل باقة ازهار .. !

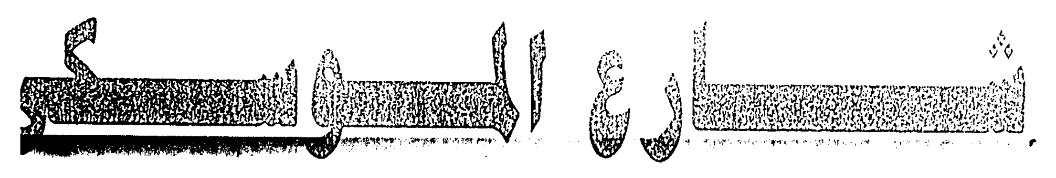
المراجع والمصادر :

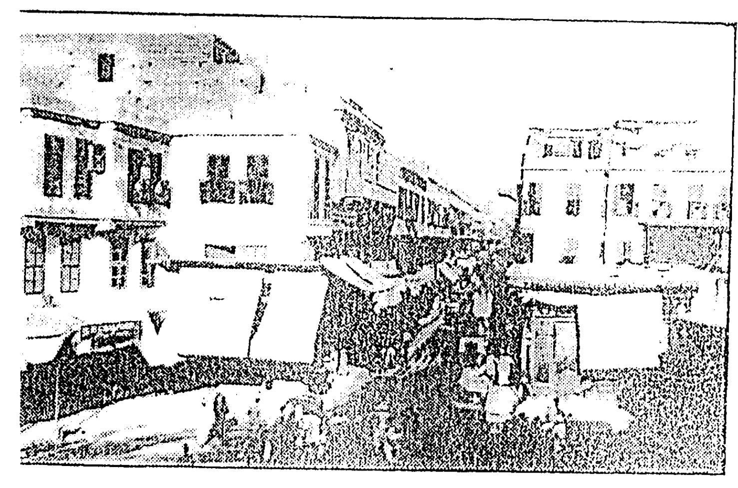
١- الخطط المقريزية ، الجزء الثانى .

٢- تعليقات « محمد رمزى » بهوامش كتاب ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٦٣

3- Doglas Sladin : Cairo of Orient, London, 1912

4- Nerval, G. : Voyage en Orient, Paris, 1950





من اشهر شوارع مصر ، ومشهد شارع الموسكى : عرض مجسّد لقاهرة القرون الوسطى ، عالم مزدحم ، مختلف الالوان ، لا ينقطع عن الحركة وصخب صياح الباعة ، والحياة والاثارة فى ادق التفاصيل .. كأننا فى سباق مجنون !.. او فى حفلة تنكرية جهنمية ..!

مع بدء خطة تحديث القاهرة ، فى عهد محمد على - مؤسس مصر الحديثة - بازالة الأكام وردم البرك ، وتخطيط شوارع كبيرة وميادين ومنتزهات ، وكان الفرنسيون عام ١٨٠٠ إبان الحملة ، قد هدموا معظم المبانى ما بين قنطرة الموسكى والعتبة الخضراء ، فاصبحت المنطقة مهيأة لتمهيد شارع يخترق القاهرة من الشرق الى الغرب ، يسهم فى إثراء النشاط التجارى الذى استجد فى قلب المدينة .

وكان الامر التالى قد صدر فى ٩ ربيع الثانى ١٢٦٢ هـ - ٢٤ مارس ١٨٤٦ « حيث سبق التنبيه بتوسيع الازقة وفتح شارع الموسكى وقطع كوم الشيخ سلامة ، وشارع بولاق وشارع القلعة ، وغير ذلك من الشوارع اللازم فتحها وتوسيعها لراحة العباد وتزيين البلاد ، فيلزم مباشرة شراء الامكنة التى تدخل فيها من اربابها وإضافة اثمانها الى جانب الميرى » .

ويمتد شارع الموسكى من ميدان المشهد الحسينى الى ميدان العتبة الخضراء ، يقطعه شارع بورسعيد (الخليج) وامتداده من تقاطع بورسعيد والموسكى الى العتبة ، ثم فى عهد الخديو اسماعيل باسم السكة الجديدة (جوهر القائد) .. وكان اسماعيل قد اصدر « امر عالى الى ضبطية مصر » فى ٢٨ ربيع الأول ١٢٨٠ هـ ، نصه : « صدر امرنا اليكم بما اقتضته إرادتنا عن مشترى الأماكن والدكاكين ، التى تلزم لتوسيع الطريق الذى بقنطرة الموسكى عن اول راس القنطرة وإبلاغ اتساعه الى الرسم الموجود بطرفكم .. وعلم لدينا انه صار تثمين المحلات اللازم مشتراها اربعماية واربعين الف قرش صاغ ...!

وينسب الشارع الى الأمير « عز الدين موسك » احد امراء الدولة فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، وهو الذى انشأ القنطرة التى اشتهرت باسمه ، وكان خيرًا

يحفظ القرآن الكريم ، ويواظب على تلاوته ، ويؤثر اهل العلم والصلاح .

وامتع وصف لشارع الموسكى . ذلك الذى ابدعه . اوجين بواتو ـ Eugene Poitou . مستشار البلاط الامبراطورى الفرنسى للشئون الخارجية ، فى كتابه ، ذات شتاء فى مصر ـ Un Hiver en Egypte " الصادر فى باريس عام ١٨٥٧ ، فيقول

" . . فى اقصى الشمال من ميدان الأزبكية ، وعندما ننعطف يسارا ، ثم الى اليمين ، سنجد انفسنا فى مواجهة الشارع الكبير بالحى الأفرنجى ، المسمى : شارع الموسكى ، وبينما يبدو الطريق اكثر اتساعا . فالازدحام شديد .. جموع غفيرة . والمشهد الذى يتراءى امام عينيك ، من اكثر المشاهد عجبا وطرافة . الباعة الجائلون ينتشرون فى كل ركن وامام المنازل ، وكلهم يصيحون معا بأصوات صاخبة !

واناس من جميع الألوان ، يرتدون ازياء عربية ، نساء فلاحات طوال ممشوقات القوام ، ملفوفات كالاشباح فى عباءات طويلة زرقاء مفتوحة على الصدر ، ونساء تركيات او اقباط ، يجثمن على حميرهن التى يقودها الخادم من لجامها ، ويتحجبن بإحكام حتى عيونهن .. فيبدون كأنهن الوطاويط الضخمة !

واتراك فخام بـ ، البانتوفل ، يجلسون بعظمة على حميرهم المسرجة بأناقة ، أثرياء المظهر ، يدخنون الشبك فى وقار كأنهم : " اعضاء مجلس الشيوخ الرومانى "!

والموسكى ، شارع كبير ، جديد المبانى ، عريض ومستقيم ، اصطفت الحوانيت الاوربية على جانبيه ، كما فى الاسكندرية ومالطة ، مزودة بكل المواد الغذائية ، وبكل المنتجات الاوربية ، وازياء باريس .. بقالة مارسيليا .. نبيذ بوردو .. وسكاكين شيفيلد !..

الشارع يغوص ايضا بنوعيات من الأوربيين ، وجانب منه مغطى بحُصر كبيرة او معرش بسعف النخيل .. ليقى المارة والتجار وهج الشمس ، ويحفظ قدرا من الهواء الملطف . والشارع غير مبلط ، مثل كثير من شوارع القاهرة ، لكنه يرش دائما بالماء ، ليحمى الجميع من الاتربة والغبار ..

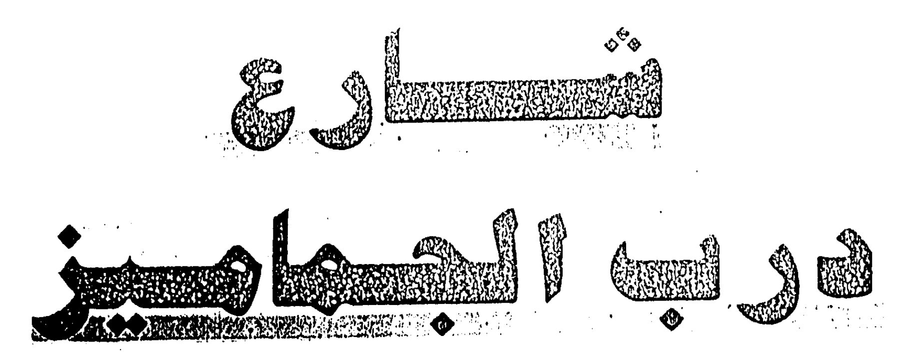
وانطباع متباين بين الدهشة والقلق ، لهذا العالم الذى لا ينقطع عن الجرى والحركة والصراخ ، فليست لناعيونه لكى نرى بها ، او أذانه لكى نسمع بها ، لقد اصمتنى نداءات الباعة وصياح المكاريه ، واصابنى الذهول من هذه الحركة والمشاهد العجيبة ، التى لا مثيل لها فى مدننا الغربية .. ولكن ، سرعان ما يتعود المرء على ذلك ، ويتحول هذا الانطباع الى نوع من النشوة ، لا نستطيع مقاومته !

المراجع والمصادر :

١- أمين سامى : تقويم النيل

٢- عرفه عبده على : القاهرة فى عصر اسماعيل .

3- Poitou, E. : Un Hiver en Egypte, Tours Ad Mame et C'e Imprimeurs-Libraires, 1857



عرف هذا الشارع فى زمن على باشا مبارك (النصف الثانى من القرن التاسع عشر) بشارع بشتاك، وقديما كان يعرف بخط قنو الكرمانى. يبلغ طوله نحو الكيلو مترين، وكان عرضه لا يزيد عن ستة أمتار، ويصل ما بين ميدان السيدة زينب وميدان باب الخلق، وسيرت به -باعتباره طريقاً رئيسيا- عربات سوارس ثم خطوط لترام القاهرة، بدأت بخط ترام يصل ميدان الظاهر بميدان السيدة زينب فى يونيو عام ١٩٠٠.

وحتى أوائل هذا القرن، كانت هناك بقايا من أشجار الجميز متناثرة بطول الشارع، تحت إحداها كان المكان المفضل لجلوس «عم حمزة» الذى كان جنديا بجيش عرابى ثم عمل بستانيا، وكان شغوفا بالتحدث إلى الطلبة عن المعارك الحربية، مثيراً فيهم الحمية والقيم الوطنية، وهو الذى تغنى شباب ثورة ١٩١٩ باسمه فى النشيد الشهير «يا عم حمزه.. إحنا التلامذه»! .. كذلك اشتهر الشارع باسم «دردنيل الطلبة» لكثرة الكتاتيب والمدارس المشيدة على جانبيه، منها: الخديوية، التربيه، المحمدية، الأهلية، الاسماعيلية ومحمد على..

وفى هذا الشارع، وبالتحديد فى سراى الأمير «مصطفى فاضل باشا» شقيق الخديو اسماعيل، اكتملت لعلى باشا مبارك نظرته للإصلاح والنهوض بمصر الحديثة، وقد اجتمعت له نظارات المعارف والأشغال والأوقاف فقام بانشاء «الكتبخانه-دار الكتب الخديوية» فى الطابق الأول من السراى، وقد صدرت بها الإرادة السنية إلى على باشا مبارك فى ٢٣ مارس ١٨٧٠ بجمع نفائس المخطوطات العربية والاسلامية، مما حبسه السلاطين والأمراء والعلماء على المساجد والأضرحة ومعاهد العلم، لتكون نواة لمكتبة عامة، وقد أهداها اسماعيل باشا ٢٤٥٨ من نوادر المخطوطات عقب شرائه لمكتبة مصطفى باشا، كما ضم إليها مقتنيات المكتبة التى اسسها محمد على باشا بجوار بيت المال خلف المشهد الحسينى.

وفى السراى ذاتها، افتتحت «دار العلوم الخديوية» فى ٦ ديسمبر ١٨٧٢، بعد انتخاب خمسين من الطلبة النابهين ليتخصصوا فى تدريس اللغة العربية وادابها واللغة التركية، ألحقت بها قاعة للمحاضرات العامة باللغتين العربية والفرنسية مع

←

الترجمة الفورية، كما كانت السراى ايضاً مقراً لديوان المدارس «ثم وزارة المعارف العمومية»وصحيفة «روضة المدارس» وديوان الاوقاف.. وعلى جزء من موقعها اقيم مقر الجمعية الخيرية الاسلامية ومدرستها ومدرسة الخديوية الثانوية.

ويحظى الشارع بعدد من كنوز الآثار الاسلامية، اشهرها «جامع بشتاك-اثر رقم ٢٠٥» الذى شيده الامير بشتاك الناصرى وافتتح فى رجب سنة ٧٣٧هـ /١٣٣٧م وكان يشرف على «بركة الفيل» إحدى متنزهات القاهرة التى فتنت الشعراء والرحالة، ووصف المقريزى هذا الجامع بانه «من ابهج الجوامع واحسنها رخاماً وانزهها».. وفى عام ١٨٦١ وعقب الإنتهاء من تشييد سراى درب الجماميز المشار اليها، امرت الاميرة «الفت هانم افندى» والدة مصطفى فاضل باشا بتجديد هذا الجامع، والذى دفن به مصطفى فاضل عقب وفاته بمدينة الأستانة عام ١٨٦٢، كما انشات الاميرة امام الجامع سبيلاً عرف بسبيل والدة مصطفى فاضل باشا، واشتهر الجامع باسم فاضل باشا فى ذلك الزمان.. وفى رحابه كانت القلوب والاسماع تحلق مع الحان السماء بصوت العبقرى الشيخ محمد رفعت-وكان نجيب الريحانى من اشهر مستمعيه!-ومنذ ذلك العهد اشتهر الجامع باسم «جامع الشيخ رفعت»!

المصادر :

١- على باشا مبارك : الخطط التوفيقية .

٢- إسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته ، دار الكتب المصرية ، ١٩٤٥

شارع محمد علي :

ويعد من أشهر شوارع القاهرة ، ويبدأ من ميدان العتبة الخضراء وينتهي عند جامع السلطان حسن .. ويشير علي باشا مبارك الي أن إنشاء هذا الشارع ، البالغ طول نحو الميلين ، قد تطلب هدم نحو ٤٠٠ دار كبيرة و٣٠٠ دار صغيرة ، فضلاً عن المطاحن والمخابز والحمامات والحوانيت ، بل وهدم عدد غير قليل من المساجد .

ويقول : " لما شرعت الحكومة في فتح شارع محمد علي وعمل رسمه ، جاء مروره من وسطها تقريباً ، فصدرت الأوامر للمحافظة بمشتري الأملاك الداخلة في ذلك وهدمت الترب ونقل بعض العظام الي قرافة الامام الشافعي وغيرها ، والبعض الآخر عمل له صهريج مخصوص ودفن به ، وبني عليه مسجد عرف بمسجد العظام ، وهو بقرب جامع العشماوي عن يمين المار بالشارع الموصل للعتبة الخضراء وعابدين "

ويضيف علي باشا مبارك في وصفه لهذا الشارع : " إن هذا الشارع من أعظم ما عمل بمدينة مصر القاهرة ، إذ بوجوده حصل نفع كبير وفوائد جمة للعامة ... وبعد أن كانت جميع الجهات التي مر بها قليلة القيمة مشحونة بالقاذورات ، أصبحت بمروره منها عالية القيمة ، مرغوبة السكن ، توازي أعظم مواقع القاهرة ، وقد بني في ضفتيه البيوت المشيدة ، كالعمارة الكبيرة المستجدة ذات الأماكن العلوية والسفلية من إنشاء الحاج محمد أبي جبل ، أحد التجار المشهورين ، وسراي الأمير حسن باشا الشريعي ، وسراي نعماتي باشا ، وسراي الأمير رستم باشا ، وغير ذلك من البيوت الكبيرة والصغيرة والحوانيت العديدة المتسعة " .

وتلك كانت رؤية المهندس والمؤرخ علي باشا مبارك ، غير أن ما استلزمه إنشاء هذا الشارع من تضحيات جسيمة بمساجد وآثار جليلة ، كانت من الفداحة ، بحيث أن كثير من العلماء والكتاب تمنوا لو أن القائمين علي تنفيذ هذا المشروع ، قد تنازلوا عن أمر إستقامته لتلاقي تلك الخسارة

الجسيمة ، ويقول " أرثر رونيه " في وصفه الساحر لهذا الشارع : إن تحديد مساره قد تم وفقاً للهوي وليس للدراسة المتأنية " .

في عام ١٨٧٣ ، افتتح شارع محمد علي ، والذي أطلق عليه فيما بعد " شارع القلعة " وتميز بوجود أرصفة متسعة علي جانبيه ، تظللها الأشجار والبواكي ، كما أضئ علي إمتداده بالمصابيح الغازية ، وكان سرور الخديو إسماعيل به عظيماً ، حتي أنه أمر بتنظيفه ثلاث مرات يومياً للحفاظ علي رونقه وبهائه .

ويقول كاتبنا الكبير " كامل زهيري " : ليس مثل القاهرة عاصمة في العالم ، لأن فيها شارعاً واحداً علي رأسه مسجد وفي قلبه مكتبة وتحت أقدامه مسرح .

في هذا الشارع ، وما بين ميدان القلعة (الرملية ـ محمد علي ـ صلاح الدين) وميدان العتبة الخضراء (الملكة فريده) اجتمعت أربعة منشآت كبري لها تاريخ ومغزي ومعني .. الجامع والمكتبة والمتحف والمسرح ... فعلي قمته " جامع السلطان حسن " درة العمارة الاسلامية .. وفي وسطه بميدان باب الخلق ، وهنا يبرز ظرف القاهريين وذوقهم عندما غيروا الاسم القديم للميدان من " باب الخرق " الي " باب الخلق " .. تطل " الكتبخانه الخديوية " وبجوارها دار الآثار العربية " متحف الفن الاسلامي " وتجمع دار الكتب الي جانب أندر المخطوطات ، ذكري الرواد والعلماء والأدباء الذين أداروها أو عملوا بها ، وعلي رأسهم : منصور فهمي باشا وأحمد لطفي السيد " أستاذ الجيل " و حافظ ابراهيم " شاعر النيل " وأحمد رامي " شاعر الشباب " والأديب الكبير توفيق الحكيم ، الذي وصف شارع محمد علي وهو ينزل في شبابه من حي القلعة الي العتبة الخضراء والازبكية ، حيث فرق التمثيل الأهلية ، خاصة " جوقة زكي عكاشة " .. كما وصف العميد " طه حسين " صديقه " أديب " وهو يصعد يوميا الي القلعة .. وما بين هذا الهبوط وذلك الصعود ، كان لابد من محطة إجبارية في منتصف الرحلة .. حيث دار الكتب المصرية بشموخ مبناها.. وسلالمها العديدة المرتفعة وكأنها تمهد للقارئ في الصعود والإرتقاء .. وكان فضلها علي أجيال من المثقفين عظيماً .

ويضم متحف الفن الاسلامي : أندر وأثمن المجموعات العالمية ، فيما أبدعته الحضارة الاسلامية في فنونها المتعددة .

وكان تحت أقدام هذا الشارع العريق : مسرحين ، اشتهر منهما الأوبرا .. والي يسارها كان المسرح الكوميدي أو " الأوبرا كوميك " الي جوار حديقة الازبكية ، وقد شهد بدايات مسرح يعقوب صنوع ، وزال المسرح الكوميدي ، واحترقت الاوبرا ، ولم يتبق سوي مسرح الأزبكية أو المسرح القومي حالياً .

وما زالت آثار من بقايا القرن التاسع عشر .. حيث إسم حارة " المدابغ القديمة " قائماً في نهاية الشارع .. كانت هنا المدابغ الأقدم قبل ترحيلها الي منطقة باب اللوق ثم نقلها الي حي مصر القديمة بمحاذاة سور مجري العيون ... وكان من آثار المدابغ محال بيع الجلود في منطقة " تحت الربع " وما زالت " القربية " ترمز لصناعة القرب لحمل المياه ، قبل مد شبكة توزيع المياه .. كما لازالت بقية من الفن في بعض المحال المتناثرة بشارع محمد علي ، تصنع وتبيع العود والناي والطبلة والدف .. رموز التخت الشرقي ، بينها بعض محال " الزنكوغراف " من بقايا عهد الصحافة والطباعة ، وحيث كان شارع محمد علي هو " شارع الصحافة " قديماً ، وقد تناثرت علي جانبيه دور الصحف والمجلات .. أشهرها جريدة " المؤيد " للشيخ علي يوسف .. ولايزال هناك " درب العوالم " بدون عوالم .. وكان لبعضهن شهرة وتاريخ .. كما كان بالشارع مقهي لاستئجار " الندابات " !

المصادر :

١- على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ، الجزء الثالث .
٢- عرفه عبده على : القاهره فى عصر إسماعيل .
٣- كامل زهيري : القاهره - عاصمة ثقافية ، كتاب وزارة الثقافة ، ص ١١-٢٢ ، القاهرة ، ٢٠٠٠

شارع عماد الدين :

أو " شارع الفن " .. وكان في زمن علي باشا مبارك يمتد من شارع بولاق (فؤاد - ٢٦ يوليو) الي شارع جامع الاسماعيلي ، وبه ضريح الشيخ عماد الدين ، ويمتد حالياً الي شارع رمسيس ، والجزء الجنوبي من الشارع حتي تقاطعه مع شارع ٢٦ يوليو أطلق عليه : شارع محمد فريد .

وشارع عماد الدين هو شاهد علي أروع الأزمنة في تاريخنا الفني ، في أوائل القرن العشرين . وقد شيدت مبانيه - أشهرها عمارات الخديو - علي الطرازين الايطالي والفرنسي ، وكان من أوائل الشوارع التي ازدانت بمصابيح الغاز علي جانبيه .. ومنذ البداية ، كان الحرص علي تشييد المسارح والصالات والمقاهي والكازينوهات لخدمة الجاليات الأوروبية في هذه المنطقة بوسط البلد ثم أصبح الشارع ومسارحه ملتقي الراغبين من سكان الحلمية الجديدة والعباسية ومصر الجديدة والزمالك .. والأعيان من الريف المصري .. وتحولت مقاهي عماد الدين الي صالونات فكرية وفنية جمعت " أمير الشعر " أحمد شوقي وخليل مطران والعقاد وحافظ ابراهيم والمازني ، ومحمد تيمور وفرح انطون وعباس علام وأمين صدقي ونقولا تكلا وغيرهم من نجوم الأدب والصحافة ..

كان بالشارع أغرب بنسيون في مصر : مهمته استقبال السيدات والأنسات القادمات من بلاد الشام ، الراغبات في احتراف فن التمثيل ، بشرط ألا تكون المقيمة بهذا البنسيون متزوجة ، ولا تدفع أجرة الإقامة إلا عندما تعمل باحدي المسرحيات ويتحقق لها النجاح .

في هذا الشارع بدأ البناء الفكري للمسرح الغنائي ، فتألق مسرح سلامه حجازي بطريقته الفريدة في التطريب ، ثم سلطانة الطرب " منيرة المهدية " التي انتقلت من تخت " شفيقه القبطية" ومقهي نزهة النفوس الي فرقة سلامة حجازي ، الي أن أصبحت أول إمرأة مصرية تعتلي خشبة المسرح في عماد الدين وروايتها الأولي " صلاح الدين الايوبي " علي مسرح برنتانيا التي كانت

أولي خطواتها في مشوار النجومية ، ولم يشهد تاريخ الأوبريت المصري نجاحاً مثل الذي شهده شارع عماد الدين بفضل فرقة منيرة المهدية .

ويذكر الشارع ، عبقرية الفنان " سيد درويش " الذي أحدث ثورة في عالم المسرح الغنائي ، وهو الذي آمن بأن الموسيقي للشعب .. أراد أن يغني الشعب بجميع طبقاته .. فكتب لالحانه التي شدت بها مسارح عماد الدين الخلود .

ومن المدهش ، أن فن المنولوج الوطني والاجتماعي ولد في صالات ومسارح عماد الدين ، وكان من أعمدة هذا الفن : يوسف وهبي ، حسن فايق ، سيد سليمان ، إسماعيل ياسين وغيرهم...

وكم تألقت في سماء عماد الدين فرق ونجوم في تاريخ المسرح المصري ، أذكرمنهم : فرقة جورج أبيض ، فرقة عزيز عيد ، أولاد عكاشة ، فرقة يوسف وهبي " مسرح رمسيس " وفرقة نجيب الريحاني وفرقة علي الكسار " بربري مصر الوحيد " .. وفرقة فاطمة رشدي ..

أضاء جورج أبيض مسرحه " الرينيسانس " بشارع عماد الدين عام ١٩٢٣ ، وتبادل مع غيره من الفرق مسرح " برينتانيا " الجديد ، وكان مقهي الكورسال مكانه المفضل الي جانب قهوة "متاتيا " للقاء أهل الأدب والفن والصحافة .

وظل علي الكسار " عثمان عبدالباسط " مسيطراً علي شارع عماد الدين نحو ٣١ عاماً.. ببساطته وطيبته وروحه المصرية المرحة مع تمسكه بالقيم والتقاليد .. قدم خلالها ١٦٠ مسرحية علي مسرح " كازينودي باري " و١٩٠ مسرحية علي مسرح " الماجستيك "..

وقد أحدث شارع عماد الدين لنفسه أجنده وطنية بالاجتماعات التي كانت تقام في مقاهيه عقب ثورة ١٩١٩ ... عمال المترو والترام وشركات الغاز والكهرباء والتليفونات والسجاير .. وحتي جرسونات المقاهي .. وغيرهم من الطلبه وموظفي الحكومة .. فكان الشارع أحد منابر الوطنية والدعوة الي النهضة المصرية والخلاص من الاحتلال البريطاني .

واذا مضينا في رحلة قصيرة الي زمان عماد الدين وحاولنا تحقيق بعض " المواقع " فسنجد أن مدام " مارسيل " كانت من الشخصيات الشهيرة بشارع عماد الدين وهي صاحبة مسرح وكازينو

"دي باري " .. كما أنها إستأجرت مسرح صغير بجوار مسرح رمسيس وأطلقت علي " مسرح الريحاني " .. ومسرح وكازينو دي باري كان في موقع سينما ريتس .. ومسرح " الماجستيك " كان موقعه سينما " بيجال " حالياً ومسرح " الاجيبسيانا " كان موقعه سينما " ريجال " ومسرح " الكورسال " كان موقعه سينما الكورسال ، وأول عرض لفرقة رمسيس كان في موقع مسرح الريحاني حالياً ، وأصله " جاراج " كان يملكه المليونير اليهودي " عاداه " .. ثم أصبح سينما " راديو " الي أن حولها يوسف بك عام ١٩٢٢ الي مسرح رمسيس ، والي جواره كان مسرح فرقة فاطمة رشدي ..

ومسرح " الاجيبسيانا " والذي شهد العصر الذهبي لفرقة الريحاني في العشرينات من القرن الماضي ، كان أرض رمليه بلا بلاط أو خشب ، وسقفه مغطي بقماش الخيام والكراسي من القش ، اشتراه " ديموكانجوس " وأطلق عليه مسرح " برنتانيا " بعد أن هدم برنتانيا القديم وكان موقعه : محل كبابجي ألفي بك الآن .

ومن مقاهي عماد الدين الشهيره : قهوة الفن ناصية مسرح الريحاني ، وقهوة ريجينيا وكان خلفها نقابة الممثلين القديمة ، وقهوة راديوم في منتصف الشارع ثم قهوة بايرون ناصية عماد الدين والملكه نازلي (رمسيس) ومقهي الكورسال .. وكانت ملتقي نجوم الفن والأدب والصحافة .

المراجع :

١ ـ علي باشا مبارك : الخطط التوفيقية ـ الجزء الثالث .

٢ ـ علي الراعي : الكوميديا المرتجلة في المسرح المصري ، كتاب الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٨

٣ ـ لويس عوض : صفحات مطوية من تراث المسرح ، القاهرة ، ١٩٥٦

٤ ـ مجلة الكواكب : السنوات ١٩٣٢ ـ ١٩٤٠

٥ ـ مجلة الفنون : السنة الخامسة ، العدد ١٨


ملاحق

حكاية الأنتيكخانة!

تبدأ قصة الحفاظ على كنوز تراثنا الأثرى ، بأمر من محمد على باشا ، بمنع خروج آثار مصر من البلاد ، وتجميع ما يكتشف منها بمنزل الدفتردار بحى الازبكية .. غير ان هذا ، لم يمنع استمرار النهب والتهريب ، حتى اتخمت متاحف أوربا !

وفى عهد عباس الأول ، كانت السلطات الحاكمة تهدى من هذه المجموعات الى الضيوف من الأمراء وكبار الشخصيات !.. وما تبقى نقل الى القلعة ، وفى عام ٨٥٥ ، زار مصر الارشيدوق النمساوى « ماكسمليان » وأبدى اعجابه الشديد بالمجموعة المتبقية ، وكان عباس غير مقدر قيمة تلك الكنوز أو غيرها .. فوهبها كلها الى الارشيدوق !

ويأتى الى مصر ، عالم المصريات الفرنسى الشهير « أوجست ماربيت » وكان امينا مساعدا بقسم الآثار المصرية بمتحف اللوفر ، موفدا من الحكومة الفرنسية للبحث والتنقيب عن الآثار والمخطوطات النادرة ، وتركزت اعماله بمنطقة سقارة ، وكانت ابرز اكتشافاته « السرابيوم ».. وبسعى من مسيو « دى ليسبس » أصدر الخديو سعيد امرا بتعيين ماربيت بك ، فى يونيو سنة ١٨٥٨ « مأمورا لأعمال العاديات » بمصر .. ومجموعة الآثار التى حفظت بمخازن بولاق ، كانت النواة الأولى لما عرف بـ « متحف بولاق » سنة ١٩٥٩ .

وقاد ماربيت فريق العمل ، فى سلسلة من الحفائر العلمية المنظمة ، شملت تانيس ، الجيزة ، ابيدوس ، ادفو ، دندرة ، الكرنك ، الدير البحرى ، جزيرة فيلة .

وفى الثانى من ذى القعدة سنة ١٢٧٩ (يونيو ١٨٦٣) أصدر الخديو اسماعيل عدة « اوامر كريمة » الى سعادة الباشا مفتش اقاليم الوجه القبلى ، نوجزها فيما يلى :

● « حيث ان من مقتضى إرادتى ابقاء استمرار أشغال الآثار الموجودة تحت نظارة ـ ماربيت بك ـ كما كانت قبلا ، فبناء عليه يجب أن تبادروا بإجابة كافة طلبات المومى اليه ، من عمال وفؤوس ومقاطف وكافة اللوازم مع الاهتمام باعتدال اجرة العمال »!

● « حيث ان الآثار القديمة الموجودة بإقليم مصر ، هى اعظم مدار لبقاء ودوام سيرة المملكة فى التاريخ العام ، وان حفظ هذه الآثار وبقاءها فى عهدنا من اجل رغائبى ، فبناء عليه يجب ان تبادروا بإصدار التنبيهات الأكيدة لمنع كسر واتلاف هذه الآثار ونقل احجارها ووضعها فى عمارات الميرى أو فى ابنية منازل الأهالى منعا شديدا وان تبلغوا كافة المديرين بخصوص ترتيب وإعطاء خفراء بالأجرة إذا حصل طلب من طرف مصلحة دار العاديات »!

● « فى كثير من الأوقات ، يعثر بعض اهالى القرى بطريق المصادفة على قطع اثرية (انتيكات) وحيث اقتضت إرادتى ضرورة قيامهم بتبليغ مصلحة دار العاديات (الانتيكخانة) عند ظهور شئ من هذا القبيل »!

● « حيث ان اهالى بلاد الاقصر والكرنك والقورنة ، ميالون للتحرى والعثور على الآثار القديمة ولاستخدام حجارة الآثار فى بناء منازلهم وسائر الابنية ، فبناء عليه يجب منعهم فيما بعد .. وحيث أعطى فى عهد اسلافنا لهذا وذاك رخص شاملة للتنقيب عن الآثار ، فيجب أن يكلفوا بالانتظار ، وأن تؤخذ صورة الأمر الشامل على الرخصة حرفيا وترسل الى طرفنا لنبدى راينا فى هذا الباب »!



■ فناء متحف بولاق (١٨٦٤)

عرفه عبده على

● « قد لزم التنبيه ، بخصوص تدارك وإعطاء كل الطلبات الواردة فى إشعارات ماربيت بك مأمور دار العاديات (الانتيكخانة) مثل الجمال والخيل والمراكب والأخشاب والنسيج والمسامير وسائر الأشياء اللازمة لحفظ ونقل الآثار القديمة »!

المتحف القديم ، على ضفاف النيل مباشرة ، بضاحية بولاق ، كان عبارة عن عدة مخازن ، تتقدمها حديقة كبيرة محاطة بالاشجار ، والى يمين المبنى ، بعض الأكشاك التى استخدمت كمكاتب إدارية ، وقد تحولت هذه المخازن الى قاعات فرعونية ، يتسلل اليها الضوء من خلال نوافذ بأعلى الجدران ، بطريقة تزيد المشهد جاذبية وإثارة ، ورواق صغير يؤدى الى القاعة الكبيرة ، حيث اهم المعروضات ، والى اليسار قاعة الدولة القديمة ، ويمينا قاعة الهكسوس ، التى كانت تضم تابوتا للملك خوفو عنخ ، ومجموعة جميلة من تماثيل الخدم اثناء عملهم ، وبعض تماثيل لأبى الهول اكتشفت فى تانيس ، وقطع اثرية تنسب الى الملوك الرعاه ، من الأسرة الخامسة ، والأسرة السادسة عشرة .

وضمت القاعة الكبيرة ، تمثالا لخفرع ، أجمل التماثيل الملكية ، الذى اكتشف بمعبد أبو الهول ، وشيخ البلد ، اشهر تمثال فرعونى ، والذى اكتشف بسقارة ، وتماثيل لايزيس وأوزوريس وحتحور ، ومجموعات مجوهرات وحلى لبعض الملكات ، والمتحف بشكل عام ، كانت تتهدده مياه الفيضان كل عام .

وكان من الضرورى اجراء الترميمات اللازمة للحفاظ على سلامة المبنى ، وفى ١٥ شعبان سنة ١٢٨١ يصدر اسماعيل باشا « أمر عالى » الى ناظر المالية ، منطوقه :

« قد علم لدينا من الافادة المتقدمة الى ديوان المعاونة من ـ لينان بك ـ بتاريخ ١٢ رجب ، نمرة ٢٣ ، المبينة على ما ورد له من مدير الآثار التاريخية ، بخصوص عمارة الدور الفوقانى بالانتيكخانة ، التى اقتضت إرادتنا اجراها وامرنا بان يجرى ما يلزم لطلب واحد مهندس ، لينظر قيمة المقتضى صرفه الى المقاول ، وتعيين من لزم من المهندسين اولاد العرب والفرنساوية »

وقبيل الانتهاء من عملية تجديد المتحف ، يصدر اسماعيل باشا امرا الى ديوان المالية : « قد عرض لدينا ـ الانهى ـ الوارد من مدير الآثار التاريخية ، رقم ٩ ، بناء على امرنا الشفاهى السابق اليه عن تنظيم ـ الانتيقة خانة ـ تكون جاهزة للتفرج عليها ، وان تعمل المصاريف اللازمة وتتقدم قايمتها ، واوضح بانه أجرى العمل ، ومن أول شهر نوفمبر صار فتحها ، وكثير من المتفرجين يحضرون للتفرج عليها ، ولكون المصاريف التى صرفت على ذلك تبلغ خمسة وخمسين الف فرنكا واربعين فرنكا وخمسة وخمسين سنتيم ، يرام صدور الأمر بصرفه وبترجمة القوايم التى وردت بمعرفة زكى بك ، ورد له إفادة من الخواجة جابى امين الانتيقة خانة »

ويفتتح متحف بولاق ـ بعد التجديد وقبل الموعد المحدد ، بحضور الخديو اسماعيل فى ١٨ اكتوبر سنة ١٨٦٣ .. ويواصل ماربيت باشا جهوده ، حتى وفاته عام ١٨٨١ ، ويظل المتحف فى موقعه هذا حتى عام ١٨٩١ ، عندما بدأ التفكير جديا فى تشييد متحف اكثر اتساعا وحداثة ، ونقلت المجموعات الأثرية الى سراى اسماعيل بالجيزة ، حيث ظلت هناك لأكثر من عشر سنوات ، وأطلق على السراى « متحف الجيزة ».

وفى ١ إبريل سنة ١٨٩٧ ، وضع الخديو عباس حلمى الثانى « بيده الكريمة » حجر الأساس للمتحف الجديد (الحالى بميدان التحرير) وبدأ التنفيذ تحت اشراف المهندس المعمارى الفرنسى « مارسيل دورنو ».. على مساحة ١٣,٦٠٠ متر مربع ، ونقلت اليه رفات ماربيت لتدفن تحت نصب تذكارى ، وافتتح عام ١٩٠٢ ، ويتضمن طابقا تحت الأرض ، يستخدم كمخازن لحفظ الآثار ، ثم الطابق الأرضى ، وهو مخصص للمعروضات الثقيلة : تماثيل ، توابيت ، مسلات ، لوحات منقوشة .. مرتبة طبقا لتسلسل الأسر المصرية القديمة ، وأهم معروضات الطابق العلوى بقسميه الشمالى والشرقى : كنوز الملك توت عنخ أمون وتضم أروع مجموعة من الحلى والجواهر ، والعرش المصنوع من الخشب المذهب ، والقناع الذهبى ، وتحف من المرمر ، ومجموعة المراكب ، وصناديق جميلة ، واسلحة وادوات لعب ومراوح .

ويضم المتحف معامل ، وقسما للتصوير ، وقسما للترميم والصيانة ، ومكتبة أثرية هامة تحتوى نحو ٤٠ الف كتاب ، بدأ تكوينها منذ عام ١٨٨٦ ، والمتحف بصفة عامة ، يضم اكثر من ١٠٠ الف قطعة ، تشكل اعظم واندر مجموعة عالمية من روائع الفن المصرى القديم .

المراجع : ١- أمين سامى : تقويم النيل وأسماء من تولوا أمر مصر ومدة حكمهم عليها ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٦ - ١٩٣٦
٢- إسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٥

دار الآثار العربية « متحف الفن الاسلامى » الحلقة الرابعة فى سلسلة المتاحف التى حفظت لمصر « مجموعاتها الخاصة » من شواهد تاريخها الحضارى عبر عصور طويلة ، والمتاحف التى سبقته هى على الترتيب : المتحف المصرى ، المتحف اليونانى ـ الرومانى بالاسكندرية ، المتحف القبطى .

متحف الفن الإسلامى

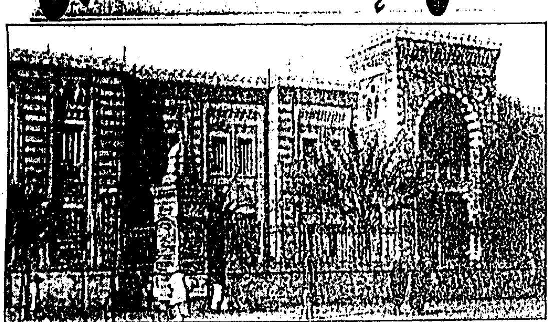
ويرجع التفكير فى انشاء متحف للآثار الاسلامية ، إلى المهندس « سالزمان » الذى إقترح هذه الفكرة على الخديوى اسماعيل ، سنة ١٨٦٩ ، فأصدر امرا إلى « فرانز باشا » رئيس قلم هندسة الأوقاف ، بتخصيص دار حكومية لجمع التحف من المساجد والبيوت الأثرية ، غير ان هذه الأمنية لم تتحقق إلا فى عهد الخديوى توفيق ، حيث خصص للقطع الأثرية الاسلامية التى امكن جمعها .

الايوان الشرقى من جامع الحاك ..

فى ١٨ ديسمبر عام ١٨٨١ ، صدر « امر عال » بانشاء « لجنة حفظ الآثار العربية » تحت اشراف وزير الأوقاف محمد زكى باشا ، وعضوية : مصطفى باشا فهمى ، الذى تولى من خلال عدة حكومات ، وزارات الاشغال العمومية ، الخارجية ، المالية ، الداخلية والحربية ثم رئاسة الوزارة عام ١٨٩٦ ، ومحمود سامى باشا ، محمود بك الفلكى ، اسماعيل بك الفلكى مدير مدرسة المهندسخانة فرانز باشا ، روجرز بك تيجران بك ، عزت افندى ، يعقوب افندى صبرى ، وعلى افندى فهمى ..

وعظمت العناية بأثار العصر الاسلامى ، وازداد عددها حتى ضاق بها الايوان الشرقى ، وبادرت وزارة الأوقاف إلى انشاء مبنى جديد فى صحن جامع الحاكم ، وفى بداية عام ١٨٩٢ ، ترك فرانز باشا ادارة الدار ، وفى ابريل من نفس العام ، تولى الاشراف عليها « هرتس بك » كبير مهندسى اللجنة ، وكان ابرز أعماله اعداد دليل لمحتويات الدار عام ١٨٩٥ ، كما اعد تقريرا عن ضرورة تشييد دار جديدة للآثار الاسلامية ..

فى عام ١٨٩٦ ، راس اللجنة : سعادة « محمد فيفى باشا » مدير عموم الاوقاف ، وحضرة « محمد سرور بك » وكيل عموم الاوقاف نائبا ، وانضم لعضويتها سعادة حسين فخرى باشا ناظر المعارف العمومية ، ويعقوب ارتين وكيل نظارة المعارف ، والكونت شارل زالوسكى « مدير صندوق الدين » ! .. ومسيو ديمرجان مدير عموم الانتيكخانات المصرية ، والسير



متحف الفن الاسلامى عام ١٩٣٥.

عرفه عبده على

وليام جارستين وكيل الأشغال العمومية .

وضع حجر الاساس عام ١٨٩٩ ، واكتمل البناء سنة ١٩٠٢ ، وبدأ نقل التحف الأثرية إليه ، وافتتحت الدار الجديدة رسمياً فى ٢٨ ديسمبر عام ١٩٠٣ ، بميدان باب الخلق (أحمد ماهر حالياً) وخصص الطابق العلوى منها لدار الكتب المصرية ، حتى استقل المتحف بالمبنى الحالى .

وكان الغرض من إنشاء هذا المتحف ، وقاية الآثار الاسلامية بالمساجد والمنشآت العامة والقصور ، من العبث والحفاظ عليها ، ولم تحصل الدار على اى اثر اسلامى عن طريق الشراء ـ طوال العشرين عاماً الاولى ـ فكان طبيعيا ان ينضب هذا المعين ، فتم تخصيص اعتماد مالى لشراء التحف من أسواق العاديات ، وتخصيص اعتماد آخر للقيام بحفائر للتنقيب عن الآثار .

وكانت الحفائر الاولى سنة ١٩١٠ ، بمنطقة « درنكه » جنوبى غرب اسيوط ، وأعظم حفائرها ، تلك التى كشفت عن موقع مدينة الفسطاط القديمة ، جنوبى القاهرة ، وجزء من الفسطاط بخططه ومنازله ، اوكميات هائلة من الخزف والمنسوجات والادوات المعدنية والزجاجية والخشبية .. وكان هذا الاكتشاف البالغ الاهمية ، تحت اشراف « على بهجت باشا » اعظم من تولى ادارتها من المصريين !

والمجموعات الفنية بهذا المتحف ، لاتمثل كل طرز الفن الاسلامى وفروعه ، وإنما تمثل ـ بصفة خاصة ـ الطرز التى إزدهرت بمصر ، واروع المجموعات المصرية فى التصوير الاسلامى ، هى مجموعة دار الكتب المصرية ومجموعة شريف صبرى باشا ، كما يضم المتحف اعظم واندر مجموعات السجاد الشرقى فى العالم ، ممثلة فى مجموعة د . على ابراهيم باشا ، التى اقتناها المتحف ، الذى يضم ايضا ، اندر مجموعة فى العالم ، من المشكاوات المصنوعة من الزجاج المموه بالمينا ، وهى التى كان سلاطين المماليك فى مصر والشام يهبونها للمساجد ، ويرجع تاريخها إلى مابين القرن الثالث عشر إلى بداية القرن الخامس عشر الميلادى .

كذلك مجموعة التحف الخشبية ، تعد من اعظم المقتنيات العالمية ، والتى تشهد بجمال الزخارف وتنوعها فى الطرازين الفاطمى والمملوكى ، ايضا المجموعة المعدنية النادرة الخاصة بمستر « رالف هرارى » تعد من اغنى مجموعات العالم ، إلى جانب المجموعات الخزفية والمنسوجات المصرية والايرانية والتركية ..

ومن أروع مجموعات متحف الفن الاسلامى ، مجموعة « شبابيك القلل » بزخارفها الدقيقة التى تشهد بالمستوى الفنى الرفيع ، الذى بلغته الحضارة الاسلامية فى مصر ..

وتجدر الاشارة إلى ان المتحف قد حصل على كثير من محتوياته ، بطريق الاهداء ، قدمها بعض من أسرة محمد على وهواة الفن الاسلامى ، فقد اهدى الملك فؤاد مجموعة ثمينة من المنسوجات والموازين والاختام ، كذلك ضم مجموعات مهداه من الملك فاروق ، والأمراء : محمد على توفيق ويوسف كمال وعمر طوسون وكمال الدين حسين ، ويعقوب ارتين باشا ، و د . على ابراهيم باشا أول عميد مصرى لكلية الطب .

واستكمالاً لرسالته العلمية ، اصدر المتحف سلسلة تعد اهم الابحاث والدراسات التى نشرت فى الفنون الاسلامية المختلفة ـ حتى يومنا هذا ـ باللغات الفرنسية والانجليزية والعربية والايطالية ، لابرز العلماء فى هذا المجال ، وعلى رأسهم : جاستون فييت ، دافيد ويل بوتى ، بهجت باشا ، البرت جابرييل ، زكى حسن ، فيلكس ماسول وجيمس الان ..

المراجع :

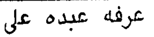
١- إسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته ، دار الكتب المصرية ، القاهره ، ١٩٤٥

٢- أمين سامى ؛ تقويم النيل ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٦-١٩٣٦

٣- دليل متحف الفن الاسلامى ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٥٢

حكاية المتحف القبطى

الحديقة الاثرية بالمتحف القبطى



عرفه عبده على

إلى عالم المصريات الفرنسى الاشهر « جاستون ماسبيرو » يعود الفضل الاول فى الاحتفاظ بآثار مصر القبطية ، فعقب توليه منصب مدير عام مصلحة الاثار المصرية عام ١٨٨١ . عقد العزم على ان يشمل برنامجه الفنى ، جميع المعالم والآثار المسيحية ، وبجهوده الخاصة تمكن من حشد قاعة تزخر بمجموعات رائعة من تلك الآثار ، جمعها من مختلف انحاء مصر ..

وواصل جهوده من اجل تطوير قسم الآثار القبطية ، وقد كانت اعمال ماسبيرو ، ودراسات د . « الفرد بتلر » عن كنائس مصر القديمة ، حافزا للمرحوم « مرقص سميكة » باشا ، للتفكير فى مصير تلك القطع الاثرية ، المهددة بالاهمال ، حتى استطاع أن يقنع الحكومة ، بأن تضم الكنائس القبطية القديمة ، فى عام ١٨٩٢ ، تحت إشراف لجنة حفظ الآثار العربية ، ثم شرع فى تاسيس المتحف القبطى ، فى الفترة مابين عامى ١٩٠٨ـ ١٩١٠ ، وقاد حملة تبرعات تقدم بها كثير من أبرز الشخصيات المصرية القبطية ، ونخبة من محبى الفنون والآثار .

وقد شيدت المبانى الاولى للمتحف ، على جزء من أرض تابعة لاوقاف الكنيسة ، هبة من غبطة البطريرك « كيرلس الخامس » الذى سمح بنقل التحف القبطية كالمشربيات والاعمدة الرخامية والنوافذ والادوات ولوحات خشبية وقطع سيراميك . كانت فى منازل متداعية بملاكها اقباط ، إلى هذا المتحف الناشىء .

والموقع المقام عليه المتحف القبطى ، على جانب كبير من الاهمية التاريخية ، من حيث صلته الوثيقة ببدء المسيحية فى مصر ، فهو قائم داخل أسوار حصن « بابليون » الشهير ، أهم واضخم آثار الامبراطورية الرومانية فى مصر ، الذى يعتقد انه شيد فى عصر الامبراطور « تراجان » فى مستهل القرن الثانى الميلادى ، على انقاض حصن اقدم منه عهدا ، ينسب إلى الدولة الفارسية .

ويجاور المتحف ست كنائس قديمة ، اهمها: كنيسة ابى سرجة ، الواقعة فى منتصف الحصن ، وتذهب الاساطير إلى ان هذه الكنيسة قد شيدت فوق الكهف الذى لجات إلية العائلة المقدسة ، إبان هروبها فى أرض مصر . وكنيسة العذراء الشهيرة بـ « المعلقة » والتى كانت فى القرن الحادى عشر الميلادى : مقرا للكرسى البطريركى ، والتى ذكر العالم الرحالة الفرنسى « فانسلب » عام ١٦٧١ ، انه شاهد على احد جدرانها ، كتابة عربية بخط يد « عمرو ابن العاص » تتضمن وصية إلى المسلمين بالا يتعرضوا بسوء إلى هذه الكنيسة ! .. ثم كنائس : الست بربارة ، ومار جرجس ، ودير السيدة العذراء وكنيسة قصرية الريحان .

وقد ظل المتحف ملكا للبطريركية القبطية حتى عام ١٩٣١ ، حيث خضع للاشراف الرسمى للدولة ، نظرا لقيمته الاثرية التى تمثل حلقة هامة من حلقات التاريخ المصرى القديم ..

والجناح القديم من المتحف ، يتكون من قسمين ، وكلاهما يحتوى أربع عشرة قاعة ، اسقفها من الارابيسك الماخوذ من القصور والبيوت القبطية القديمة ، ويطل هذا الجناح على حديقة اثرية رائعة ، تزدان بتيجان الاعمدة ، فى جدارها الجنوبى ، سلم من خمس وعشرين درجة ، يؤدى إلى البوابة الجنوبية لحصن بابليون ، التى تنخفض عن مستوى الارض بنحو ستة امتار ، ومنها دخل القائد عمرو إلى الحصن ، ليبدا حكمه لمصر .. ومعروضات الطابق السفلى ، تتضمن شواهد قبور ، معظمها من الحجر الجيرى ، عليها نصوص باللغة القبطية ، عبارة عن صلوات تطلب الرحمة من الله للمتوفى . وتاريخ هذه المجموعة ، يرجع إلى ما بين القرن الرابع والقرن الثالث عشر الميلادى ، فى بعض الشواهد ، نجد ثقبا نافذا ليسمح بتمتع الروح بعبق رائحة البخور المحروق ، على نحو ما كان يفعل المصريون القدماء ! . كما يحمل اسلوب النحت بعضا من العقائد المصرية القديمة .

ويضم الطابق العلوى ، مجموعة اللوحات الجصية ، فقد كان الاقباط يغطون قباب وجدران الكنائس والهياكل ، بطبقة من الطمى او الجص ثم يزينونها برسوم جميلة الالوان ، تمثل السيد المسيح ، والسيدة العذراء « أم النور » والحواريين والقديسين والشهداء ، وغيرها من الموضوعات الدينية المستوحاة من الكتاب المقدس .

كما يتضمن الطابق العلوى ، مجموعة الاشكال الخشبية واهم المشربيات ، ومجموعة الاوانى الفخارية الكبيرة ، التى كانت تستخدم فى حفظ النبيذ الخاص بالقداس !.. ومجموعة من النسارج ، التى وجدت فى الكنائس والاديرة القديمة ، ومجموعة « قارورات القديس مينا » .. ومجموعة زجاجية تشمل بعض الاوانى والكؤوس ومسارج وشمعدانات واكواب وزجاجات للعطور .

الجناح الجديد للمتحف :

افتتح فى ٢ فبراير سنة ١٩٤٧ ، وشمل الاقسام الاتية :

١ـ قسم الاحجار والرسوم الجدارية : ويضم اجزاء من كنائس قديمة واديرة ، كشفت عنها الحفائر فى مواقع متعددة ، والطابع الزخرفى نباتى وهندسى ، يمثل مناظر للصيد وبعض القصص الدينى والاساطير اليونانية .

٢ـ قسم المخطوطات وادوات الكتابة : ويضم مجموعة من المخطوطات النادرة وكتابات على الشقف والعظام والواح خشبية عليها نصوص قبطية ، وتجدر الاشارة إلى ان اقدم مخطوط من الرق ، محفوظ حاليا بدير وادى النطرون ويرجع تاريخه إلى عام ١١٨١م .

٣ ـ قسم المنسوجات : ويشمل مجموعات نادرة من قطع النسيج ، معظمها من الكتان ولقد كانت مصر فى عصر المسيحية ، مركزا لصناعة الكتان والصوف ، كما اشتهر النساج القبطى بمهارة متميزة فى تكوين المنسوجات وصناعة الاصباغ واستخداماتها والنسيج القبطى حظى بدراسات مكثفة من الباحثين الاوروبيين .



صورة تذكارية للملك فاروق وشقيقتيه الاميرتين فايزة وفوزية خلال زيارتهم للمتحف القبطى فى يونيو ١٩٣٥

٤ ـ قسم الايقونات : وتعنى الصور الدينية ، وقد نشات فكرة الايقونات الخشبية إبان الاضطهاد الرومانى للمسيحيين ، وماواكب ذلك من تدمير للكنائس ، حيث يمكن حملها من مكان لاخر ، وكانت تعلق على حجاب الهيكل وجدران الكنائس والاديرة ، وصور الميلاد والسيد المسيح والسيدة العذراء والرسل وحياة القديسين ، هى أبرز موضوعات هذه الايقونات . وتجدر الاشارة إلى ان المسيحيين الاوائل كانوا قد أعلنوا الحرب على التماثيل ، تنفيذا للوصية الاولى من الوصايا العشر ، ويذكر التاريخ أن الانبا شنودة ، قد عزم على تحطيم جميع المعابد والتماثيل بمساعدة الرهبان ، إلا ان كل تلك المحاولات قد باءت بالفشل .. « لان الجماهير لم تكن تستطيع فهم المسيحية واستيعابها دون صور منظورة » !

٥ ـ قسم الادوات المعدنية: معظم القطع المعدنية بالمتحف ـ غير محددة التاريخ ـ مثل تلك التى وصلتنا من العصور الفرعونية ، وتميز زخارف هذه المجموعة ، مشاهد دينية ، ومناظر لراقصات وموسيقيين وبعض الحيوانات .

مكتبة المتحف وتتكون من قسمين :

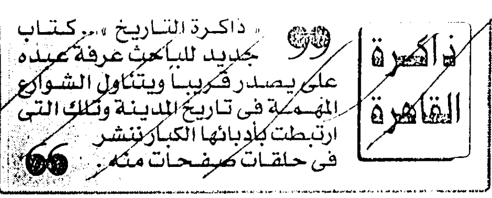
- **قسم الكتب المطبوعة** ، ويضم نحو سبعة الاف كتاب ، فى تاريخ مصر القبطية ، والفن القبطى ، واللغة القبطية ، وتاريخ الكنائس والاديرة .
- **قسم المخطوطات** ، ويضم مجموعة كبيرة من المخطوطات القبطية والعربية واليونانية النادرة .

المراجع :

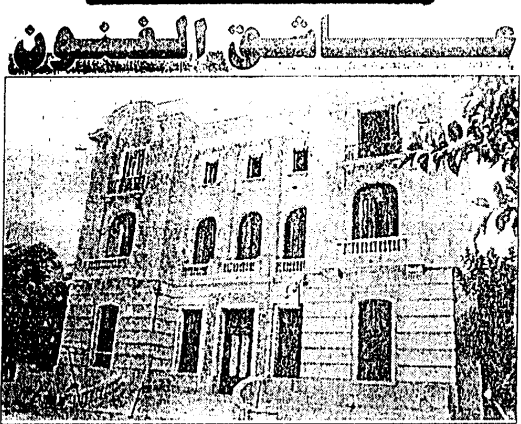
١- دليل المتحف القبطى ، القاهرة ، ١٩٥٠

٢- عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام ، ١٩٦٩

٣- مجلة الجمعية الملكية للآثار القبطية



محمد محمود خليل..
عاشق الفنون



عرفه عبده على

متحف محمد محمود خليل: لوحة فنية متكاملة منسجمة متألقة، روائعه تصخب بالحركة فى صمتها الابدى!

وصاحب القصر محمود خليل، عاشق الفن والادب، كان واحدا من ابناء البورجوازية الوطنية التى ربطت مصيرها بالارض والشعب - كما يقول كاتبنا الكبير محمد عودة - ولد عام ١٨٧٧، ودرس بمدرسة الليسيه الفرنسية، سافر الى باريس عام ١٩٠٢ لدراسة القانون، وبعد ان اتم دراسته، عاد لينخرط فى الوطنية والثورة وبكل ما يملك، وما يستطيع ان يقدم - ليصبح واحدا من اقطاب حزب الوفد، كانت ثقافته تعادل وطنيته، وهيأت له ثروته اقتناء مجموعة من أندر وأثمن تراث الفن الفرنسى، ودفعه حبه لوطنه ان يهب هذا الكنز بعد وفاته الى مصر، ليصبح قصره متحفا يفتتح لمحبى الفنون الجميلة وعشاق الحياه..

كان محمود خليل قد التقى فى باريس بالفرنسية الرقيقة «إميلين هكتور» التى كانت راقصة باليه وتدرس الموسيقى بمعهد الكونسرفتوار، فجمعهما الحب، وعشق الفنون، وتزوجا بالقاهرة، وشاركا فى تأسيس «جمعية محبى الفنون الجميلة» التى اسسها الامير «يوسف كمال» عام ١٩٢٣، واصبح محمود خليل رئيسا لها منذ عام ١٩٢٤ حتى عام ١٩٥٢، وكان صاحب الفضل فى انشاء «متحف الفن الحديث» عام ١٩٢٥.

وعاشق الفنون والادب، كان ايضا سياسيا من الطراز الاول، شغل منصب وزير الزراعة - اهم وزارة فى ذلك العصر - عام ١٩٢٧ فى وزارة النحاس باشا، كما كان عضوا بمجلس الشيوخ ثم وكيلا للمجلس ثم رئيسا له منذ عام ١٩٣٨ الى عام ١٩٤٢.

فى عام ١٩٢٧، اشرف على الجناح المصرى بمعرض باريس الدولى للفنون، بحدائق تروكاديروا، الذى حضر افتتاحه الملك فاروق..

وكان هذا القصر، صالونا لصفوة المجتمع ونجومه فى السياسة والادب والفنون والصحافة، وكان محمود خليل من اقرب اصدقاء العميد «طه حسين».. وعلى مدار اربعين عاما، ظل يجمع مقتنيات مجموعاته النادرة، وكان قد اهدى بعض اللوحات الى متحف الفنون الجميلة بالاسكندرية، ونادى محمد على بالقاهرة، عقب عودته من معرض باريس، وقد اوصى بأن ترث قرينته «اميلين» هذه التركة من الروائع الفنية، على ان تؤول هذه الثروة الى الدولة عقب وفاتها، وان يتحول قصره الى متحف فنى.. وتوفى محمود خليل بفرنسا ودفن بها عام ١٩٥٢.

فى عصر وزير الثقافة الاسبق د. ثروت عكاشة، افتتح المتحف فى يوليو ١٩٦٢، وكان قد اعد مشروعا لبناء مجمع ثقافى مجاور للمتحف يحمل اسم «قصر الفنون» الا ان المشروع توقف، بعد ان تم عمل الاساسات بالفعل، عندما استولى على القصر الرئيس الراحل السادات وضمه الى منزله!..

ونقلت محتويات المتحف الى قصر الامير عمرو باشا ابراهيم عام ١٩٧٢.

وفى اطار خطة وزارة الثقافة لتطوير وتحديث المتاحف القومية، عادت المقتنيات الى قصر محمود خليل مرة اخرى.. وقد تم تحديث القصر انشائيا وتكنولوجيا بلغة معمارية متناسقة، وخلال عملية التحديث، كان الاهتمام واضحا بالفراغات الخارجية، حيث ضم جزءاً من حديقة القصر الى جماليات الفراغ العام ورونقه، ليكون مقدمة للتجربة البصرية الفنية داخل القصر ذاته..



• محمد محمود خليل

وكان محمود خليل قد تخير هذا الموقع الفريد للقصر، نحو عام ١٩١٠ عقب عودته من فرنسا، فى منطقة كانت عبارة عن بساتين وحقول ممتدة على شاطئ النيل، فى مواجهة الطرف الجنوبى لجزيرة الزمالك، وتأثر المهندس الفرنسى بالاتجاهات المعمارية السائدة آنذاك، مستخدما التأثير الكلاسيكى بالنسبة للاعمدة الخارجية والداخلية بتفصيلات من فن الباروك فى العقود المنخفضة والزخارف النباتية فى الحوائط والاسقف الخارجية والداخلية، كما ادخل على البناء بعض تفاصيل «الآرت نوفو» او الفن الجديد.. وكان قد تم الرجوع الى صور اصلية للمبنى عقب إنشائه، وازالة كافة التعديلات التى ادخلت عليه فى عهد الرئيس السادات!

واول ما يطالعنا فى مدخل الحديقة: كتلة رخامية ينساب حولها ماء النيل، منحوت عليها اسم المتحف وصاحبه باللغتين العربية والانجليزية، ثم تمثال لصاحب القصر، واشجار نخيل باسقات فى شموخ، تنتظم بين مسطحات خضراء، ونافورات حالمة رائعة.. الى اليمين مركز ترميم وصيانة اللوحات.. ويحتفظ الطابق الاول بكثير من آثار محمود خليل، اثاث ومقاعد وبيانو، فى نفس اماكنها..

المراجع والمصادر:
١- « الثقافة ضوء يسطع على وجه الوطن » كتاب وزارة الثقافة ١٩٨٧ - ١٩٩٧
٢- سجل الثقافة ٢٠٠١، السجل الثقافى لوزارة الثقافة
٣- محمد صدقى الجباخنجى: فنان محمد محمود خليل الفنية، المركز القومى للفنون التشكيلية، القاهرة، ١٩٩٥

متحف مختار.. ونهضة مصر

«إن سر الفن فى الحب، ومن لا يهب حياته لفنه، يجب أن يتخلى عن رسالة بعث الحياة فى الحجر..».

تلك كانت وصية الفنان الفرنسى الشهير «بورديل» الى فنان مصر العبقرى «محمود مختار».. الذى وضع حجر الأساس لفن النحت فى مصر الحديثة، بعدما نهل من الابداع الحضارى للانسان المصرى القديم: أرقى القيم الفنية.

ولد مختار فى ١٠ مايو سنة ١٨٩١، بقرية «طنباره» التابعة لمركز المحلة الكبرى، وكان والده الشيخ «ابراهيم العيسوى» عمدة لهذه القرية، ثم رحل الى قرية «نشا» احدى قرى المنصورة، ليصنع بأحلام الطفولة تماثيل طينية على شاطىء الترعة!

ويرحل مختار الى القاهرة عام ١٩٠٢، ويقيم فى حى «درب الجماميز» تحوطه روائع القاهرة الاسلامية وفنونها، واندمج فى هذه البيئة الشعبية، مغموسا فى روح الحارة وتقاليدها.

فى عام ١٩٠٨، أسس الأمير «يوسف كمال» مدرسة الفنون الجميلة بدرب الجماميز، ويدرك مختار أنها طريق حياته ومستقبله، كما يدرك أساتذته أنهم ازاء موهبة فذة، فأحاطوه بتشجيعهم ورعايتهم.

وتحلق روحه فى أجواء من الاحلام والخيال، نسجها أساتذته وهم يروون قصص الفنانين، ونوع الحياة التى يعيشونها فى «مونمارتر» و«مونبارناس» والحى اللاتينى، وما تزخر به متاحف الفن فى باريس من روائع، فبعث به الأمير يوسف كمال الى كلية الفنون الجميلة بباريس عام ١٩١١، فكان ترتيبه الأول فى مسابقة القبول، وفى عام ١٩١٣، شارك بتمثال «عايدة» فى معرض «صالون الفن» ليصبح أول أثر فنى مصرى يعرض فى المعارض الخارجية.

وفى تلك السنة ١٩١٣، يطلب اليه العودة الى مصر، ليتولى منصب مدير مدرسة الفنون الجميلة، خلفا لأستاذه «لابلانى» فيرفض ما يقيد طموحاته، بالرغم من أنه قبل منصب مدير متحف «جريفين» بباريس، خلال الحرب العالمية الأولى، ولكن عندما بدأت فكرة تمثال «نهضة مصر» تسيطر على كل أحاسيسه، يترك هذا المنصب طواعية.

فى عام ١٩٢٠، عرض مختار نموذجا مصغرا لتمثال نهضة مصر، فى معرض صالون الفنانين الفرنسيين، فينال عنه شهادة تقدير، وتشاء الأقدار أن يزور باريس أعضاء «الوفد المصرى» برئاسة الزعيم سعد زغلول، الذى لبى دعوة مختار لزيارة مرسمه الخاص، وينال هذا التمثال من الزعيم كل اعجابه، فيطلب منه أن ينفذه مكبرا ليقام بأحد الميادين بالقاهرة، تذكارا خالدا للثورة والبعث الجديد، ورمزا لنهضة مصر بالشعب، وليس بالحكام، ويتولى «أمين بك الرافعى» مشروع اكتتاب لاقامة التمثال، وسط حماسة شعبية رائعة، اكتسحت مقاومة



محمود مختار

عرفه عبده على

بعض رجال الحكومة، وتقتحم الارادة العقبات التى أقيمت فى سبيله، ويزاح عنه الستار عام ١٩٢٨، فى موقعه القديم بميدان باب الحديد.

فى أول يونيو سنة ١٩٢٩، يبرق مراسل «الأهرام» بخبر عن معرض الفن الذى أقيم فى «Grand Palais».. مشيرا الى أن «الأستاذ» محمود مختار - المثال المشهور - عرض تمثالا من بدائع الفن يمثل «عروس النيل» لفت اليه نظر كل من زاروا المعرض، وكان موضع اعجاب كبار رجال الفن، فمنحوه الميدالية، من بين أكثر من ثمانمائة عارض من جميع الجنسيات»!

وقد اقتنت الحكومة الفرنسية تمثال «عروس النيل» ووضعته بمتحف الفن الحديث بحديقة التويلرى عام ١٩٣٩، بجانب أعمال «رودان» و«بورديل» و«مايول»..

فى عام ١٩٢٨، عهد «على الشمسى باشا» وزير المعارف، الى محمود مختار، بإعادة تنظيم مدرسة الفنون، تحت اسمها الجديد «مدرسة الفنون الجميلة العليا».. واليه يرجع الفضل فى ايجاد جهاز مختص بالفنون الجميلة بالدولة، وتخصيص اعتمادات فى الميزانية لارسال البعثات الرسمية فى الفن، وانشاء الجمعيات الفنية، واقامة المعارض الدورية، وانشاء المتاحف، وقبل كل هذا، كان حريصا على أن يوفر للفنان المصرى، جوا من الحرية، يتيح له التعبير بشجاعة عن فنه ورأيه، دون أن يخضع لقيد أو سلطان!

فى عام ١٩٥٥، نقل تمثال «نهضة مصر» الى موضعه الحالى، أمام كوبرى الجامعة، عند بداية الطريق الجميل المؤدى الى جامعة القاهرة، والذى يفصل بين حدائق الأورمان وحديقة الحيوان.. شامخا يستقبل شروق الشمس، مجسدا فلاحة - ترمز لمصر - تكشف وجهها ذى الملامح الفعالة، يدها اليمنى على راس ابى الهول، تستشرف آفاق المستقبل!.. وقد جسد فيه مختار عظمة مصر، فى ابداع مصرى خالص، استوعب اروع الحضارات التى اينعت واثمرت على أرض بلادنا.

ومن اشهر اعمال مختار: تمثالا سعد زغلول بالقاهرة والاسكندرية، ويضم متحفه بحديقة الحرية، أمام الأوبرا الجديدة، والذى شيد عام ١٩٦٢، اثنان وستون تمثالا، من ابداعاته، فتنوع خاماتها بين البرونز والرخام والجبس الملون والجرانيت والحجر والنحاس، ومن أشهر هذه المقتنيات: «ايزيس».. «حاملة الجرة». «ملكة سبأ».. «على ضفاف النيل».. «العودة من السوق».. «العودة من النهر».. «عند لقاء رجل».. «عروس النيل».. «مفاجأة».. «الأمومة».. «شيخ البشاريين».. «بائعة الجبن».. «شيخ البلد».. «حارس الحقول».. «نحو الحبيب».. «فى وادى الملوك»..

وتضم قاعة «التذكارات» بالمتحف: بورتريه لمختار، وبالطو أبيض وآخر أسود، كان يستخدمهما اثناء عمله، بورتريه بالطربوش، بالألوان، فوق فوتيل قديم، علبة تحتوى الطابع التذكارى والعملة الفضية التذكارية فئة الخمسة جنيهات، بمناسبة مرور نصف قرن على رحيله، فى ٢٧ مارس سنة ١٩٣٤، خطبة مصطفى عبدالرازق فى حفل تأبين مختار، نقلا عن جريدة الجهاد فى ٢٢ ابريل ١٩٣٤، أدوات النحت الخاصة، خطاب الشكر الذى وجهته السيدة هدى شعراوى الى والدته السيدة «نبوية هانم البدراوى» وخطاب آخر الى شقيقته «حفيظة هانم العيسوى» بمناسبة تنازلهما عن مقتنياتهما من أعمال مختار الى الأمة، فى ٢٢ يونيو ١٩٣٥، صور لبيت مختار، صور لمرسمه بشارع الانتكخانة، الباسبور الخاص، صورة لتمثال عروس النيل فى متحف «جى دى بوم» أعداد من مجلة الفن المعاصر الفرنسية تتحدث عن مختار و أعماله، غلاف مجلة «اللطائف المصورة» فى ١٧ يناير ١٩٢٧، ويتضمن صورا لسعد باشا، الذى دعاه مختار لمشاهدة تمثال نهضة مصر، بميدان المحطة، فى ٩ يناير ١٩٢٧، ومعه ويصا واصف، عبدالرحمن عزام بك، حسين رشدى باشا، د. نجيب اسكندر، وصور أخرى لسعد باشا وتمثال نهضة مصر، أثناء عملية تركيبه وقبل ازاحة الستار عنه، وشهادة التقدير التى حصل عليها فى معرض باريس ١٩٢٠، صور لأول معرض أقيم لخريجى مدرسة الفنون سنة ١٩١١، وصور لمختار فى مرسمه بمدرسة الفنون، وأخرى لمرسمه فى باريس..

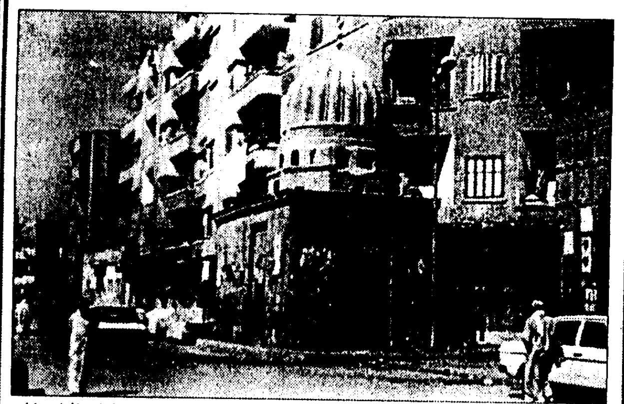
وبعد.. تحية عرفان واجلال الى العبقرى «مختار» الذى عشق مصر بصدق، وعاش احلام شعبه، فارتقى بقصائده المنحوته قمة الفن فى عصره، وستظل ابداعاته تشيع شذى متجددا بعطر الخالدين!

المراجع:

١- مجلة «فنون» جمعية محبى الفنون الجميلة، القاهرة، ١٩٣٢
٢- متحف المثال محمود مختار، المركز القومى للفنون التشكيلية، القاهرة، ١٩٥٣

من عظماء القاهرة

على باشا مبارك فى شارع الحلمية



فى موقع هذه المبانى الملاصقة لقبة الأمير سنجر المظفر بشارع الحلمية كان البيت الكبير لعلى باشا مبارك.

عرفه عبده على

فى هذا المكان الذى يعرف زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون (١٢٩٨- ١٣٠٩م) ب «دار البقر التى برسم السواقى السلطانية» الملاصق لقبة الأمير سنجر المظفر (أثر رقم ٢٦١ /سنة١٣٢٢م)بشارع الحلمية بالقلعة .. كان البيت الكبير لعلى باشا مبارك : أحد رواد نهضة مصر الحديثة «أبو التعليم».. رجل الفكر والعمل ،الذى اضطلع بدور هام فى عمارة الأرض وبناء الانسان مع بداية مشروع تحديث الدولة، فتلازمت جهوده فى اقامة البناء المادى مع الاهتمام بعقل الأمة ووجدانها ..

ولد على باشا مبارك عام ١٨٢٣ بقرية «برنبال» بالدقهلية ،تلقى تعليمه الاساسى فى كتاب القرية ،ثم انتقل إلى القاهرة ،ليكمل تعليمه الثانوى بمدرسة قصر العينى ، فى الوقت الذى كان برنامج محمد على باشا التعليمى فى أوج انطلاقه ، وابدى على مبارك تفوقاً فى دراسته ،فالحق عام ١٨٣٩ بمدرسة المهندسخانه تحت إدارة العالم «محمود بك الفلكى» .. وفى عام ١٨٤٤ اختير عضواً بالبعثة المصرية الثالثة إلى فرنسا ،لتعلم الفنون الحربية بالمدرسة الخاصة التى انشأها محمد على باشا وعرفت باسم «المدرسة المصرية الحربية» بباريس ، وضمت هذه البعثة سبعين طالباً انتخبهم «سليمان باشا الفرنساوى» رئيس أركان الجيش المصرى ، وكان من بين أعضاء هذه البعثة نجلا الباشا الكبير : الأميران حسين بك وحليم بك ، ومن أحفاده:الأميران أحمد بك واسماعيل بك (خديو مصر فيما بعد)

ودرس على مبارك بمدرسة باريس لمدة ثلاث سنوات ، ثم إلتحق بمدرسة «متز» سنة ١٨٤٧ لمدة عامين ، وألحق بآلايات الجيش الفرنسى فى بداية عام ١٨٤٩ وكتب «.. عندى من الشوق الى معرفة أحوال هذه المدينة العظيمة - باريس - والوقوف على أحوال أهلها، والتعرف على آثارها الباهرة وصنائعها الزاهرة، ما تشتد به الحاجة الى استطلاع اخبارها، وغاية مرادى أن اقضى هذه المدة فى استفادة ما ينفع وطنى».

فى عهد عباس الأول، تولى وظيفة مراقب امتحانات الهندسة.. ووضع مشروعا للتعليم المصرى بأقل التكاليف، فعين ناظرا لـ«ديوان المدارس».. ومع اعتلاء سعيد باشا للعرش عام ١٨٥٤، ارسله الى القرم مع الجيش المصرى لأكثر من عامين، وعقب عودته، شغل عدة وظائف فى نظارة الجهادية ثم الداخلية وغرفة التجارة..

وبتولى اسماعيل باشا عرش مصر ١٨٦٣، صعد نجم على مبارك، وأصبح : منسق السياسة الحضارية للخديو، وحلمه الكبير بتأسيس دولة عصرية تمتد من الاسكندرية الى الخرطوم .. وشغل وظيفة «مهندس معية سنية» وفى شتاء عام ١٨٦٧، أتيحت له فرصة السفر الى باريس فى مهمة رسمية ،فقضى عدة أسابيع فى دراسة النظم الفرنسية فى مجالات التعليم والتخطيط العمرانى والمكتبات والادارة:

وعقب عودته، أصبح مسئولا عن نظارة الأشغال العمومية ،الى جانب نظارة المعارف وديوان الأوقاف ،وادارة القناطر الخيرية، والسكك الحديدية .بالاضافة الى مسئوليته عن مشروع اعادة تخطيط القاهرة ووضع تقسيم ادارى جديد لها ..

واسس على باشا مبارك: دار الكتب الخديوية (الكتبخانة) ودار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى وجريدة «روضة المدارس» ووضع سفره العظيم «الخطط التوفيقية» التى بعث فيها من جديد نهج «المقريزى» فى خططه، فوصل حاضر الخطط بماضيها واظهر مقدرة فائقة على تحقيق المعالم والمواقع.. وأى مشروع من هذه المشاريع العظيمة كانت تكفيه حياة الرجل، فاذا به يجمع كل ذلك فى حياته!

كانت طاقات على باشا مبارك لاتعرف حدودا، ونجده فى كل أعماله ساعيا الى ترقية البسطاء من الشعب، مسهما فى يقظة الفكر ونشر التعليم، محاولا رد بعض حق الوطن عليه، مؤمنا بأن تعليم شباب مصر هو افضل خدمة للوطن، فيقول: «الوطنى الحقيقى هو من قصد فى المقام الأول الى نشر المعرفة بين بنى قومه و.. انى لمعترف بفضل هذا الوطن العزيز، فقد نشأت فى ظله وتقلبت فى مهده وتربيت فى حجر كفالته وتعهده، حتى صرت من أبنائه المعدودين ورجاله المعروفين، وتمتعت صغيرا وكبيرا بكثير من خيراته، لم اقم بعشر معشار ما على من واجباته وحقوقه، ولم يمنعنى هذا من ان أخدم وطنى بكل ما نالته بى وبلغ امكانى مما اراه يعود عليه بالفائدة والنفع كالسعى فى استكثار المكاتب والمدارس وتعميم التربية والتعليم ونشر الكتب المفيدة».

وتجدر الاشارة الى ان هذا البيت، قد شهد الاجتماعات الأولى لزعماء الثورة العرابية، وعلى راسهم أحمد عرابى، كما كانت «مندرة» البيت صالونا أدبيا استقطب نجوم المجتمع - فى ذلك العصر - فى السياسة والأدب والتعليم...

وكان لعلى باشا مبارك. بيت آخر، فى نقطة التقاء شارع مجلس الشعب بشارع الخليج.. كما اشار الباحث الفرنسى «جان لوك أرنو» فى دراسة غير منشورة، الى ان على باشا مبارك كان يملك فيللا تحيط بها حديقة شاسعة فى موقع العقار رقم ٢شارع سليمان باشا (طلعت حرب حاليا).

المراجع :
١- على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ، الجزء العاشر
٢- عرفه عبده على : القاهرة فى عصر إسماعيل ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٩٩٨
٣- محمد عمارة : على مبارك - مؤرخ ومهندس العمران ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٨

محمد مظهر باشا.. المهندس الفيلسوف!



فيلسوف الهندسة العبقرية الذى شيد فنار الاسكندرية وشارك فى بناء القناطر الخيرية، والذى لم ينصفه التاريخ ربما لأنه كان مهندسا يعمل ولا يتكلم أو يكتب مثل العملاق رفاعة الطهطاوى الذى كان أديبا ومترجما ورائدا للمنظومة الثقافية المصرى الحديثة التحق «مظهر افندى» بمدرسة بوربون الملكية بباريس- College- Royal de Bourbon ثم انتخب عضوا بالبعثة العلمية الثالثة الى فرنسا «بعثة رفاعة الطهطاوى» فى مارس عام ١٨٢٦، واستمرت هذه البعثة ثمانية أعوام وتسعة أشهر، وتلقى مظهر علومه بمدرسة الهندسة الحربية ثم مدرسة القناطر والتنظيم بباريس.

وكان «جومار» احد علماء حملة نابليون هو المسئول عن البعثة المصرية فى باريس، وأشاد كثيرا بعبقرية ونبوغ محمد مظهر فى العلوم الرياضية، وحصل بالفعل على الجائزة الاولى فى علمى الجبر والهندسة، وقد طلب جومار من كل طالب مصرى ان يكتب بالفرنسية خطابا الى صديق له يصف فيه باريس، فكتب مظهر:

«عندما نزلت فى مارسيليا، شاهدت مناظر لم أرها من قبل، أولها جمال المبانى وعلوها الشاهق ثم الشوارع المرصوفة واتساعها واستقامتها، ثم أنى سمعت جلبة ورأيت عربات تجرها الجياد- منظر مدهش أراه لاول مرة فى حياتي- عندما وقع بصري علي سيدات فرنسيات سافرات بأزيائهن الجميلة في الشوارع والميادين والمتنزهات الأمر الذى تأباه تقاليدنا وشرائع بلادنا! وعندما وصلت باريس، شاهدت بساتين تسر الناظرين، وادخلونى الى قاعات عظيمة الاتساع، ورأيت فيها لوحات جميلة لامهر المصورين الفرنسيين، وشاهدت ما أبدعته أيدى الفنانين، وكثيرا ما ذهبت الى المسارح التى لايمكنك أن تفهم طبيعتها إلا اذا شاهدتها بعينيك»!

وكان محمد مظهر من أنبغ تلاميذ الفيلسوف الفرنسى «أوجست كونت» واستمرت علاقتهما ما بين عامى ١٨٢٦و ١٨٤٣، ووصفه كونت بأنه: شخصية فريدة و«طليعة الشرق».. وكان مظهر قد عاد لزيارة باريس عام ١٨٤٢، ثم زار لندن وتعرف بالفيلسوف البريطاني «جون ستيوارت ميل» الذي شهد له بالذكاء والاستقلال الفكرى. واعتنق مظهر أفكار السان سيمونية، التى كانت أنشط حركة فى الساحة الثقافية الفرنسية، وكان كونت نفسه سكرتيرا لسان سيمون.. وعمل مظهر فى مدرسة المهندسخانة عقب عودته من البعثة تحت نظارة «شارل لامبير» وعملا معا فى عدة لجان للتعليم والهندسة.. الى أن عين مظهر ناظرا لمدرسة الطوبجية «المدفعية» بطره، بعد ان أنعم عليه برتبة الامير الاى بالجيش المصرى.. وشارك «موجيل بك» فى تصميم وتنفيذ مشروع القناطر الخيرية.. ونال «الباشوية» وتولى نظارة ديوان الاشغال العمومية «وزارة الاشغال» فى عهد الخديو سعيد وبداية عهد الخديو اسماعيل، وتوفى عام ١٨٧٣. وقد عاش محمد مظهر باشا بمنطقة باب الوزير- العامرة بآثار مصر المملوكية - فى البيت الملاصق لجامع ومدرسة أم السلطان شعبان «اثررقم ١٢٥» فى العطفة التى عرفت فى زمن على باشا مبارك بحارة مظهر باشا، وتعرف الآن بعطفة الكاشف، وأطلق اسمه على شارع رئيسى يمتد من نهاية شارع البرازيل الى نهاية شارع ابى الفداء بجزيرة الزمالك.

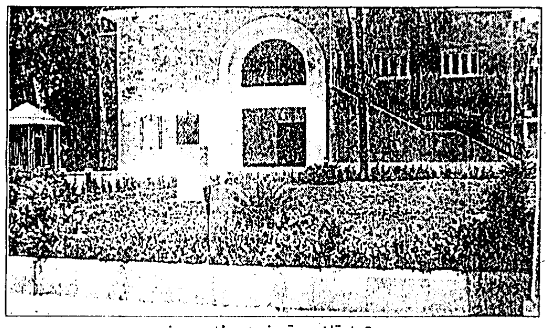
عرفه عبده على

المراجع :
١- أمين سامى : تقويم النيل
٢- عمر طوسون (الأمير) : البعثات فى عهد محمد على باشا
٣- أحمد عزت عبد الكريم : التعليم فى عهد محمد على

ذاكرة القاهرة

«ذاكرة التاريخ» .. كتاب جديد للباحث عرفة عبده على يصدر قريبا ويتناول الشوارع المهمة فى تاريخ المدينة وتلك التى ارتبطت بأدبائها الكبار ننشر فى حلقات صفحات منه.

العميد .. من السكاكينى الى رامتان!



● رامتان .. متحف د. طه حسين

عرفه عبده على

د. طه حسين، العميد، أشهر أقطاب منظومة الثقافة المصرية الحديثة، ابن الأزهر، وأول من حصل على درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية، التى تأسست عام ١٩٠٨ بدعوة من رواد التنوير «الحقيقيين» وبدعم من بعض أمراء وأميرات أسرة محمد على باشا والأعيان.

اجتمعت فى شخصية العميد «صورة عصره».. ولم يجتمع لكاتب أو أديب أو مفكر فى عصرنا مثل هذ الفوارق والمتناقضات مثلما اجتمعت لطه حسين: البيئة الريفية البسيطة المضطربة، حياته فى الأزهر وعلاقته بشيوخه والبسطاء، والباعة الجائلين والمجاورين وأصحاب الدكاكين.. ثم المعرفة الذواقة لأدب اليونان والأدب الفرنسى والفكر الأوروبى عامة. فكانت حياته الخاصة جهادا والعامة نضالا، حتى أصبح امتداد لتراثنا الثقافى والتجديد الحىّ له، وهو الذى جعل من التغيير الثقافى وتجديد المناخ الفكرى: رسالة حياته، تولى وزارة المعارف سنة ١٩٥٠، وتمكن من تعميم مجانية التعليم، وبفضله استطاع السواد الاعظم من ابناء عامة الشعب استكمال تعليمهم والالتحاق بالجامعة

وعقب عودته من فرنسا بصحبة قرينته «سوزان» أقاما لفترة بحى «السكاكينى» فى طابق أرضى واسع ومضىء، تميز بوجود حديقة صغيرة، وكان هذا - الشرط الوحيد - لسوزان فى كل الأماكن التى سكنوا بها «لكن الحى لم يكن كثير التحضر فكان الجيران يلقون بالمهملات فى حديقتهم!».. ثم انتقلوا للاقامة بشارع «الحوياتى» بالقرب من قصر النيل.. ومنذ عام ١٩٢٥، تنقلوا بين عدة أماكن بحى «مصر الجديدة» شارع سعيد، وشارع المنيا، وشارع الساكركير (القلب المقدس) ثم الى دار أطلق عليها طه حسين اسم «الزهرة» بشارع عباس (الملكة نازلى - رمسيس) قالت عنها حرمه: «لقد احبها جدا، كانت دارا جميلة تقوم وسط حديقة، عبارة عن طابق واحد وشرفة مرتفعة، على اليسار صالون كبير وهو فى الوسط والى اليمين مكتب صغير، اقمنا فيه لمدة ست سنوات، كان يحلو لطه ان يسميها: السنوات الضاحكة»!

فى محنة مارس ١٩٣٢، كان العميد قد انتقل الى مصر الجديدة مرة أخرى، للاقامة فى بيت من البيوت المخصصة للموظفين، تقول سوزان «والحق اننا طردنا منه بالمعنى الدقيق للكلمة، بيد ان شركة هليوبوليس تفضلت وأجرتنا فيلا جميلة لا يفصلها عن البيت السابق غير الحدائق فقط» هذا البيت شهد أول لقاء للراحلة د. سهير القلماوى بأستاذها د. طه حسين، الذى حول مسار حياتها بالكامل.

ثم انتقل العميد بأسرته ولمدة عشرين عاما الى شارع سكوت مونكريف (شارع د. طه حسين حاليا) بالزمالك، فى بيت ملاصق لمبنى كلية الفنون الجميلة، كان فى نظر العميد «البيت الكامل».. فى عام ١٩٣٩، ونظرا لحاجة العميد الى مناخ جاف، استأجر بيتا شيدته بعثة امريكية للتنقيب عن الآثار بقرية «ميت رهينة»، كان بيتا بسيطا مشيدا على ربوة، وفى سفحها كان يتمدد تمثال رمسيس الثانى الضخم.

كان من أخلص الأصدقاء المقربين للعميد، الذين ترددوا عليه فى البيوت التى أقام بها، عدد من كبار المستشرقين والعلماء: ماسينيون، الأب قنواتى، الأب جوميه، جورج ديهامل، جريجوار، دريتون، سكايف.. والشيخ المرصفى، واستاذ الجيل لطفى السيد، توفيق الحكيم، واصف باشا غالى، ال عبدالرازق: حسن باشا عبدالرازق وعلى عبدالرازق والشيخ مصطفى عبدالرازق، وهدى هانم شعراوى..



● طه حسين

اما عن فيللا «رامتان» الشهيرة، فتقول سوزان: «حلم قديم لم نستطع تحقيقه الا فى عام ١٩٥٦، عندما كان لطه من العمر ستة وستين عاما، كانت كلية الفنون الجميلة تطالب ببيت الزمالك لتجعله ملحقا لها، فقررنا بناء فيلا تضم شقة يسكن فيها مؤنس وليلى، وكنا نريد حديقة كبيرة، وكان ذلك مستحيلا فى الزمالك، فاتجهنا نحو طريق الأهرام، على درب صغير متفرع من الطريق الرئيسى، ارض محاطة بأشجار الجازوارينا، كان المكان ساحرا انذاك».

وعندما اكتمل البناء، عهدت الأسرة الى العميد باختيار اسم للفيللا الجديدة فكان «رامتان» أى الخيمتان، وصممت الحديقة الواسعة الرائعة دون شجيرات او عوائق تعترض خطوات العميد، الذى كان يحب ان يسمع فى أرجائها أحب الأصوات اليه: صوت الكروان وعقب رحيل العميد عام ١٩٧٣، تحولت رامتان الى مزار ومتحف، يحوى بعضا من آثاره ومكتبته الخاصه.

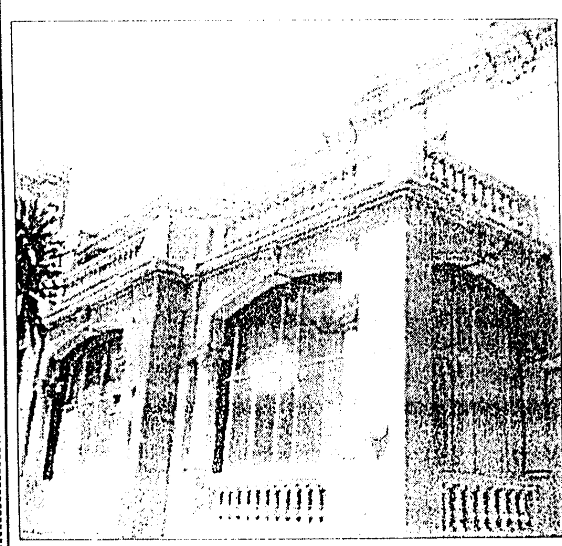
في بيت عوطة ، بالقرب من الأزهر الشريف ، أقام طه حسين للمرة الأولى بالقاهرة عندما كان مجاوراً بالأزهر

المراجع :
١- سوزان طه حسين : أيام معه
٢- عبد العزيز صادق : زيارة إلى الماضي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٣
٣- كامل زهيري : طه حسين - رجل ومعجزة ، عدد خاص عن «طه حسين» مجلة الهلال ، فبراير ١٩٦٦

ذاكرة القاهرة

«ذاكرة التاريخ».. كتاب جديد للباحث عرفة عبده على يصدر قريبا ويتناول الشوارع المهمة فى تاريخ المدينة وتلك التى ارتبطت بأدبائها الكبار ننشر فى حلقات صفحات منه.

قصر أمير الشعر



● قصر احمد شوقى امير الشعراء

عرفه عبده على

ولد احمد شوقى «امير الشعر» بقصر المسافر خانه - بين اسرة الخديو اسماعيل - عام ١٨٦٩ وهو العام الذى شهد ذروة المشروع الحضارى للخديو: تحديث القاهرة وافتتاح قناة السويس ودار الاوبرا.. التحق شوقى بكتاب الشيخ صالح ثم مدرسة المبتديان، ودرس القانون، وسافر الى باريس لاستكمال دراسته للقانون والاطلاع على الثقافة الاوروبية وعاد عام ١٨٩٣، ثم التحق بديوان الخديو عباس حلمى الثانى.

نشر شعر شوقى للمرة الأولى فى «الشوقيات».. وتأثر شوقى بحركات التجديد فى الشعر الفرنسى، وهاجمه كثير من النقاد والادباء ومع ذلك بايعوه اميرا للقوافى!

واذا كان شوقى قد بدأ شاعرا فى البلاط الخديوى إلا ان حنينه وانتماءه كان دائما للوطن والشعب، ولم تغفر له سلطات الاحتلال ذلك، وعندما فرضت الحماية على مصر خلال الحرب العالمية الاولى، كان شوقى على رأس قائمة المعتقلين ثم تقرر نفيه الى اسبانيا، وكتب اجمل قصائد الحنين الى الوطن.. عاد شوقى ليعيش ثورة ١٩١٩ التى تفجرت كالطوفان، واصبحت قضية مصر هى قصيدته ووحيه الاكبر.

وبيت احمد شوقى على ضفاف النيل، أطلق عليه «كرمة ابن هانى،» نسبة للشاعر الشهير ابى نواس الذى كان شوقى شديد الاعجاب بشعره.. وشهد صالون الاستقبال نجوم المجتمع فى السياسة والأدب والفن والصحافة. وفى هذا القصر وحديقته ابدع شوقى اروع اعماله. وكان ابناؤه قد باعوا هذا القصر، غير ان الرئيس السادات - عام ١٩٧٢ - أصدر قرارا بنزع ملكيته وتحويله الى متحف لأمير الشعراء، وتسلمت وزارة الثقافة المبنى فى ٣ مايو ١٩٧٢، وافتتح فى ١٧ يونيو ١٩٧٧.

والطابق الاول يحتوى جناح الضيافة، الذى شغل حجرة منه «عش البلبل» الموسيقار محمد عبدالوهاب لفترة طويلة، وكان صديقا اثيرا لشوقى بك، بجوارها مكتب الشاعر ثم قاعة الاستقبال، يقابلها غرفة الطعام وغرفة أخرى

والطابق الثانى يضم غرفة نوم شوقى ثم غرف للابناء وصالون خاص. وبالحديقة تمثال لشوقى من الجص المحلى باللون الذهبى، وشملت محتويات القصر عند تسليمه ٢٩٦ قطعة من المقتنيات: قطع اثاث ارابيسك وستيل، وتماثيل وصور نادرة وثريات ارابيسك ونحاس، ومجموعة لوحات زيتية، ومكتبة تضم أعماله ومخطوطاته وكل ماكتب عنه ومؤلفات فى الشعر والسياسة والفن، ومكتبة موسيقية تضم تراث عبدالوهاب.

ويقول كاتبنا الكبير «كامل زهيرى»: «أذكر ان كرمة بن هانى ، كانت فى غاية الذوق الهادى». تمزج بين المعمار الاندلسى الرقيق المطعم بنكهة فرنسية، وكان مكتبه من طراز الامبراطورية على عهد نابليون الثالث، وكان يفضل الكتابة فى غرفة نومه الصغيرة، يحتلها سرير نحاسى كبير ومكتبتان صغيرتان والغرفة غربية بعيدة عن الضوء، تطل على حديقة غناء... ومنها كان يرى النيل والقلعة والاهرام ، وفيها يقرأ وينام ويحلم مع فحول الشعر العربى الرصين»!.

تحوى الأوسمة والنياشين وملابس التشريفة وبعض الهدايا

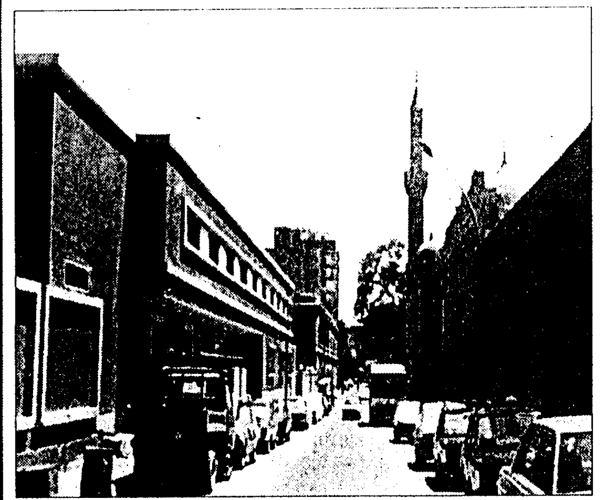
والتى لاتزال تحتفظ بنفس ملامح وورق الحائط الذى يعود لأكثر من ثمانين عاماً ، السرير النحاسى ذو الأعمدة ، المقاعد والدولاب والتسريحة والصور واللوحات ثم غرفة نوم قرينته «خديجة هانم شاهين» بنفس محتوياتها.

المراجع :

١- كامل زهيرى ، خديجة قاسم : فى كرمة إبن هانى، عدد خاص عن «أحمد شوقى» مجلة الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٦

٢- « الثقافة ضوء يسطع على وجه الوطن » كتاب وزارة الثقافة ١٩٨٧ - ١٩٩٧

مصطفى باشا عبد الرازق



في موقع مبنى محطة كهرباء عابدين الى اليسار أمام باب باريس كانت سراى آل عبد الرازق !

عرفة عبده على

أمام «باب باريس» اشهر ابواب سراية عابدين بشارع جامع عابدين ، كان قصر عائلة «عبد الرازق»..(في موقعه الآن محطة محولات كهرباء عابدين!) اشتهرت هذه العائلة في صعيد مصر باسم «أسرة القضاه» فقد تولى الجد الاكبر «عبد الرازق» قضاء البهنسا عام ١٧٩٧، وانتقل الجد «احمد عبد الرازق الى «ابو جرج» بمحافظة المنيا ليتولى القضاء بها في الثلاثينات من القرن الماضى .. وكان للاسرة قصر مهيب شرق ابو جرج، وكان العميد طه حسين واسرته ينزلون ضيوفا على آل عبد الرازق بهذا القصر.

وفي قصر آل عبد الرازق - خلف سراى عابدين - كانت الدعوة مفتوحة للجميع ، في جو من التقاليد العريقة لبيوت العائلات الكبيرة، وفي صالون هذه السراى ، وكان الشباب يلتقون بشيوخ الازهر وبخريجي جامعات اوروبا ، وتتباين الاراء والافكار ، دينية وفلسفية وسياسية واجتماعية ، واراء المحافظين تواجه اراء الاحرار .. وشهد صالون آل عبد الرازق نجوم المجتمع في السياسة والادب والصحافة، منهم : د. طه حسين د .احمد زكي ، احمد امين، د. محمد حسين هيكل ، فريد ابو حديد ، عبد الواحد خلاف ، محمود عزمي ، منصور فهمي ، احمد لطفي السيد.. وكان لهذا الصالون أثره في تطور الفكر المصرى الحديث.

ومصطفى باشا عبد الرازق .. هو الابن الرابع بين سبعة ابناء وبنتين للشيخ «حسن عبد الرازق » الذى اسس صحيفة «الجريدة» في هذه السراى ، وصدر العدد الاول منها ٩ مارس ١٩٠٧ ، والتى اصبحت لسان حال «حزب الامة» .. وفيها تأسست جريدة «السفور»التى كانت ملتقى صفوة الارستقراطية الفكرية، وفيها تأسس «الحزب الديمقراطى» في ١٠ سبتمبر ١٩١٩ ، واغتيل الشيخ حسن عبد الرازق في مدخل السراى في ١٦ نوفمبر ١٩٢٢.

التحق مصطفى عبد الرازق في السادسة من عمره بكتاب القرية، وفي سن الحادية عشرة التحق بالازهر الشريف، وتلقى عن الشيخ «محمد عبده» امام التجديد الفكرى الدينى ، ونال العالمية في ٢٥ يوليو ١٩٠٨، وعمل مدرسا بمدرسة القضاء الشرعى لمدة عام ، ثم سافر الى السوربون عام ١٩٠٩ ، ثم تحول الى جامعة «ليون» ليحاضر في اصول الشريعة الاسلامية، ويعود الى مصر بسبب ظروف الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤، بعد ان حصل على درجة الدكتوراه ، عن رسالة بعنوان :« الامام الشافعى اكبر مشرعى الاسلام ».. وترجم الى الفرنسية مع المستشرق الفرنسى:

برناد ميشيل«رسالة التوحيد» للامام محمد عبده ، وفي عام ١٩١٥ عين بالمجلس الاعلى للازهر ، ثم مفتشا بالمحاكم الشرعية عام ١٩٢٠ ، وفي عام ١٩٢٧ عين استاذا مساعدا للفلسفة الاسلامية بكلية الآداب جامعة فؤاد الاول (القاهرة ثم استاذ كرسى الفلسفة عام ١٩٣٥ .. ومن اهم مؤلفاته :«تمهيد تاريخ الفلسفة الاسلامية» و«فيلسوف العرب والمعلم الثانى » وهو اول من انشأ مادة الفلسفة الاسلامية ، وكشف عن نزعة ادبية في كتاباته واهتمام بالحياة الاجتماعية، وشارك في تأسيس «حزب الاحرار الدستوريين».. ومن المعروف ان شقيقه د. على عبد الرازق هو مؤلف الكتاب الذى اثار ضجة في ذلك العهد «الاسلام واصول الحكم» الذى ارادبه قطع الطريق على الملك فؤاد حين طمع في ان يكون خليفة للمسلمين !..

و.د مصطفى عبد الرازق هو اول شيخ ازهرى يتولى وزارة الاوقاف ، وتولاها سبع مرات خلال الفترة من ٢٤ يونيو ١٩٢٨ الى ٢٤ فبراير ١٩٤٥، ثم عين شيخا للجامع الازهر في ٢٧ ديسمبر ١٩٤٥ ، وتوفى سليل اسرة الوطنية والعلم ومكارم الاخلاق والشرف في ١٥ فبراير ١٩٤٧.

المراجع :

١- عثمان أمين : من آثار مصطفى عبد الرازق ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٧

رحلة صاحب القنديل..

عرفه عبده على

فى هذا الموقع، بحارة «باب الميضة» خلف مقام عقيلة بنى هاشم السيدة زينب - رضى الله عنها - كان البيت الذى ولد فيه اديبنا الجميل الراحل «يحيى حقى» صاحب القنديل والبوسطجى وام العواجز وصح النوم وخليها ع الله.. فيقول فى رائعته الخالدة: قنديل ام هاشم «هاجر جدى وهو شاب إلى القاهرة سعياً للرزق، فلا عجب ان اختار لإقامته اقرب المساكن لجامعه المحبب - السيدة زينب - وهكذا استقر بمنزل للأوقاف قديم يواجه ميضأة المسجد الخلفية، فى الحارة التى تسمى حارة الميضة، وفتح جدى متجراً للغلال فى الميدان، وهكذا عاشت الأسرة فى رحاب الست وفى حماها، اعياد الست اعيدانا ومواسمها مواسمنا ومؤذن المسجد ساعتنا».

وكان مولده فى السابع من يناير عام ١٩٠٥، نشأ فى اسرة متدينة مثقفة، فوالدته شديدة التدين، حريصة على قراءة القران وكتب الحديث والسيرة، وكان والده قارئاً لعيون الأدب العربى، وعمه محمود طاهر حقى كان كاتباً وأديبا..

حصل يحيى حقى على الابتدائية من مدرسة والدة عباس باشا عام ١٩١٧، ثم التحق بالمدرسة الالهامية الثانوية، ثم انتقل إلى المدرسة السعيدية فالخديوية حيث حصل منها على شهادة الثانوية عام ١٩٢١.

والتحق بمدرسة الحقوق العليا التى تخرج منها عام ١٩٢٥، ثم عمل سنتين وكيلا للنائب العام، ثم اشتغل بالمحاماة فى الاسكندرية ودمنهور، وفى اول يناير عام ١٩٢٧، تسلم عمله «معاونا للإدارة» بمركز منفلوط بمحافظة اسيوط لمدة عامين وصفهما بأنهما «أهم سنتين فى حياتى على الاطلاق»..

فى عام ١٩٢٩، عمل امينا للمحفوظات بالقنصلية المصرية بجدة، وفى العام التالى، نقل إلى استانبول، سكرتيرا ثالثا بالسفارة المصرية لمدة اربع سنوات: شهد خلالها تحول تركيا الاسلامية إلى دولة علمانية، فلم يتعاطف مع التجربة لمشاعره الدينية العميقة. التى اصطدمت بالغاء الخلافة، ثم انتقل إلى روما، وبقى بها خمس سنوات، اتصل خلالها بالحضارة الاوروبية، لكن تاريخ بلاده وحضارتها وإبداعها الانسانى وتجاربه وإنتماءاته الفكرية التى كونت شخصيته كانت عاصماً له فى الا يذوب فى الحضارة الجديدة.

يقول كاتبنا الكبير «كامل زهيرى» عن يحيى حقى:

«أحب من الادب ماقل ودل، ويحيى حقى من خبراء السبك، يحبك المبنى على المعنى ويسبك كلمته مع فكرته كسبائك الذهب... وهو افصح من كتبوا بالعامية، وقد حرص على ان يكون دائما فى ظل هادىء لأنه يكتب ويحلل، وهو قاهرى المزاج ولكنه اكتشف اغوار الصعيد»

كانت القاهرة معشوقته، التى لم تستطع عوادى الزمن وغابات الأسمنت بواجهاتها الصماء الخالية من الذوق والفن - كما قال اديبنا - «أن تمس طابعها الأصيل وجلالها المكنون، هبة لها من حضارة الشرق نفحة من سماته، لم تستطع الاسطح المتعالية يوما بعد يوم أن تحجب مآذنها، باقية هى ناجية بشممها وشموخها، ولا الضجة الهائلة التى إندلقت عليها، ان تخنق ضراعات هذه المآذن، يخشع لها القلب وتطرب الأذن عند مولد كل فجر، وجدران عتيقة يتراكم عليها التاريخ، اية فى فن العمارة، فى ذروة الصدق تصون داخلها امثلة رائعة للجمال تحكى فى

صمت قصة الاف من الفنانين بناة الحضارة، عملوا فى ورع وهم متطهرون ثم مضوا لايعرف اسماءهم احد ولايذكرهم أحد»!

وسما يحيى حقى بالفن والفكر وهو يعرض فى - صدق وعمق - نماذج من البيئة المصرية، فغاص فى موروث شعبى هائل، فى عالم زاخر بالطقوس والالوان: زيارة الأولياء واضرحة اهل البيت، الرايات والبيارق والبنود فى مواكب الصوفية، البهجة وصخب الزحام فى «أعياد مولد النبى ورؤية هلال رمضان وجبر الخليج وطلعه المحمل وعودته، وفنجرة شم النسيم، فرقة ابو الغيط ومواكب الطوائف فى جو من المرح.. أحياء المهن اليدوية لكل منها عطرها، هنا الاراجوز وخيال الظل والسفيرة عزيزة، الحواه والبهلوانات، المشى على الحبل او السلك. هنا كل بائع جوال، مطرب عبقرى، والنداء موروث من جدود الجدود، ما هو بتاجر بل شاعر يغازل بضاعته، فكيف اذا غازل حبيبته.. ربما كان أخيب!.. هنا البرقع الأسود والقصبة على الانف والملاية اللف تضم الصبا والدلال»!

وكتب يحيى حقى عن الواقع المرير فى قاع المجتمع، وكتب عن موقف الحمير وعربات سوارس، وبائعة الفجل «أمامها مشنة الفجل الورور والجرجير العال، بائعة محشى الكرنب والهباب يحيط بحلتها، بائع ترمس على عربة يد صفت عليها قلل قناوى زينت حلوقها بالورد والريحان، وبائع دبابيس وأبر بوابير جاز ومشابك غسيل، يقفز ببضاعته من ترام الى ترام عكس الإتجاه»!

وكتب عن ابن البلد «بكرمه ومروته، بلطفه وظرفه وخفة دمه، بنكاته وقفشاته، بذكائه وحضور بديهته، هو الذى رقق العامية على لسانه، واثراها بابدع مجاز واستعاره، ساخر وحكيم، تتحسبه غرا ولكنه «حويط» لاينطلى عليه الكذب والنفاق ودموع التماسيح»!

وكتب يحيى حقى اجمل مقالاته - على استحياء - فى جريدة التعاون!.. وكانت مجلة «المجلة» فى زوج ازدهارها عندما تولى رئاسة تحريرها فى الفترة من عام ١٩٦٢ الى ١٩٧٠، وتحت شعار «سجل الثقافة الرفيعة» قدم جيلا من الأدباء والنقاد..

وقام أديبنا الكبير بتكليف الفنان والأديب «زكريا الحجاوى» ليقوم بمسح جغرافى لفنوننا الشعبية، ويجوب البلاد طولا وعرضا ليلتقط نماذج صادقة أصيلة، وسافر زكريا «ربما كانت ركوبته أياما كثيرة هى الحمار بلا سرج او بردعة، يشق مدقا متربا وسط اعواد صفر من الذرة الشامى او القصب.. تأرجح فوق الشراقى، وهبط جسرا وعلا جسرا حتى وصل الى هذا الخط الرهيب الذى يجتمع عنده اخر الخصب وأول الصحراء، ربما نام فى جرن او بجوار ساقية أو فى دوار عمدة أو تحت واحدة من القباب البيض المتناثرة فى الوادى لأولياء اكثرهم اسمه الشيخ «مبارك» يستمد منه الفلاحون اطمئنانهم بأن زرعهم تحل به البركة..! ربما أكل البتاو والمش والمرحرح والفطير المشلتت حين يفتح الله عليه».. كان هكذا يحب يحيى حقى أن يطيل فى وصف مشاق رحلة زكريا مشيدا بشهامته وفدائيته وهيامه بمعشوقته: مصر.. وقدم يحيى حقى مواهب من القرى والنجوع، من السواحل ومن الصحارى، من النوبة وصعيد مصر، وقدم فرقة رضا لتنطلق من القاهرة الى افاق العالمية.. وحققت الفنون الشعبية مكانة راقية جديرة بها فى الوجدان المصرى وفى تاريخ الفن حتى يومنا هذا، واصبحت لها معاهد فنية وقطاع كامل بوزارة الثقافة يتولى شئونها ومسارح خاصة بها.. كل ذلك كان غرس «يحيى حقى» إبن الشعب، العاشق له: تاريخا وفكرا وفنا!

المراجع :

١- يحيى حقى : خليها على الله ، كتاب الهلال ، العدد ٤٨١ ، يناير ١٩٩١

٢- « « : ياليل ياعين - سهرة مع الفنون الشعبية ، القاهرة ، ١٩٧٢

الحكيم.. فى شارع سلامه



● الى اليسار المنزل رقم ٣٥ بشارع سلامة الذى شهد صبا توفيق الحكيم وخلده فى رائعته « عودة الروح »

عرفة عبده على

فى هذا البيت (٣٥ شارع سلامة) بحى السيدة زينب: اكثر احياء القاهرة مصرية وشعبية عاش الاديب والمفكر «توفيق الحكيم» فترة خصبة من حياته، وهى الفترة التى خلدها فى رائعته «عودة الروح» والتى وقعت احداثها ما بين القاهرة والريف، فى الفترة التى سبقت ثورة ١٩١٩ وانتهت بانتهاء هذه الثورة. وكان الحكيم قد كتبها بالفرنسية عام ١٩٢٧ ثم اعاد كتابتها بالعربية وصدرت فى نهاية عام ١٩٣٣ عن مطبعة الرغائب بدرب الجماميز، وتعد طليعة الادب المصرى فى التأليف الروائى.

ولد «حسين توفيق» ابن اسماعيل بك الحكيم فى ٩ اكتوبر عام ١٨٩٨، فى منزل خالته بحى محرم بك بالاسكندرية، كان والده وكيلا لنيابة مركز السنطة، ووالدته «اسماء البسطامى» التى جرت فى عروقها دماء تركية، كانت تتمتع بروح الدعابة والبهجة والمرح، وتهوى القراءة والموسيقى وتستضيف فى الصيف بعض اهل الفن، الى جانب ما عرف عنها من قوة الشخصية والتأثير فيمن حولها. وكان لتنقل والده بين الاقاليم تبعا لحركة التنقلات القضائية فى كل عام، ما حرمه الانتظام فى مدرسة واحدة سنة دراسية كاملة، حتى استقر قاضيا بالقاهرة، فالحق ابنه - بعد ان جاوز العاشرة من عمره - بمدرسة «محمد على» الاميرية، بعد ان استأجر منزلا بشارع الخليج المصرى بحى السيدة زينب، وفى منتصف السنة الثانية، انتقل والده الى منزل اخر بالحلمية الجديدة، والحق بمدرسة المحمدية ثم بدأت مرحلة اخرى من التنقلات: قرية ابى مسعود بدمنهور، ثم الى مدينة دسوق، ومنها الى الاسكندرية فى هذه المرحلة تأثر الحكيم بفن تلاوة القرآن، وقد وهبه الله صوتا جميلا، فكان يحاول تقليد معلمه وكبار المقرئين، وتأثر بمشاهد الموالد ومواكب الصوفية، وجوق الشيخ سلامة حجازى وتحت الاسطى «حميده العالمه» التى تلقى عنها الغناء والعزف على العود.. وعندما كان الحكيم فى السنة الثانية الثانوية. لاحظ اعمامه ضعفه فى مادة الرياضيات فاقترحوا ان يحول الى مدرسة بالقاهرة فى العام التالى - عام التقدم الى شهادة الكفاءة - ١٩١٦ ويترك الحكيم الحياة الارستقراطية بكل مظاهرها فى العزبة والفيلا، ليعيش لاكثر من ثلاث سنوات مع اعمامه والخادم مبروك فى هذا البيت، كانت حياة جديدة وغريبة تخالف نمط التحفظ والقيود التى عاشها من قبل، فعاش هنا حياة بسيطة مشتركة فى كل شىء: فى النوم والطعام والمشاكل اليومية- وحتى فى المرض! وقد ترك الحى الشعبى الشهير بصماته على اسلوب حياتهم..

لم يكن فتانا يدرك انه سيلتقى فى هذا البيت: بأول تجربة عاطفية تزلزل قلبه ووجدانه «سنية» رائعة الجمال والسحر والانوثة بـ «جسدها اللين يجذب كل شباب الحى واولاد الجيران ورجالة الحتة»!.. وبعزفها «البشارف القديمة بأناملها الرقيقة على البيانو، فتتهادى نغماتها شجية صاعدة من الطابق الاسفل الى اذنيه، كانت شقة اعمامه عبارة عن ثلاث حجرات وردهة صغيرة: تستخدم واحدة للاستقبال، واخرى «عنبر فى ثكنة» كانت حجرة نوم للجميع، والردهة بها مائدة من الخشب الرخيص عليها غطاء من المشمع الردىء بالنهار يتناولون عليها طعامهم، وفى الليل تتحول الى سرير ينام عليها الخادم!.. والمنزل عموما «مطلوقة فيه الحرية للجميع» ولما كانت حياتهم مشتركة فقد اشتركوا ايضا فى حب «سنية»!..

وهى التى صرفت قلبها الى شخص آخر تماما «مصطفى»!.. ويلجأ الفتى الى السيدة زينب، ولم ينقذه من آثار فشله فى حبه سوى اندلاع ثورة ١٩١٩، ويقظة الشعور العام حركت روحه الوطنية فشارك مع اعمامه فى احداث الثورة، الى ان القى القبض عليهم واعتقلوا بسجن القلعة.

وينسب الشارع الى «الامير سلامه باشا» مهندس ديوان الاشغال العمومية فى نهاية القرن الماضى، وكانت له دار كبيرة وحديقة رائعة على راس شارع «درب البهلوان» بنفس المنطقة و«عودة الروح» هى بانوراما للحياة فى مجتمع القاهرة فى اوائل هذا القرن، جسد فيها توفيق الحكيم ملامح وابعاد السلوك اليومى وطبيعة العلاقات واللحظات الانسانية و.. مشاعر الحنين التى احس بها «محسن» وهو فى بلدته الى «حياة الشعب فى شارع سلامة»!

المراجع :
١- إسماعيل أدهم : توفيق الحكيم - الفنان الحائر ، منشورات مجلة الحديث ، حلب ، ١٩٣٩
٢- كمال الملاخ : الحكيم بخيلاً ، المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٣

أديبنا العالمى " نجيب محفوظ "

التزم أديبنا العالمى " نجيب محفوظ " فى كل ابداعه الأدبى بالكتابه عن مصر ، واختار مادته الأساسية من البيئة الشعبية بمدينة القاهرة ، هذة البيئة التى عاش فيها وأحبها وأخلص لها ، ومـــن خلالها استطاع ــ وبفهم عميق ــ أن يعبر عن وجهة نظرة الانسانية والتى جعلت منه أديباً عالمياً يمكن لأى انسان على وجه الكرة الأرضية أن يقرأ ابداعه وفنه .

كان واضحاً أن علاقة خاصه نشأت بين نجيب محفوظ ومدينته " القاهرة " بخصوصيتها المتميزة .. بتكوينها وملامحها وناسها .. وآلاف من الشخصيات القاهرية من أنماط الأجداد والآباء والأزواج والزوجات والاحفاد والأمهات والبنات .. ومن التجار والموظفين والحرفيين والضباط والفتوات والصعاليك والغـوازى والمتسولين والمشايخ والدراويش ، أولئك كانوا الينبوع الفياض لثقافة نجيب وابداعه.

و عالم نجيب محفوظ اضطربت فيه كائنات اجتماعية تنتمى الى قطاعات محددة المعالم فــى المكان والزمان ، فى حدود الطبقة الوسطى و فى حدود العقدين الثالث والرابع مـــن القرن الماضى حتى نهايته .. واستأثرت القاهرة بعالم نجيب محفوظ .. قاهرة الاحياء العريقة فى الحسينية والجمالية والعباسية ثـم القاهرة الحديثة ، وطوال رحلة ابداعه ، راح يتأمل الحياة فى مدينته ، يعرفها فى تفصيلاتها ويدركها فــى دلالاتها ويعيد ابداعها ، لم يكن نجيب محفوظ مؤرخاً أو عالـــم اجتماع أو نفس أو فلسفة ، ولكن ابداعاته تدل على حجم المعرفة : البصرية والمسموعه والمقروءة التى حصلها عن القاهرة وناسها وما حولها ، ثم والأهم هـو تفاعله مع معرفته وكيفية توظيفه لهـا .. لقد استوعب المعرفة مثلما استوعب كـــل ما يفيض به الواقع من حكايات وادراك أعماق هذا الواقع وبنائه وحركته .. قاهرة نجيب محفوظ بكل تاريخها وخصوصيتها الفريدة وبكل ما يتفاعل بها من ملامح الشرق القديم ومكوناته ، كان المجتمع المصرى يتطور مـــن حوله تطوراً حضارياً ، فكان يواكب المجتمع بتطور فنى مماثل ، ورصد مــــا يحدث فى المجتمع من تحول حضارى وخروج تدريجى عن أنماط الحياة القديمة ، كمـا كان فهمه العميق لطبيعة تلك البيئة الشعبية العتيقة ، إدراكاً

لأنها الأصلح للتعبير الفنى عن طبيعة المرحلة الحضارية التى كان يجتازها المجتمع آنذاك .

ونجيب محفوظ كروائى واقعى ، كان كل جهده منصرفاً الـــى رسم الواقع والانماط البشرية رسماً أميناً فى قالب فنى ، يبرز هـــذا الاتجاه فى كل ابداعه وعلى رأسه " الثلاثية " أشهر أعماله ، فأسرة السيد " أحمد عبدالجواد " من تلك الأسر الاسلامية التى تنتمى الى الطبقة البورجوازية الصغيرة وترتزق من التجارة ، وتقطن بالأحياء المتاخمة لمسجد سيدنا الامام الحسين بالقاهرة ، ويتناول حياة هذة الاسرة منذ عــام ١٩١٧ حتى عام ١٩٤٤ ، عارضا لنمط الحياة واضطراب الاقطار والسلوكيات وذلك التغير الذى شمل أسلوب الحياة فى الطبقات المتوسطة .

وأديبنا العالمى ولد فى الحادى عشر من ديسمبر سنة ١٩١١ فى حى الجمالية ، بشارع بيت القاضى ، خط بين القصرين ، ويقول شيخ مؤرخى الخطط " المقريزى " عن خط بين القصرين : " كـــان أعمر أخطاط القاهرة ، ثم فى أيام الدولة الايوبية صار هذا الموضع سوقاً ، وقعد فيه الباعه بأصناف المأكولات من اللحوم المتنوعه والحلاوات المصطنعه والفاكهة وغيرها ، فصار متنزها تمر فيه أعيان الناس وأماثلهم بالليل مشـــاة لرؤية ما هناك من السرج والقناديل الخارجه عن الحد فى الكثرة ، ولرؤية ما تشتهى الأنفس وتلـــذ الأعين .. وكانت تعقد فيه عدة حلق لقراءة السير والأخبار وانشاد الشعر والتفنن فى أنواع اللعب واللهو " ..

ويحدثنا على باشا مبارك فى خططه التوفيقية عن حارة " بيت القاضى " وقال انها تعرف أيضاً بـــ " حارة القبوة " .. بها عدد من دور كبار التجار ومفتى الضبطية ووكالـــة " خان اللونه ، بأعلاها مساكن وهى معده لبيع الدهانات " وبأول الحاره : قبر سيدى الاربعين ثم سبيل النحاسين الذى أنشأه " العزيز محمد على " ثـــم شارع بيت القاضى الجديد الذى فتح بعد سنه ١٩٢٠هـــ " وكان فـــى محل رأس هذا الشارع المدرسه الظاهرية التـــى أنشأها الملك الظاهر بيبرس البند قدارى سنة ٦٦٢هـــ ، فلما فتح هذا الشارع زالت هـــذة المدرسة !.. ثم القبة الصالحية وبلصقها المدرسة الصالحية .. وبهذا الشارع عدة دكاكين لبيع النحاس الجديد ، وينصب به سوق كل أسبوع مرتين ، يباع فيه النحاس القديم ، فمن أجل ذلك عرف بشارع النحاسين وفـــى الأزمان القديمة كان يعرف بخط بين القصرين " .

ومن هذا الحى استقر اسماء عدد من رواياته : " خان الخليلى " و " زقاق المدق " و " بين القصرين " و " قصر الشوق " و " السكرية " .. ومـــــن حى الجمالية انتقل الى حى " العباسية " الشرقية .. ثم الى حى العجوزة .. تخرج بقسم الفلسفة بكلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول (القاهرة) سنة ١٩٣٤ .. وأمضـــى حياه وظيفية هادئة حتى أحيل الى المعاش عام ١٩٧١ ، ومن بين الوظائف التى شغلها : سكرتيراً لمصطفى باشا عبدالرازق ـ أستاذه الأول ـ عندما أصبح وزيراً للأوقاف ، وفى عام ١٩٥٥ انتقل الـــى وزارة الارشاد القومى ثم الى وزارة الثقافة .. وابرز ملامح شخصيته كما اشار الناقد " رجاء النقاش " أنه : شديد الصبـــر ، بعيد عن أى طموح قائم على الخيالات والأوهام وتميز بصفاء الذهن وحسن تقديره للأمور وأنه " ابـــن بلد خفيف الظل حاضر النكته سريع البديهه .. وكان عاشقاً للغناء والطرب .. وعشق مصر ، كما لم يعشقها أحد من الأدباء قبله أو بعده ، لقد تغنى بأمجادها القديمة وصورها فى رواياته التاريخيه الأولى ، ثم انتقل الـــى تصوير همومها وتمزقاتها الفكرية والنفسية ، ولا يمكننا أبداً أن نفهم مصر وتاريخهـــا الحديث خلال القرن العشرين كلـــه ، الملىء بالأهوال والأحداث الكبرى .. دون أن نقرأ نجيب محفوظ .. انه يمنحنا مذاق مصر الحقيقى ويضع أيدينا على مفاتيح الشخصية المصرية ويدخل بنا الى خفايا الروح المصرية الأصيلة " .

المراجع :

ـ المقريزى : المواعظ والاعتبار فـــى ذكر الخطط والاثار ، تحقيق وتقديم د. ايمن فؤاد ، مؤسسة الفرقان للتراث الاسلامى ، لندن ، ١٩٩٥

ـ على باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ، الجزء الثانى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٢

ـ رجاء النقاش : فى حب نجيب محفوظ ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٥

ـ نجيب محفوظ ، نوبل ١٩٨٨ : كتاب تذكارى اصدرته وزارة الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٨

النهر

الخالد

وفاء النيل ..

قدس المصريون القدماء - نهر النيل - فاتخذوه الها تقام له الطقوس الدينية وتقدم له القرابين .. فقد كان النيل منبع ما بين ايديهم من خيرات وماق قلوبهم من امال .. كما كان موضع القوة الدافقة الواقفة - امام ابصارهم - القاهرة لمعظم ما يصادفهم من صعاب !

عرفة عبده على

لذا فقد درج المصريون - منذ أقدم الأزمنة - على تسجيل منسوب النيل على مدار السنة ، وعند فيضانه في فصل الصيف - كما يشير العالم البروفيسور رشدى سعيد - فقد كان في بلوغه الارتفاع المناسب لكى يغمر الأرض ، اهمية كبرى للزراعة ورخاء البلاد ، ولجمع الضرائب والخراج ، كما أن لقصوره عن الارتفاع إلى المستوى المناسب أوخم العواقب ، ولابقاع النيل طقوس ، كما أن قياس منسوبه ، أمر يسجل في السجلات الملكية ويعد من الوثائق الهامة للدولة .

ويضيف د . سعيد : ان تسجيل ارتفاع منسوب النيل - في عصر الدولة الحديثة في مصر الفرعونية وفي العصر البطلمى - كان يتم داخل المعابد المشيدة على النيل ، في بئر تتصل بنفق ، على أحد جدرانه مقياس مدرج ، وكانت مياه الفيضان عند أول وصولها ، تعتبر بعد الصلاة عليها « ماء مقدسا » يرش للبركة على جموع المصلين !

اما في مصر الاسلامية ، فكان عيد « وفاء النيل » من أهم الاعياد القومية ، فعندما يحل موسم الفيضان ، يقوم المشرف على دار المقياس بالروضة ، برصد مقدار زيادة النيل عصر كل يوم ، ويقدم تقريرا يوميا للباشا وكبار الأمراء ، يحدد فيه مقدار الزيادة بعدد الاصابع ، في ذلك اليوم من الشهر العربى وما يوافقه من الشهر القبطى ، ومقارنته - سواء بالزيادة أو النقصان - بما كان عليه في نفس اليوم من العام السابق ، فإذا بلغ منسوب النيل « ست عشرة ذراعا » وضع ستر أصفر على الشباك الكبير بدار المقياس « علامة الوفاء » .. وإيذانا بأفراح اهل القاهرة بوفاء النيل ، ويبلغ قاضى المقياس - الوالى - أن النيل قد بلغ وفاءه ، فينطلق المنادون في الشوارع ، يزفون لأهلها البشرى ، فيوقد الناس الشموع والقناديل ، ويستأجرون المراكب ، وتزين مراكب الأمراء ، ويستدعى بعض المقرئين لتلاوة القرآن حول الفسقية بدار المقياس ، وتجدر الاشارة ، إلى أن أهل القاهرة كانوا يسمون هذا اليوم المحدد للاحتفال الرسمى بـ « كسر الخليج » أو « كسر البحر » .. لكن ميلهم - بذوقهم المرهف - إلى التفاؤل دائما ، فقد نفروا من كلمة « كسر » وسموه « جبر البحر » أو « جبر الخليج » !

وفي اليوم المحدد للاحتفال ، ينزل الباشا من القلعة في موكب إلى بولاق ، حيث يستقل سفينته المزينة خصيصا لهذه المناسبة ، كما تجهز ايضا مراكب الأمراء والصناجق ، وتقلع سفينة الباشا في المقدمة ، بينما تنطلق المدافع تحية له ، إلى أن يصلوا جميعا إلى دار المقياس ، فيجتمع الباشا ونائبه ، وشيخ البلد ، وأمراء المماليك ، وقاضى القضاه ، وكبار العلماء والأعيان ، وبعد الفراغ من السماط وتوزيع « الخلع » .. يمضى الباشا في موكبه ومعه قاضى القضاه وبعض الامراء ، ليتم كسر « سد الجسر » بين دقات الطبول ، فيتدفق الماء في الخليج ، وينساب في قنوات القاهرة ، وتفيض منه بركة الأزبكية وبركة الفيل ، وغيرها من المتنزهات والرياض ، وقد جرت العادة ، أن يلقى الباشا بقبضات من العملات الذهبية والفضية ، في يوم وفاء النيل ، فيتسابق للفوز بها امهر الغواصين ! .. ويخرج اهل القاهرة في مباهجهم ، وتنطلق المدافع ، وتقام الزينات وتضاء القناديل في المنازل والقصور وعلى جنبات بركة الأزبكية وغيرها ، وتسير في الخليج الزوارق المزينة المتلألئة بانوار القناديل وتتميز قوارب النساء بهوادجها التى تحجبهن عن عيون المتطفلين ، وتصدح الموسيقى وأصوات المطربين من كل مكان .. ويمضى اهل القاهرة يومهم هذا - نهارا وليلا - في سرور وبهجة غامرة ، فإذا كانت البلاد في حرب او مجاعة او وباء ، لايقام هذا المهرجان السنوى ، فيكسر الخليج ليلا ، فيرى الناس الماء ينساب في الخليج صباحا ، فلا يقيموا له زينة أو احتفالا ! .. ولمزيد من التفاصيل : راجع خطط المقريزى ، الجزء الثانى ، ص ٤٧٠ - ٤٧٩ .

ويوم وفاء النيل او فتح الخليج ، كان من المشاهد التى استأثرت بمخيلة بعض الرحالة العرب والاوربيين ، فسجلوا مشاهداتهم وانطباعاتهم عنه ، وفي رايى أن ابرع وادق وصف لهذا العيد ، ذلك الذى ابدعه لنا : الحسن الوزان « ليون الافريقى » فيقول :

« وتقام بالقاهرة حفلة كبرى في الأيام الأولى فيضان النيل ، يرتفع اثناءها ضجيج الصراخ والموسيقى .. حتى لكان المدينة تنقلب راسا على عقب ! .. تاخذ كل اسرة زورقا تزينه بارفع القماش وأذهى الزرابى ، وتتزود بكمية وافرة من المؤن والحلويات ومشاعل من الشمع جميلة جدا ، وجميع السكان في الزوارق يتسلون حسب امكاناتهم ، ويشارك السلطان نفسه في الاحتفال مع أمرائه الكبار وضباطه ، فيذهب إلى قناة مسورة تدعى - القناة الكبرى - وهناك يتناول شاقورا ويشرع في هدم الجدار ، ويفعل كبار الشخصيات فعله ، حتى يتهدم جزء من الجدار الذى كان يمنع وصول الماء ، فيتدفق النيل حالا في القناة بقوة كبيرة ، وينتشر من هناك في باقى القنوات بالضواحى والمدينة المسورة ، بحيث أن القاهرة تكون ذلك اليوم شبيهة بالبندقية ! ... ويستمر الاحتفال سبعة ايام وسبع ليال .. بحيث أن التاجر أو الصانع ينفق كل ما ربحه أثناء السنة ، في هذا الأسبوع ، على الطعام والحلوى والمشاعل والعطور والمغنين ، وهذا الحفل من بقايا احتفالات قدماء المصريين ! »



عرفة عبده على

كل من عاش على أرض الفراعنة الجميلة ، تلقى درسه الاول فى الجغرافيا بمراقبة النيل العظيم .. سواء على ضفة النهر الخالد ، أم بين الخرائط والأسفار ، وما ارتبط قوم بنهر قدر ارتباطنا بالنيل ، وقد عرف أجدادنا ما أفاء عليهم « سيد الانهار » من خير فأمنوا بعظمته ، وقدسوا اسمه ، فلم يذكروه إلا واحاطوه بهالة من الاجلال والتقديس .

وللنيل - صانع الحضارة - كل الفضل على العالم ، بتلقينه مبادىء الرقى الحضارى لشعوب الارض .. يوم لم تكن هناك حضارة او عمران إلا مانشأ فى وادينا الخصيب !

ولقد عنى كثير من الرحالة والادباء والعلماء والمستكشفون بنهر النيل ووصفه وتتبع منابعه وروافده ومحاولة تفسير ظواهره المختلفة ، ورصد تفاصيل الحياة على ضفتيه ..

ومن الرحالة الاوروبيين الذين زاروا مصر ، وعاشوا بها زمنا حتى تمنوا ان يدفنوا بترابها : الرحالة « بيلوتى - Pilotide Crete » الذى زار مصر فى مطلع القرن الخامس عشر الميلادى ، فى عصر سلاطين المماليك ، ووصفها بـ « بلاد الله الاولى » وقال عن النيل انه : « النهر الذى يقال انه ينبع من الجنة الارضية ، ويعيش الناس على مائه وحصاده واسماكه وفواكهه » و « .. النهر واسع جدا عند القاهرة حتى أن الناس يطلقون عليه : البحر » ..

وطبقا لمعتقدات العصور الوسطى ، سادت الفكرة القائلة بأن النيل ينبع من الجنة ، حتى ان خرائط الجغرافيين الاوروبيين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، كانت ترسم عليها « جنة ارضية - The Earthly Paradise » يخرج منها نهر النيل باسم « جيون - Gion » !

وتحدث بيلوتى عن ماء النيل الذى « لامثيل له فى الدنيا » وكيف انه « يشفى المرضى ويفتح الشهية » .. كما وصف مقياس النيل بجزيرة الروضة ، وفى كل يوم « يذهب بعض الفرسان رافعين اعلامهم إلى - شيخ المقياس - ليعلموا مقدار زيادة النهر ، ثم ينطلقون بشوارع المدينة ، معلنين مقدار إرتفاع النهر كى يطمئن الناس » .. ووصف الاحتفال بكسر الخليج « ابهج أعياد المصريين » حيث يشارك السلطان نفسه وكبار الأمراء فى هذا الاحتفال ، وتغلق الحوانيت ، وجموع الناس فى فرحة غامرة وهم يشاهدون الماء يتدفق إلى الخليج ، والقوارب المزدانة بالبهجة والالوان وهى تتزاحم على صفحة النيل ، كما وصف بيلوتى أساليب الرى والزراعة فى ذلك العصر وحركة الملاحة فى النيل .

وقد وصف الرحالة الفرنسى « جان بالبرن - J.Palerne » هذا الاحتفال عام ١٥٨٠ ، واستمر لمدة سبعة ايام ، فحدثنا عن موكب السلطان وامراء الدول فى ابهى زينتهم لحضور الاحتفال بفتح الخليج .. كما اشار إليه الرحالة الفرنسى « كوبان - J.Coppin » عام ١٦٣٨ ووصف توافد اهل القاهرة على جزيرة الروضة ، وارباب الحرف واصحاب الملاهى ، والنزهات النيلية الصاخبة ليلا فى المراكب المزدانة بالاعلام الملونة والمصابيح ، والاطفال الذين يسبحون وهم عرايا ، وحرص المماليك على الحضور فى ذهبيات كبيرة ، بعضهم يقيم سرادقات على الشاطىء لاستقبال الزوار ، ولاتقتصر الاحتفالات على جزيرة الروضة فقط ، وانما تتألق ايضا بحى الأزبكية ، حيث تفيض البركة بالمياه وفرحة الناس ..

وكان الرحالة الفرنسى « فرمانل - GFermanel » قد وصف النيل ، عام ١٦٣١ ، بانه من اكبر انهار العالم و « يخرج من جنة الارض ، وتتدفق مياهه من بحيرة عند سفح جبال القمر باثيوبيا ، فيضانه معجزة وموسمه من يونيو إلى سبتمبر » وان كان قد اعتبره كارثة فى بعض السنوات حيث « يغرق القرى فيضطر السكان إلى الاحتماء بالمناطق المرتفعة » .. واكد كوبان بأن « اجمل القرى التى يمكن ان يراها إنسان هى التى تنتشر على ضفاف نيل مصر ، الذى يحمل لها الطمى فتزداد الارض خصوبة وعطاء » .

كذلك اهتم العالم الفيزيائى الفرنسى « مونكونى - De B. Monconys » بزيارة جزيرة الروضة ، خلال زيارته إلى مصر ٤٦ - ١٩٤٧ ، ورصد ملاحظاته عن كتابة مياه النيل ، وارتفاع منسوبها فى وقت الفيضان ، وارسل إلى زملائه فى باريس بمشاهداته ونتائج تجاربه ، مؤكدا على أن « نهر النيل اقوى بكثير من نهر السين » مبديا إعجابه باعتماد المصريين على التقويم القمرى .

وسأتوقف قليلا عند العالم والرحالة الالمانى « كارستن نيبور - C.Niebuhr » الذى زار مصر فى ٦١ - ١٧٦٢ ، الذى سجل إنطباعاته عن رحلته النيلية ، قادما من الاسكندرية ورشيد فى طريقه إلى القاهرة ، فقال :

« الرحلات على صفحة النيل رائعة جميلة ، خاصة فى هذا الوقت الذى ترتدى فيه الحقول ثوبا اخضر زاهيا ، ضفتا النهر تزخرا بالقرى ،

البيوت كلها تقريبا مشيدة بالطوب اللبن ، والأوروبى القادم إلى هذه البلاد للمرة الأولى ، سيرى مشهدا غريبا جميلا متمثلا فى أبراج الحمام الكثيرة ، والمتميزة بأشكالها الخاصة ، النخيل ينمو بكثرة ، بينما تتناثر أطلال المدن القديمة » .

وقد أرفق نيبور بكتابه « رحلة إلى مصر » عددا من الخرائط والأشكال التوضيحية التى رسمها بنفسه « .. وقد رسمت على خريطتى ، مجرى الماء فوق العيون التى تحمل مياه النيل إلى قلعة القاهرة ، والذى ذكر ماريه أن السلطان الغورى هو الذى بناه » .

وأشار نيبور إلى أن ارتفاع مياه النيل ليس على مستوى واحد فى كل مكان ، ولم يسمح له بقياس درجة هبوط منسوب النيل عند المقياس ، وأضاف مؤكدا « أن النيل يرتفع فى القاهرة بمقدار ٢٤ قدما ، أما فى دمياط ورشيد فلا يرتفع النيل .. وذلك بعد أن يكون قد روى الحقول الشاسعة الظامئة حول القاهرة وملأ كثيرا من البرك والبحيرات الداخلية والفروع الصغيرة .. ويعمد الناس ، إذا بدأ النيل فى الارتفاع ، إلى سد كل القنوات الكبيرة والصغيرة وتطهيرها حتى يصل الفيضان إلى مستوى معين ، يتحدد اعتمادا على مقياس النيل بجزيرة الروضة ، حيث يعلن شيخ المقياس ارتفاع مستوى المياه عندما يتحقق منه ، وينتظر هذا الاعلان كثير من الفقراء فى مصر القديمة أو الفسطاط ، فيهرعون بالخبر السعيد ، على الفور ، إلى القاهرة ليعلنه كل منهم فى شوارع وحارات حية ، ويعود هؤلاء إلى المقياس كل يوم فى ساعة معلومة ، فيعلن عليهم الشيخ مقدار الزيادة ، وهكذا حتى يبلغ النيل الارتفاع الذى يتيح فتح الخليج الذى يجتاز القاهرة ، وتكون هذه إشارة إلى أن موعد دفع الخراج إلى السلطان قد حل ، وإلى أنه لم تعد هناك خشية من القحط » .

ثم عرض إلى المحاولات التى يقوم بها المصريون لمعرفة مقدار ارتفاع منسوب النيل مسبقا ، وهل ستكون السنة جدبا أم رخاء ، فكان الشائع فى مصر أن ارتفاع النيل يبدأ فى ليلة ١٧ أو ١٨ من شهر يونيو فى أثيوبيا ، وأن « النقطة » التى تسبب فيضان النيل بعد أسبوعين أو ثلاثة تسقط فى تلك الليلة !! .. وكانت النساء ـ مسلمات وقبطيات ـ يضعن قطعة من العجين على أسطح بيوتهن ، فإذا لم يزد وزنها فى اليوم التالى ، كان معنى ذلك أن النقطة لم تسقط فى تلك الليلة ، أما إذا زاد وزنها ، فهذا يعنى أن النقطة قد سقطت ! .. و « العقلاء من المسلمين لا يحملون المسألة كلها إلا على محمل التسلية المحضة التى تتسلى بها النساء » !

ثم نمضى مع الأديب والرحالة الفرنسى « سافارى ـ C.E.Savary » الذى رحل إلى مصر عام ١٧٨٣ فشغف بها حبا ، حتى وقع أسير غرام مبرح على ضفاف النيل بالقرب من مصبه فى رشيد ، ووصف الجنان الخضراء على ضفتى النهر ، والفلاحين منهمكين فى رى حقولهم والسواقى تدور بنغم رتيب ، والنسيم يعبث بأعواد شجيرات الأرز التى شارفت على الحصاد .. ثم سجل لنا مشهدا ريفيا فى أسلوب يفيض رشاقة .. ولنقرأ معا تلك اللوحة الفنية :

« .. وصوب النهر ، تتهادى الصبايا من القرى ، فى خطى متمايلة لغسل ثيابهن وملء جرارهن على ضفافه ، ثم ينزلن إلى النهر يستحممن بعد أن يخلعن أرديتهن على الشاطىء ، فتبدو أجسادهن الممشوقة رائعة جذابة يدلكنها بطمى النيل ، ثم ما يلبثن أن يغصن تحت سطح الماء ، يتابع بعضهن بعضا وسط الأمواج الحانية ، وقد استرسلت خصلات شعورهن على أكتافهن الداكنة وبشرتهن قد لوحتها الشمس المتلظية » ..

وقد وصف المهندس والأثرى الفرنسى عضو البعثة العلمية المرافقة لحملة نابليون « فرانسواجومار ـ E.F.Jomard » احتفالات فتح الخليج عام ١٨٠٠ ، وقد غلبت عليه الفخامة ، حيث أقيمت مقصورات على الطراز الفرنسى ، مزدانة بقماش السرادقات ، ومدرج للموسيقى ، وقد قسمت الكيمان الضخمة الناتجة عن تطهير الخليج إلى مدرجات ومصاطب ، وكان جمهور المشاهدين فى هيئة رائعة ، وبينما الموسيقى التركية تصدح « كان الشيوخ يصحبون موكب الجنرال (بونابرت) كما شوهدت بعض النساء التركيات ذوات المكانة ، وكثر اطلاق المدافع من جزيرة الروضة والحصون المختلفة .. وما أن يستقر منسوب الماء ، تبدأ المراكب الشراعية المزدانة بالأعلام الملونة فى الدخول إلى الخليج ، وتطلق الألعاب النارية .. والنهر يغطى تقريبا كل الوادى ، حتى يمكننا القول أنه يبدو كبحر كبير مرصع بجزر صغيرة .. وفيما مضى كان الباشا يرأس هذا الاحتفال ، يصحبه كبار رجال الدولة ، وكان البكوات والمماليك يشغلون مكانا خاصا ، وفى وسط مجرى الخليج ، أمام السد ، كانت تقام كتلة من الطين تسمى ـ عروسة ـ يدفعها الماء عند فتح السد » .

وفى عام ١٨٣٦ ، سجل الرحالة البريطانى : لورد « لندساى » إنطباعاته عن لحظات عاشها وهو مستلق على سطح دهبية تصعد به فى النيل

« .. عندما ينبسط أمامك منظر مجسد لجمال لا ينتهى ، فهاهى القرى وأبراج الحمام والمساجد واضرحة الاولياء .. واطلال الفراعنة والاهرامات واشجار السنط ، ويفوق هذا وذاك مشهد النخيل .. تنحنى فى تكاسل قمم اشجاره المتوجة بالسعف والمثقلة بالقمار الحمراء .. مشاهد تمضى كالاحلام الناعمة فى سلام وسكون » !

فى عام ١٨٤٩ ، وصل إلى مصر الاديبان الفرنسيان : « جوستاف فلوبير » و « ماكسيم دى كامب ـ M.Du Camp » عاشق النيل .. النهر الذى الهمه كتابة « Le Nil, Egypte et Nubie » حتى انه تمنى ـ فى أواخر حياته ـ العودة إلى منابعه ومجراه ليموت هناك ، وقد أبدع فى وصف لقائه الاول به ، حيث يقول :

« ما ان رايته حتى القيت بنفسى فى قارب .. اقترفت منه بيداى وشربت منه شربة طويلة ، كانى كنت أؤدى طقسا دينيا ، المس بعضا من احلامى .. كنت وانا طفل صغير ، اتمدد على خرائط مصر فاتتبع باصبعى تعرجات النيل التى لا تحصى ، تصورته فى غاية الروعة والجلال ، تغطيه جُزر تغفو عليها التماسيح ، عريضا ، شاسعا ، مخصبا : مجتازا الحقول المزروعة او غامرا اعمدة المعابد المتهدمة ، مفتتا ضفافه الصخرية ذات الحجر الكلسى الابيض ، او ساقيا غابات النخيل ، او متواثبا على صخر شلالاته الاسود ، متسعا حتى لكانه البحر ، تهزه العواصف حين تهب الخماسين ، او يسيل ساكنا تحت الشمس ، ارتفعت مياهه او انخفضت ، تجلى لى ، فى كافة حالاته هذه .. عظيما ، رائعا ، حتى حسدت من ولد على ضفتيه ، إنى اؤمن ـ إيمان العرب ـ انه ينبع من الجنة » !!

ثم نمضى مع الأديب والرحالة الفرنسى الشهير « بيير لوتى ـ P.Loti » الذى لمس بحسه المرهف ما تنطوى عليه اعماق الانسان المصرى ، خالق اول واعظم حضارة فى العالم ، وقد صاغ كتابه « موت فيلة ـ La Mort de Philae » باسلوب ساحر جذاب ، واطلق على جزيرة فيلة « لؤلؤة مصر » واحدى عجائب الدنيا .

توجه لوتى إلى صعيد مصر عام ١٩٠٧ ، وتامل فى رحلته ـ النيل العظيم ـ وكيف صنع على ضفتيه شريطين خضراوين مفعمان بالنبت والخصب ، تحت سماء مشرقة لا يحجبها ضباب ، وهنا تالق الابداع الانسانى للشعب الذى ابتكر فكرة الخلود .. و « اليوم يبدو أن الغزاة الجدد جادون فى تغيير معالم الوادى ، انهم يخنقون النيل بالسدود ، يستذلونه من اجل إنبات الارض القاحلة ، ويضيع فى خضم ضجيجهم ودخان بواخرهم سكونه وسحره ، وتفقد رحلات البواخر النيلية روعتها فى فصل الشتاء ، هذه الرحلة التى تلاحق المسافر فيها اشباح الاهرام عدة ايام ، إلى ان تختفى معالم كل شىء وسط الماء وخضرة الارض ، ولا يدرك المرء مرور الايام إلا مع اختفاء الشمس وظهورها ، الفلاحون على الشاطىء .. النساء يملان الجرار .. وقطعان الماشية تروى ظماها وتستحم على سجيتها ، والسواقى والشواديف تتراءى وتتعاقب على نفس صورتها فى زمن الفراعنة .. ووراء الخضرة ـ وسط الرمال ـ بقايا آثار مجد مصر القديمة ، وإعلانات الدعاية لشركة كوك السياحية ، تحجب وراءها جمال النخيل ، ودخان قطار يلهث بين الدلتا واسوان بعتاد المحتلين الاوربيين ، والصخور الصفراء تحتضن الوادى من جانبيه ممتدة حتى النوبة التى تبدا عندها صخور الجرانيت المعتمة .. وكلما ارتقينا نحو الجنوب ، زاد الاشراق وتوهجت الحرارة وطالعتنا وجوه أشد سمرة .. مسكين هذا النيل الذى شهد عبر آلاف السنين ؛ موكب الآلهة والملوك .. تجثم عليه اليوم بواخر شركة توماس كوك ، وتعتصر كل قطرة من خيراته لينبت اقطانا انجليزية » .. !

ويشير العالم البريطانى « ورثنجتون ـ B.Worthington » فى كتابه « النيل » .. فى الفصل الخاص بعصر بناة الأهرام « العصر الذى قدم ادلة قاطعة على رقى سكان وادى النيل المصرى وبلوغهم أعلى مراتب الحضارة والتنظيم » إلى أن النيل قد غير مجراه عدة مرات بفعل النحر والترسيب ، وان « المجرى الرئيسى للنهر زمن بناة الاهرام ، كان اكثر قربا نحو حافة الصحراء الغربية ، وكانت رأس الدلتا ايضا فى مكان اقرب مماهى عليه الآن ، وكانت مياه النيل ـ خاصة وقت الفيضان ـ تصل إلى حافة هضبة منف التى شيدت فوقها الاهرام » .

فى عام ١٩٦٠ قام الامريكى « بروس براندر ـ B.Brander » عضو هيئة المجلة العلمية الشهيرة « National Geographic » بسلسلة تحقيقات عن النيل والبلاد التى يجرى خلالها ، ثم جمعها فى كتاب فخم رائع بعنوان : « The River Nil » .. فتحدث عن الآثار التى خلفها المصريون القدماء على ضفاف النيل ، تراثا إنسانيا ، وشاهدا على مجدهم الحضارى وماحققوه من نبوغ فى شتى المجالات .. وقد كان من المعتقد ان هذه الآثار الرائعة ستختفى تحت مياه بحيرة السد ، إلا ان العالم كله ـ فى إطار حملة قادتها منظمة اليونسكو ـ قد سارع بتلبية النداء لانقاذ كنوز إبداعها الانسان المصرى ، وعلى راسها معابد ابوسمبل وفيلة وكلابشة .. والتى كتب لها أن تلوذ بالخلود دون أن يتعثر بناء السد العالى .

وبعد .. فالنيل « عشقنا الخالص » عندما يصفو لحبيبه .. راح ينثر الخير والحب والجمال بملء راحتيه !

المراجع والمصادر ←

المراجع والمصادر :

١- آلان مورهيد : النيل الأبيض ، ترجمة : بدر الدين خليل ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥

٢- اميل لودفيج : النيل - حياة نهر ، ترجمة : عادل زعيتر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥١

٣- جوهار ، ف. : وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل ، ترجمة وتقديم : أحمد فؤاد سيد ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٨٨

٤- كارستن نيبور : رحلة إلى مصر ، ترجمة : مصطفى ماهر ، القاهرة ، ١٩٧٧

5- Du Camp, Maxime : Le Nil, Egypte et Nubie, Michel Lévy, Paris, 1854

6- Loti, Pierre : La Mort de Philae, Calmann Lévy, 1908

7 - Fermanel, G. : Voyages en Egypte 1631, IFAO, Le Caire, 1975

8 - Monconys, De Balthassar : Les Voyages en Egypte 1646-1647, IFAO, Le Caire, 1971

9 - Palerne, J. : Le Voyage en Egypte 1581, IFAO, Le Caire, 1970

10 - Savary, C.E. : Lettres sur l'Egypte, 3 Vols, Paris, 1785-1786